طارق عز

# أسفار مريم المحرمة

رواية

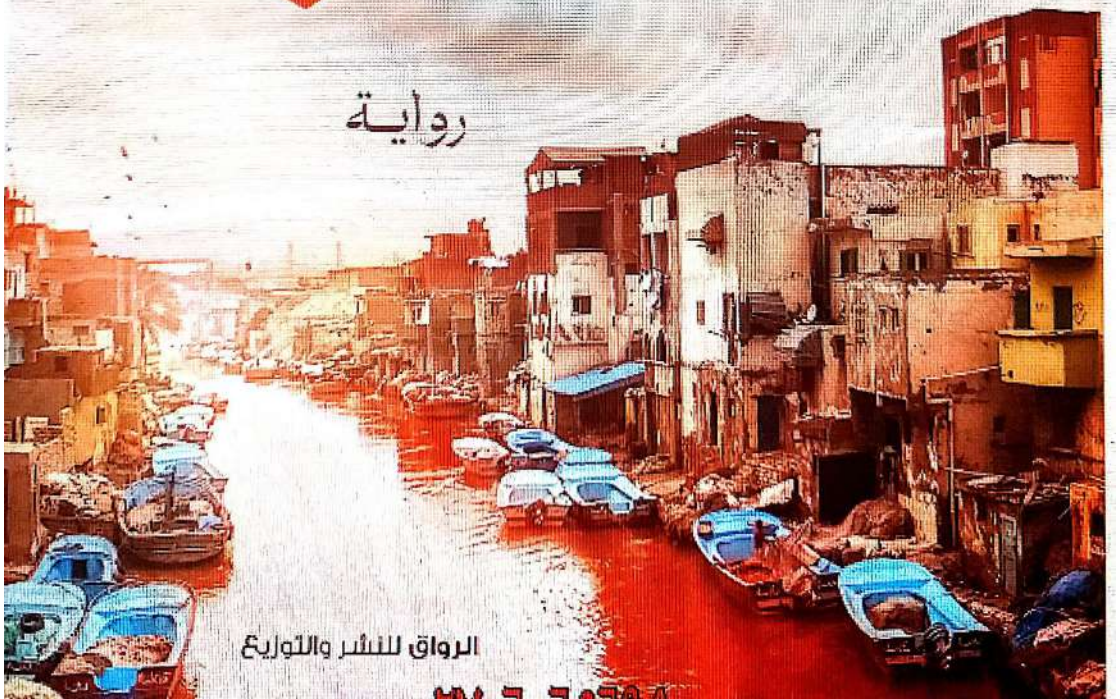

الرواق للنشر والتوزيع

# إهداء

إلى أمي بالأول والأخير

لولا أنت ما كنت أنا.

# إهداء

إلى الكاتب/ ضياء الدين خليفة...

يومًا ما في جلسة رائقة تحدّيتني لكتابة رواية من أصل قصة قصيرة، وكنت تعلم أني أستطيع، ثقتك في قلمي أخرجت هذه الرواية للنور.

أفتقد نقاشنا فيها ومشاغبتك المحببة.

تمنيت أمساكها بيديك لكن قدرك كان أسرع.

لروحك السلام.

# البداية

**31 ديسمبر**

**قبيل منتصف الليل**

أقف على حافة سطح قلعة قايتباي بالإسكندرية، أنظر إلى الأمواج الهادرة تتحطم على الصخور القابعة تحمي شاطئ القلعة، مثلما تحمي القلعة نفسها الإسكندرية منذ قديم الأزل.

أنظر إلى اللفافة التي بيدي، أسمال مهلهلة لُفّت كيفما اتفق حول...

طفل رضيع!

أرفع عن وجهه الغطاء ليتنسّم معي رائحة البحر للمرة الأخيرة...

لا يبكي رغم الجوع.

رغم العري.

رغم البرد.

رغم مصيره المظلم.

بل ينظر إليّ بسكون غريب. كأنه يعلم ذلك المصير، بل ويتقبله.

الغيوم تلتحم في كتلة واحدة قاتمة، تنهمر منها دموع السماء وتلتحم مع دموعي لتشوش الموجودات من حولي، تمضغ الريح أسمالي أنا الأخرى بلا هوادة.

أخاطب رضيعي بصوت متقطع من عويل الريح والبرد القارس:

«سامحني يا صغيري، لا أستطيع الاستمرار».

أتقدم خطوة للأمام، قلبي يتمزق وعيناي لا تفارقان عينيه الجميلتين ولكنه ما زال لا يبكي.

أتقدم خطوة أخرى، يشتد صوت الريح مصحوبًا بضربات الموج تصم أذني كأنها تعترض على الخطوة.

وما زال لا يبكي.

خطوة أخرى أخطوها، المطر يغير وجهته خصيصًا ليدفعني للخلف بزخات متتالية، تلازمه قبضة البرد الثلجية التي تجمد اللبن في ثديي إلى حد الألم.

وما زال لا يبكي.

خطوة أخرى قريبة للغاية من الهدف، بلا تراجع.

يتلامس باطن قدمي العاري مع السور المبلل، من أجل تلك الخطوة تضيء السماء بضربة برق مرعبة. انتفض لها جسدي وكأنها تحذرني من المزيد، انعكس النور على عيني الصغير بين ذراعي، فأضاءتا بومضة خاطفة.

ولكنه مع ذلك لم يبك.

وجهه الصبوح يفتت من عزمي، لكن إصراري ينتصر، خطوة جديدة مرتعشة أرفع بها قدمي الثانية وأعتلي السور.

يتبع الرعد رفيقه البرق، فيتزامنا مع ضربات قلبي التي تنافسه علوًا.

أنظر حولي أتأمل البحر صديق الصبا والشيخوخة المبكرة، أمواجه الغضبى تجلد جانب القلعة أسفلي بقسوة محذرة:

«لا تستمري».

الرياح تشد من أزرها في إثناني عن قراري منذرة:

«لا تفعلي».

الأمطار.

الرعود.

البروق.

السحب.

كلها تنشد معزوفة حزينة في أذني برسالة واضحة:

«لا تُقدمي».

رغم ذلك أنصاع لقدري المحتوم وقراري الأوحد في حياتي، للمرة الأولى أحارب لفرض إرادتي.

فأستمر وأفعل وأقدم، أتحرك ببطء نحو الهاوية منتهية من السور العريض.

صدري ينقبض، تقلبات الطقس من حولي تعزف موسيقى ناي حزينة في أذني كالبكاء

المصاحب للحظة الحقيقة.

اللحظة التي...

التي...

أرفع زراعي فيها إلى الأمام كأني أقدّم طفلي قربانًا للبحر.

الريح تطير القماشة التي تغطيه فيصبح عاريًا كما ولدتُه.

لا أجرؤ على النظر إليه.

أنكّس رأسي لأسفل في خزي.

لكن قلبي يجبرني على رفع وجهي إليه، أستقبل نظرة أخيرة من وجهه النوراني.

ما زال لا يبكي.

بل لعله يبتسم!

مع نظرته تنهار مقاومتي ومعها قدمي، فألقي بجسدي معه إلى الأمام.

ونهوي معًا وأنا أصرخ:

«سامحني يا ولدي، لقد تخلى الله عنا»!

***

مهلًا.

من هي؟

من هو الرضيع؟

لماذا تلقي بنفسها في اليم؟

دعني أخبرك بما حدث قبل ذلك اليوم بسنوات طويلة.

# - 1 -

## سِفر ما قبل الميلاد

### نور

أنا نور المتصابية العجوز!

نعم... أعلم أني متصابية، فأنا أهتم بمظهري وملبسي، لا يمكن أن تقع عينك على من هو أجمل مني أو أبهى ولا من هو أفضل.

ونعم... أعلم أني عجوز، فأنا هنا منذ أن ظهر أول شخص على هذه الأرض. وباقية بعدهم جميعًا.

أين هي هذه الأرض؟

أهلًا بك في «المكس» وصمة العار في جبين الإسكندرية!

تعالَ معي في جولة سريعة أريك المنطقة، أعطني يدك فلم تعد الصحة تحتمل المشي.

دعني أهمس في أذنك: لا تصدقني.

نعم، عجوز، لكن منتصبة الظهر في كامل عنفواني.

رغم شعري الفضي فلا تجعيدة واحدة في وجهي.

يقولون عني منعزلة غريبة الأطوار، غير أني مهابة من الجميع.

ضئيلة الجسد، غير أنك تشعر بقبضتي تسحق ساعدك...

لذا لا تصدق قولي كاملًا فأنا أهوى اللعب؛ فلا تسلية باقية غيرها مع طول عمري.

دعنا من الكلام عني، مع أنه أطيب الحديث لقلبي، لكن لنعد لموضوعنا.

إن كنت لا تعلم، فهذه المنطقة جزء من منطقة العامرية، وبدأت مساكن للصيادين وما زالت.

لكن لماذا تهتم أصلًا؟

لا.

لا تخبرني...

دعني أخمن، ربما أنت فقير مثل كل سكان بلادنا، شاهدت صور فينيسيا الإسكندرية رخيصة التكاليف فأتيت طامحًا متسائلًا.

لا أعلم من هو السائح المأفون الذي أطلق هذا الاسم على المكان، أصلًا ما وجه الشبه بين المكانين؟

مهلًا، هل تقصد التنقُّل بالقوارب بين المنازل؟

يا لك من غرا! تلك التوابيت البائسة لا تصلح لشيء إلا للغرق.

لماذا اصفرّ وجهك؟

لا تقلق، لن تغرق أبدًا وأنت معي، دعنا نكمل طريقنا من هذا الزقاق الضيق بين البيوت المتهالكة، احذر من بِرَك المياه الآسنة المتبقية من أعاصير أمس. نحن في ديسمبر كما تعلم؛ لا تتوقف السماء عن قضاء حاجتها على أم رؤوسنا.

انتبه لهذه العتبة البارزة، هي لزاوية جبريل، ذلك المدَّعي ذو الصوت الخشن، المصر على إزعاجي في الفجر بالأذان.

يصيح في مكبر الصوت، نصف نائم، نصف مغيَّب من آثار الحشيش الذي يتعاطاه وحيدًا كل ليلة، في بقعته المهجورة وراء البيوت عند طرف ترعة المحمودية.

لا تنظر إليّ هكذا يا فتى، كما قلت لك، أنا أعلم كل شيء وأرى كل شخص في هذا المكان.

حسنًا...

أنا أعلم ما في صدور الناس وما يخفون ولا ... انتبه.

خذ حذرك من الأرض غير الممهدة وأبطئ من خطواتك يا هذا، فلسنا في سباق، هلمَّ ندخل من ذلك المدقِّ الصغير لنصل إلى شط الترعة.

نعم، ترعة المحمودية، أو كما نطلق عليها نحن أهلها ترعة (الخندق)، هي الفينيسا التي تنتظرها يا فتاي المدلل.

من أين لي علمًا بفينيسا؟ ماذا؟

ألم تتعلم بعد؟

صدِّق قولي عندما أقول إني أعلم كل شيء، أنا هنا قبل مجيئك وباقية بعد ذهابك.

الآن أحكِم قبضتك على ذراعي ودعنا نركب هذا النعش الأخضر الجميل لنعبر إلى الجانب

الآخر؛ لدينا حدث مهم تحتاجني النسوة فيه.

في ماذا يحتجنني؟

يا لك من فضولي! لكني أحترم الفضول وأعشق التفاصيل، لذا سأجيبك.

من ضمن أعمالي وخبراتي التي لا تنتهي؛ أنا أفضل قابلة في المنطقة، حضرت كل الولادات التي حدثت في المكس بلا استثناء.

وإن كنتُ لا أشارك في عملية التوليد نفسها، غير أن النسوة المجانين يتبرّكون بسني ووجودي معهم، لكني أعلم الحقيقة المخفيّة!

اقترب لأخبرك في أذنك؛ فلا أريد لعبد المطلب المراكبي أن يسمع، فهو من النوعية التي لا تبل في فمها الفولة.

النسوة يحضرنني معهن لا لعلمي ولا لأني قابلة ممتازة، بل خوفًا من لساني، كي لا يجلدهن مثل السوط، فأنا أعلم أسرارهن جميعًا، ما في غرفهن الموصدة وأسرّتهن الباردة، بل ونفوسهن المحطمة.

انظر أمامك يا عبد المطلب، وإلا أخبرت زوجتك عن البيت إياه في أطراف المنطقة، الذي تذهب إليه كل جمعة بعد الصلاة يا فاجر وأنت متلحف بالكوفية خوفًا من أن يراك أحد، قاصدًا أفيونتك الجديدة، تلك الفتاة التي كنت سارحًا لتوك في ليونة مؤخرتها الأكبر من جسدها.

أحسنت يا «طلب».

انتبه لاتزان القارب، انزع عن وجهك الحمرة وانصب هامتك التي تقلّصت شبرًا، فخالتك «نور» تعلم كل شيء ولا تقول أي شيء.

ماذا كنا نقول قبل أن يقاطعنا هذا المفضوح بنظراته المتلصصة؟

آه... التوليد...

منذ أن أيقظني صوت جبريل الأجش في الفجر وأنا متعكرة المزاج، زاد الطين بلة عبور إحدى النسوة بداري قائلة إن أم مريم تلد ولادتها الأولى!

أرى السؤال يتراقص في عينك المتسعة. كيف لها أن تكون أم مريم؟ وكيف هي ولادتها الأولى؟ أعشق فضولك، ربما ستكون مقرّبًا لي يومًا.

لكن هذا الحديث مؤجل ليوم آخر، أما الآن فقد اقتربنا من هذا البيت الخرب ذي الباب

الأخضر، أتسمع عويل حنين بالداخل؟

من هي حنين؟

حنين هي أم مريم بالطبع!

اشحذ ذهنك وركز يا فتي، كنا نتحدث عن ولادتها منذ لحظات.

يبدو أن مريم تأبى الخروج لنا في هدوء، دعني أساعدهنّ وانتظرني...

لماذا لا تترك ذراعي يا فتى؟

الفضول ما زال يتراقص في عينيك، ماذا؟! ألم تر من قبل ولادة منزلية؟

أم تهتم بتلك الولادة بالتحديد؟

لكن بيوتهن لها حرمات، ماذا يقلن إن دخلت وأنت في يدي؟

ستكون فضيحة، يلتهمنك فيها حيًا أولئك النسوة المتوحشات، فهن يعشقن الحشمة والمظاهر الفارغة، لكني أعلم كل قاذوراتهن.

مازلت على إصرارك؟

سأتصرّف!

دعني أعقد معك صفقة. فأنا لا أعتقد في حرمات البيوت المزعومة تلك، سأطلعك على ثقب في الجدار المتشقّق، يسمح لك بمشاهدة كل ما يحدث في الداخل. على شرط؛ ألا تفتح فمك ولا تتكلم فيما سترى إلا معي، فأنا سرك وسر الجميع.

اتفقنا؟

عظيم، الآن اذهب وأنا سأدخل ولنلتقِ بعد ذلك.

فاليوم نجهز المسرح لاستقبال، بطلة العرض!

## سِفر الميلاد

تدخل نور الغرفة فيعمُّ الصمت؛ إلا من أنين مكتوم صادر عن السرير المعدني الصدئ، بينما تقف النسوة منكسات الرؤوس في مشهد جنائزي وقد أسقط في أيديهن؛ على ما يبدو الولادة متعسرة ومريم ترفض النزول للدنيا الموحشة...

حكيمة هي تلك الفتاة!

لكن كيف عرفت تلك العجوز أن القادم فعلًا فتاة؟

ربما كانت تعلم الكثير كما تدَّعي.

الحق أن لحضورها بين النسوة سطوة طاغية. الصمت يلجم الجميع كأن على رؤوسهن الطير، حين دفعت الباب ودخلت بمنتهى الهيبة انتصبن واقفات بعد أن كن متفرقات في أرجاء الغرفة. تلك تمسح عرق المعذبة التي تتألم، وأخرى تجلس أرضًا على البساط الأحمر الممزق تلقم رضيعها ثديها البض، وثالثة تتهامس مع رابعة؛ بالطبع في سيرة الرابضة على السرير، فلا بأس أيذًا من الخوض قليلًا في سيرتها هي وأهلها متبوعة بمصمصة الشفاه وجملة: دع الخلق للخالق.

كانت الغرفة ممتلئة بسبعة من النسوة تحديدًا، تجمَّعن كحبات المسبحة السبعة بعد تفرُّقها ووقفن ينظرن إليها بتوجس وترقب للتعليمات.

حتى حنين -أم مريم المستقبلية-كتمت صرخاتها التي كانت تمزق عنان السماء منذ قليل بالعض على قماشة قذرة ملطخة بأشياء غير مفهومة.

أما نور...

ارتسمت على وجهها نظرة غريبة... خليط...

خليط من صرامة من يملك سلطة عليا في المكان.

اشمئزاز من يرى أخطاء الهواة ممن سبقوه.

ترفُّع من يعلم أنه أفضل من كل الموجودين.

حنوٌ على من سيأتي.

نقمة على.. على شيء ما!

تقدمت في تؤدة كأنها تملك كل الوقت في العالم، وللعجب يبدو بالفعل أن الزمن تباطأ من حولها؛ الكل متوقف إما ثابت بالكلية أو متحرك بحركات ضئيلة لا تُرى بالعين المجردة، النسوة يتحلقن حولها كالذبابات حول النار، كأنها تشع طاقة أكبر من الزمان والمكان بل من الواقع نفسه.

أشارت بطرف عينها لأقرب النسوة من حنين كأنها تسأل، لكنها في الحقيقة لا تحتاج إلى السؤال، يكفيها نظرة إلى حال المسكينة وهي تتلوى تحت وطأة ألم مكتوم لا يحتمل.

ومع هذا يظهر جمالها المرهق جليًا!

ملامحها دقيقة محددة بنعومة نحات محترف، الشعر الأسود الكالح كالليل السكندري مبعثر حولها، معجون بعرق جبهتها الوضاءة الصافية، عينان تحملان حزن الدنيا كله، تتكلمان بألف كلمة يعجز عن فك طلاسمها أعظم المترجمين، وتحكي...

تحكي عن الفراق والألم.

عن الاشتياق والفقد.

الأنف الصغير متسع الفتحتين في تنفس سريع يشي بخطر قادم.

فم دقيق مزموم تارة ومفتوح طوزا، جاف كأنه صحراء، متشققة الشفاه تعض أسنانها العليا على الشفة السفلى حتى تُدميها.

تتلوى في الفراش فلا يخفى على الناظر قدها الدقيق رغم انتفاخ بطنها أسفل الملاءة الزرقاء التي ضاع لونها.

تزلزلها أوجاع الانقباضات وصعوبات المخاض.

تنظر لنور مستنجدة وتبادلها الأخرى النظرات متفهمة.

ترفع نور نظرتها الكاشفة عن حنين وتحولها في حياد إلى النسوة المتحلقات حول السرير، كأنما هو الإذن المنتظر ليبدأ الصخب. تحدثن جميعًا بغوغائية في وقت واحد، هذه تقول إن الفتاة تتألم والأخرى تستعرض ما فعلت من أجلها مقترحة المزيد من الإجراءات التكميلية للمساعدة، ثالثة تسرد حوارًا دار بينها وبين أخرى اختلفن فيه على التعامل الأمثل مع الحالة، تتقمص في سردها دورها ودور المنافسة فتنفعل وتغير نبرة صوتها وتمط شفتها السفلى في استهجان.

يبدو للسامع أن الأصوات آتية من البحر لا أول لها ولا آخر، ولا يُسمع منها ما يفهم، ويُفهم

منها ما لا يفيد.

لم تتكلم نور، بل رفعت يدها اليسرى مفرودة الكف وقد زمّت شفتيها في غضب، فساد الصمت المهيب.

أنزلت يدها على جبين المتألمة وهي تتمتم بما لا يُفهم ولا يُسمع، مغمضة العينين كأنها تسبح في عالم آخر، تتراجع متمايلة للأمام والخلف كأنما هي تسمو فوق الموجودات.

تنفصل عن الغرفة وعن النسوة.

عن المدينة والسكان.

عن الزمان والمكان.

تقترب من الأعالي.

من يراها من بعيد يظنها زقية تساعد الفتاة.

تزامن ذلك مع النور المحمرّ للغروب، المتسلل من خصاص النافذة منعكسًا على وجهها بإجلال.

ساد الغرفة جو غريب، روحاني بشكل ما حتى كاد الحاضرون أن يشموا رائحة رائقة معطرة أقرب إلى بخور خفيف مهدئ ومدوخ، بل هو مسكر، إلا أنه ليس صافيًا تمامًا تتخلله ذبذبات أو موجات مضطربة كأنها غضب مكبوت.

رغم هذا كان لما حدث مفعول السحر، فقد هدأت تشنجات الفتاة وارتاحت عضلاتها، وبدت أقرب إلى الارتخاء، فأسبلت عينها قليلًا وإن لم تغلقهما، فما زالت ترتعش الأجفان وتتحرك الأحداق أسفلها.

مع هدوء حركتها النسبي تنفس الجميع الصعداء بصمت حذر، وابتعدت النسوة عن تحلقهن حول السرير قيد خطوة واحدة، ولكن...

دون أي مبررات قالت إحداهن محطمة حالة السكون بصوت حاد مبحوح وأد الصمت الوليد: انقطعت أنفاسها!

التفتت الأنظار إليها في لوم لأنها أخرجتهن من حالة الوسن التي كن يسبحن فيها، كن في أكوان أخرى، عوالم تولد وأخرى تفنى، مجموعة من المشاعر المخلوطة بصفاء لن يتكرر، أنزلتهن من كل هذا إلى أرض الواقع المرير.

إلا أن هذا لا يهم مقارنة بما حدث بعدها، فقد بدأت حنين تتلوى من جديد، وعادت إليها

الآلام بأعنف مما كانت، وكأنما انقطع ما كان يسكنها بانقطاع الصمت؛ فأخذت بالانتفاض وهاجمها طنين بأذنيها مع وخز الوضع أعنف مما كان.

إلا أن هذا أيضا لا يهم!

فالأهم هو نور التي التفتت ترمق المتكلمة بعينين تنزّان مقتًا، وجهها مكفهر وحاجباها منعقدان، أنفها متسع المنخرين، نظراتها تثقب من ثقبت جدار الصمت. التي بدورها انكمشت تتلفت حولها للنسوة بلسان حال: هل من معين؟

نفسي... نفسي، كل منهن صاحت بها في قرارة نفسها، مبتعدة عن المذنبة كأنها مصابة بالطاعون، منهن من تفادت مجرد تلاقي الأعين معها.

فأخذت في الانكماش أكثر حتى انزوت في ركن الغرفة صامتة تهطل دموعها كشلال، كأنما نظرة غاضبة من نور هي عقاب أشد قسوة من الجلد بالسياط.

عادت ملامح نور للهدوء التدريجي، وإن لم تتخلَّ عن الصرامة، بل تخلت عن الصمت وهي تلتفت للمسألة الأهم: حنين المتألمة.

تصدح بأوامرها في النسوة، كأنها لواء في ميدان معركة يقود جنوده نحو نصر مرتقب طال انتظاره.

دبَّ النشاط في الغرفة، فانطلقت تلك تسخن إناء من الزهر على موقد بدائي...

وهذه تخرج بعض الشراشف البيضاء النظيفة المتهالكة قليلًا من دولاب قديم بمفصلات صدئة...

وثالثة ورابعة وخامسة... الكل يتحرك في تناغم سيمفوني بتوجيهات نور قائد الأوركسترا.

تنبعث رائحة الدماء المعدنية، تتواءم مع الصراخات المتبادلة بين الأم والطفلة مصحوبة بشهقات النسوة المتتابعة، فبعد شد وجذب طال، وتأوهات متغيرة المغزى بين الفرح والاشمئزاز!

آخيرًا أتت مبتلة زلقة حمراء... أتت صارخة مبشرة بميلادها.

أتت مقلوبة حاضرة الجسد غائبة الإدراك. ناقمة على خروجها من الأمان إلى الوحشة، كأنها تفهم ما هي مقبلة عليه!

أتت...

«مريم».

## - 3 -

# سِفر ما بعد الميلاد

## مريم

يقولون إن المرء عندما يموت تعبر أمامه مشاهد حياته كاملة.

تفر منه الذكريات كأنما ثقب وعيه وينسل منه كيانه.

كيف علم هذا من يقولون؟

هل عادوا من القبور وأخبرونا؟ أم هي التكهنات؟

وهل يقتصر ذلك الإحساس على الموت فقط، أم مقدماته بالتبعية؟

فها أنا لم أمت بعد.

بل أسقط...

أهوي من أعلى نقطة في القلعة، لا إراديًا ألتف وأحتضن رضيعي بين ضلوعي مع أني من قفز به!

من المفترض أن أرتطم بالأرض فورًا. لكن ما الذي يحدث؟

لماذا تتباطأ الموجودات من حولي؟

لماذا أشعر بأني أسمو، أشف، أرتقي؟

أمتص رائحة اليود من البحر والهواء المكهرب من البرق والرطوبة من الرمل المبتل.

أسمع خواطر الأمواج ونعيق الأمطار وسباب الرياح.

أرى ألوان الطيف كلها وما بينها. بل أرى ما لم أكن أرى من قبل؛ أطياف أرجوانية تسبح حولي في الهواء وتتباطأ مع سرعتي المتمهلة.

أجهل مكنونها ولكني أشعر بالصفاء نحوها.

نعم أشعر.

تدمر السامعين.

أحس بالماضي السحيق من طفولتي.

ربما قبل ذلك.

منذ كنت في رحم أمي!

***

رحم أمي.

مساحة الأمان، الجنة التي طردت منها مجبرة، مع أني لم آكل من الشجرة، ولم تمس التفاحة الملعونة شفتي بعد.

ألا تصدقني؟

لقد كنت في الجنة آكل وأشرب بلا حساب، لا أخشى الموت ولا الحياة.

لا أحمل هم شيء أو شخص، أسبح في سكينة رائقة البال.

لا يخصني من حارب من...

ومن استوطن أرض من...

من لا يجد قوت يومه ولا من مات من التخمة وأكل اللحم.

فكل طلباتي أوامر وكل رغباتي تطاع.

ألا تُحسب هذه جنتي إذًا؟

لكن كل ذلك النعيم ذهب عندما شعرت بالزلزال الذي ضرب جنبات جنتي فأخذت تنقبض لتطردني منها!

ما الذي أذنبته؟

لم يوسوس لي ولم أنصع لخطيئة الفضول بعد!

شعرت بالظلم... نعم رغم أني لم أولد بعد. شعرت بالظلم، فقررت ألا أنزل وألا يطبق على الحكم في جريمة لم أرتكبها. لن أعاقب، لن أخرج للدنيا الظالمة بلا جريرة.

قاومت بكل ما في جسدي الضعيف من قوة.

قاومت الظلم والطغيان...

تظلمت ونظمت وقفة احتجاجية في ميدان الرحم.

يسقط.

يسقط... ما الذي يسقط؟ الظلم ربما؟

أنا أريد إسقاط النظام.

أي نظام؟ الذي ظلمني ربما؟

تشبثت وتثبتت وأنشبت مخلبي في جدار الرحم، لكن للأسف، أصابعي لا تطاوعني فتنفتح، ألجا إلى الحل الأخير.

آخر ما أملك في جعبتي الخاوية أصلًا.

أدير جسدي بكل ما أملك من عزم، أبعد رأسي عن المخرج، لن أذهب إلى الجحيم بنفسي، إن استطعتم أن تخرجوني فلتفعلوا، وإلا فأنا هاهنا قاعدة.

إلا أن عالمي نفسه تآمر ضدي، فاستمر الرحم في الانقباض ليطردني.

لا... لا تفعل... دعني أبقى قليلًا ربما أحسن عملًا.

سأكون بنتًا طيبة، لن أفعل ما فعلت، والذي لا أدري ما هو.

أنا أهاب قسوة عالمكم البغيض.

لكن... ما من فائدة.

أطرد للبؤس الذي سيلازمني طيلة حياتي، تلفحني حرارة الغرفة الخانقة.

أتذوق طعمًا غريبًا على لساني... لعله دم أو لبن أو خليط بينهم!

أشم عرق النسوة والبخور الخفيف المنبعث من مصدر لا أعلمه.

أسمع بكاء أمي وزغاريد الحمقاوات احتفالًا بقدومي لدنياهن الخربة، تحتفلن بخروجي من جنتي؟ لماذا؟

كأنما تحتفلن بموت الإنسان لا عرسه؟

أدرك الموجودات مقلوبة من حولي، نعم ربما كانت عيني مغلقة لكني أرى بشكل ما، وكان أول من رأيت هي نور تحملني مقلوبة.

أشعر بها تصفعني على مؤخرتي بلا سبب.

## - 4 -

# سِفر التلاقي

صوت يدوي خلال السقوط في أذن مريم:

هنا كانت البداية!

***

السكون.

بعد انقطاع الصخب وتوقف عويل مريم وأنّات أمها ساد سكون عجيب، الوقت يتحرك بمقياس مختلف عن الدقائق، كل من كان في الغرفة يسري في فضائها لا يمشي، فلا تسمع وقع خطوات للنسوة السبعة وهن يلملمن الشراشف المبقعة بالدماء القانية والمناشف الندية بالعرق.

مريم مستكينة في حضن أمها، تلتقم ثديها الأيمن مغمضة العينين مقطبة الجبين، كأنها ما زالت تعترض على ظلم إحضارها إلى هذا العالم الملعون رغمًا عنها.

تضع الأم كف يدها اليسرى أعلى وجهه الرضيعة تقيها آخر شذرات الشمس الغاربة من خصاص النافذة.

مشهد عجيب يخلد في الذاكرة، الضوء يضفي هالة غريبة حول رأس الفتاة بلون ذهبي آخاذ، تتحول معه الصورة إلى لوحة جدارية على كاتدرائية أقرب لصور القديسين.

تخرج النسوة واحدة تلو الأخرى دون أن تندفع منهن التبريكات المعتادة، تسبقهن «نور» بعد أخفت المشيمة والحبل السري في سرة مهترئة.

الأم في غاية الوهن لا تقوي على فتح عينيها فقد استنزفها المخاض، وخارت قواها في معركة صعبة ضعضعتها جسديًا وإن كانت أحيتها نفسيًا، وأعادت الأمل لدنياها. فمنذ شهور وهي تعيش كحطام إنسان في هذه الغرفة الحقيرة، تقتات على إحسان الجيران والصدقات، فمع صعوبة حملها وكبر بطنها لم تعد تقوى على العمل وتدهورت صحتها.

في أوائل شهور الحمل اعتادت على تنظيف بيوت الجيران يوميًا، مقابل بعض قروش لا تكفي متطلباتها الأساسية، وبقايا طعام تعفه الهوام يقيم أودها.

كان الجيران يماثلونها في الفقر، لكن النفس البشرية أمرها عجيب بحق. فكم من جارة

حاسدة ناقمة على جمالها الفتّان وجسدها الملفوف اقتطعت من قوت أولادها من أجل استقدام حنين لتنظيف منزلها الحقير؛ لا لشيء إلا لإرضاء غرورها.

فاتنة الحي التي أدارت رؤوس الرجال تخدمها، هكذا تستقيم الأمور.

ولا تنتهي هنا، بل تكمل في غيها حين تتحدث مع الجليسات من جيران البؤس الأقل حظًا من الجمال، في جلسات النميمة خلال قيلولة الرجال في وقت العصاري، حيث تجتمع النسوة في دار إحداهن مع كوب الشاي بالنعناع ونسمات رحيمة تخرج الحر من البيوت، وتخرج كل منهن ما في صدرها من صديد متهكمة على المسكينة التي دار عليها الزمان، فتشبعها غيبة منتقدة كل تفاصيلها.

حنين جميلة لكنها ليست نظيفة.

حنين ممشوقة القوام ولكنها لا تجيد الطهو.

ما حاجة الرجال لشعرها الناعم المسترسل إن كانت لا تستطيع تقشير الباذنجان بكفاءة أو تقطيع الكوسة بشكل متساوٍ.

وآخر اليوم، بعد أن تهلك حنين من رفع الأثاث، تنظيف السجاد، طهو الطعام وسماع تقريع الجارة المتنمرة، لا يتبقى إلا أن تحمّم الأطفال أيضًا، فلا بد من استنزافها حتى الثمالة، تنتهي من العمل وتنتهي طاقتها. هنا... وهنا فقط، تمد يدها في انكسار لتأخذ «ما فيه النصيب» من الجارة التي ترتسم على ملامحها أقصى آيات الورع والتقوى في تصدُّقها على المحتاج.

تخرج من الغرفة وقت جن فيه الليل، تفتح يدها فتجد بها ثمن الهوان، يا الله! كم هو رخيص هذا الإنسان؟!

أهذا هو الثمن الذي من أجله تحملت وعانت كل تلك الإهانات؟

تكاد تلقي ما تحمل في مياه الترعة الباردة، لكن الأخيرة تلقفتها بنسمات تخفف من دموعها الساخنة كأنها يد حانية.

عجيب أمر هذه الدنيا، لطالما كانت غير مفهومة، تحنو عليك بما لا تتوقع من حيث لا تنتظر بأقل مما تستحق، فقط نسمة باردة، أمطار صيفية، نظرة رضا، وما تفتأ ينقلب حالها وتقسو عليك من حيث لا تعلم، يد أب قاسية، نظرة حبيب متشفية، صفعة قدر متوارية.

يبرد الهواء نار قلبها ويكفكف دمعها، تقف متسمرة تطبق يدها على القروش، مريم القادمة تحتاجها، يجب أن تقاوم، أن تصمد، المسكينة التي في علم الغيب لا تملك من الدنيا سواها.

وحنين نفسها لا تملك من الدنيا الآن إلا الوليدة المرتقبة.

لم يعد لديها زوج ولا أب.

أم أن زوجها كان لها أبًا؟ كم كانت دائمًا علاقتهما معقدة.

الفارق بينهما يزيد عن الثلاثين سنة، تزوجها عندما كانت في التاسعة عشر وهو في منتصف الخمسينيات.

سبحت بذكرياتها إلى ذلك اليوم.

غروب يوم حار من أيام يوليو، أتى إليها أبوها في غرفتهم الكئيبة على البر الغربي من الترعة، طلب منها كوبًا من الشاي وأشار إلى السطح.

أتت بالمطلوب، ربت على الدكة الخشبية بجواره سامحًا لها بأن تجالسه متبسّطًا على سطح الغرفة، جلسته المفضلة التي تقيه حر النهار بنسمات المغرب الحانية التي هي رحمات مجسدة لمن لا يمتلك ثمن المكيفات، يرتدي جلبابه الأزرق المفضل أو الوحيد للدقة!

يضع قدمه من تحته ليجلس مرتاحًا، يمسك بيده كوب الشاي الأسود يتصاعد منه البخار، كيف يحتمله في هذا الحر؟

بدأ معها بمقدمة طويلة عن العمر الذي مضى في الشقاء عليها وإخوتها الستة، أسهب في شرح ما تعرفه بالفعل، كيف انحنى ظهره من مسكة الشباك كل فجر من أجل اصطياد سمكة أو اثنين، حيث لا عمل هنا إلا الصيد أو مهنة المعاونة من خياطة الحبال، صنع الشصوص وصيانة القوارب.

تباسط معها أكثر -على غير العادة- وشرح لها مدى شظف العيش وانقلاب الدهر على صنعة الصيد وكم تغير الحال، قديمًا كان يملك المال الوفير والبحر بدوره كان يتسع للصيادين كلهم، أما الآن فتبدل الحال وقلت البركة. لم يعد دخله اليومي يكفي متطلباتهم، وأصبح اللحم ضيفًا عزيزًا عليهم، ليحصل على علبة «بولوبيف» وجب عليه الادخار أسبوعًا، ليصبح معها اليوم عيدًا للأسرة المكدسة في غرفتهم الضيقة التي تتسع لهم بقدرة عجائبية.

يعود منتصرًا كمن ساهم في تحرير بيت المقدس، يجلس على مبعدة من الأولاد المترقبين، يصيح مناديًا الأم ويناولها العلبة التي تحمل سر الحياة في شمم.

الأم الباسلة التي تحملت هم حمل وولادة سبعة أطفال وخدمة أبيهم بلا كلل أو ملل، تأتي بالعلبة الحمراء المقدسة وتقلبها في أناء عملاق يعادل أربع أضعاف حجمها، تخلط

المحتويات الغامضة بالبيض الذي اقتبسته خلسة من سطح جارتهم، لماذا يأكل أطفال الجيران البيض يوميًا ولا يذوقه أطفالها؟ بالتأكيد ليس هذا بعدل، اعتبرتها زكاة الجيران عن بيضهم، فتقبلتها شاكرة، تضيف إليه أطنانًا من التوابل، الملح ونثرات الفلفل الأسود لعله يغطي على رائحة اللحم المنتهي الصلاحية.

تضعه على طبلية وطيئة بثلاث أرجل سليمة وواحدة كسيحة، فيتلاحم الأطفال والأب في حرب ضروس على الخليط المقدس، عبق الإله.

اللحم...

بينما تقف أمها ولا تشارك، تحتضن نفسها وتنظر لهم بحنو لا رياء فيه، كأنما كان مصير نساء هذه العائلة منذ الأزل هو الشقاء.

ينتهي الأب من فقرته التمهيدية، ويعود لمحور الجلسة الرئيس، فيحدثها عن سنها، وأنها كبرت، وآن الأوان لها كي تفتح بيتها الخاص وتؤسس أسرة.

تنظر إليه لائمة بلا نطق ولسان حالها يقول: أي أسرة تلك يا أبتِ التي تريدني أن أبنيها، الأمر ليس يزيجة، بل صيد سهل لم تُلقِ له شبكًا، فم أقل يُطعم وثمن معقول يُدفع، صفقة رابحة بلا جدال.

لكنها هي الصفقة، وهي السلعة.

ما زالت ترى نفسها صغيرة نضجها لم يكتمل، وإن كان ثديها قد اكتمل، لا تتحمل هم أسرة وبيت، لكنها قد تتحمل رجلًا فوقها يدكها وينتهكها، بالتأكيد مجرد عرض وطلب.

لكن ما ذنبها في هذه الصفقة؟

لا ذنب لها إلا أنها مكتملة الأنوثة في منطقة بارت نساؤها من الفقر والمرض، يبست أجسادهن رغم المطر الذي ينهال عليهن في الشتاء من شقاق السقوف.

نعم... فهي إن كانت لا تعي ما هو الزواج نفسه، ولا تلك العلاقة الغامضة بين الذكر والأنثى في الغرف المغلقة، التي يتلمّز بها الجميع وهي كل همهم وأكثر سر مفضوح في العالم.

إلا أنها تعي أن هناك تصادمًا حتميًا سيحدث، لكن ذلك لم يمنعها من الاعتراض، فأسهبت تشرح صغر سنها وحاجة أمها لها، تركها الأب تتحدث دون ردة فعل، فقط حدق فيها بملامح صلبة وعينان نصف مفتوحتين.

ثم مد يده إلى جيب جلبابه وأخرج علبة سجائر بها السيجارة الأطول في مصر على

الإطلاق، تتعجب دومًا؛ كيف وهو المعتل بدنًا وجيبًا يقدر عليها؟

سحب واحدة وأشعلها بين أسنانه النخرة، سحب منها بعمق ثم أطلق سحابة من الدخان الأبيض الرائق شهي المنظر كريه الرائحة؛ معها تغيرت طريقة كلامه وانفعالاته، أقر مصيرها بتؤدة صارمة لا تحتمل الجدل بقوله: ستتزوجين منه، لقد اتفقنا. سيقوم بسداد كافة الأقساط المتأخرة لعمك البلطي إضافة إلى مهر محترم، ولا بد لك من الاستعداد في فترة لا تتجاوز الشهر، فالعريس متعجِّل!

ضحك.

فسعل من أثر التدخين.

وبصق في منديله العملاق.

ثم سكت كأنه قضى الأمر المشهود.

فكرت... إذًا الأمر لا يتعلق برأيها قدر ما هو إعلامها بالمكتوب.

قُضي الأمر وانتهينا.

بيعت في سوق كالبهائم لتعشُّر، ستتزوج رجلًا لا تعرف حتى شكله، ستنام بجواره -لا بل أسفله- كل ليلة، ستهجر أمها وإخوتها، لتعيش مع رجل غريب في بيت غريب، ورغم ذلك كله لم تذرف دمعة واحدة. ربما لأنها نضجت قبل الأوان، أدركت أنه لا سبيل لمحاربة خط سير القدر، ما عليها إلا الاستسلام والمسير في المصير.

لم يشغلها وقتها إلا سؤال واحد، من هو العريس المرتقب؟

# سفر الخروج

سريري بجوار لقمة عيشي!

طالما قالها أبو حنين بشكل يومي حتى أصبحت مطبوعة في ذاكرتها، واكتشفت عندما كبرت أن هذا هو أسلوب حياة كل جيرانها من الصيادين بمنطقة المكس في غرب الإسكندرية.

كل بيوت قرية الصيادين القديمة تلتصق بالبحر لا تريد منه فرارًا، ملونة الجدران مبنية بكل ما يخطر على البال، بعضها من الأخشاب التي لا تقي من تحتها برد الشتاء السكندري، أما الأوفر رزقًا من الصيادين فاستطاع تجليد الأسقف ببعض صفائح المعادن القديمة، لكن فاحش الثراء ومركز حسد الجيران هو من نجح في بناء منزله من الطوب الأحمر أو الإسمنتي، تتراص المباني بغير انتظام، ما إن تراها من بعيد حتى تعرف قربك من بغيتك، فكلها ملون بالأخضر أو الأزرق، وبعضها بألوان أقل بهجة مثل البني، لكن يغلب على معظمها طبع البدائية المحببة!

معظم البيوت من زاوية أو أخرى يصلي في محراب خليج المكس وقبلته هي الفنار القديم، ذلك المبنى البعيد القريب في ذات الوقت؛ قالب خرساني عملاق يتجاوز من العمر المئة عام، يقف في شموخ على شبه جزيرة منعزلة مغطاة بالطحالب الخضراء، يحيط بها الماء من جهات ثلاث، والرابعة جسر خشبي بسيط يصل بينها وبين اليابسة، نالت من الفنار لطمات البحر فتآكل الطلاء، ولكنه بقي صامدًا مثل أهل قريته لا يركع للضربات.

البيوت نفسها على مقربة شديدة من شاطئ البحر الذي تتراص عليه القوارب الأصغر حجمًا، حالتها بائسة من تعرضها المستمر لعوامل التعرية، فبهتت ألوانها التي كانت زاهية يومًا، يغلب عليها مثل البيوت اللون الأزرق والأخضر.

تفعم رائحة اليود والسمك أنف حنين مكتملة الأنوثة، التي خرجت من أحد البيوت تتهادى في طريقها إلى أبيها تحمل له عمود طعام معدني يحتوي على أكلات بسيطة للغاية، لكنها كافية ليصلب عوده في مواجهة العمل البدني الشاق الذي لم يعد يحتمله جسده العجوز، أو للدقة... العمل الذي كان شاقًا منذ بضع سنوات!

مرت ببعض شباب الصيادين يعيدون ترميم شباكهم من غزوة البارحة متوسطة النجاح، أشار أحدهم للآخر بطرف خفي فرفع كلاهما عينه ليراها تتهادى كغزال شارد تحاول كبح

جماح جسدها المتراقص في ليونة لا إرادية، فيزفر أكبرهم سنًا مطلقًا اللهيب من صدره لينفّس عن حسرة من أحب ولم يمتلك.

كل ذكر في هذه المنطقة حاله يماثل ما عبّر عنه ذلك الزوج من الشباب، كل منهم في قرارة نفسه يتمناها ويطلب القرب، لكن أصول الشهامة والجيرة، إضافة إلى تبجيلهم لأبيها كبيرَ السن؛ كلها أسباب عدة تمنعهم من القيام بأي خطوة للتقرب منها، فتقتصر رغباتهم على الأمنيات وأحلام اليقظة، لا تنكر الفتاة أن تلك اللفتات ترضي قلبها البكر، فقد كبرت واستدار جسدها وعلمت أنها أصبحت فتاة من تغير نظرتها للفتيان. كما لاحظوها هم بصورة مختلفة، فانفصل العالمان بعد أن كانا واحدًا، واستقل كل منهما بذاته مكونًا صورة حالمة مبهمة عن الطرف الآخر، لكنها لن تقبل إلا الطريق المستقيم، الذي أصبح عسيرًا بعد تدهور حال مهنة الصيد.

تعبر حنين إلى الناحية الأخرى وإلى القرية الأخرى المقابلة، هي قرية صيادين بالمثل لكنها أشد عشوائية، تتناثر منازلها على الضفة الأخرى من ترعة المكس الممتدة من بحيرة مريوط إلى البحر المتوسط.

تقطع حنين مشوار طويل نسبيًا، تمشيه على قدميها إلى حيث مركب أبيها التي تقف في أبعد نقطة ممكنة عن مخرج الخندق، برغم احترامهم وإجلالهم لشيبته إلا أن ذلك لم يمنعهم من تضيق الخناق عليه وإلقائه بعيدًا في ترتيب الخروج للبحر؛ فلكل شيء في عالمهم ترتيب، حتى الصيد يخضع لاعتبارات عدة وأهمها المال والنفوذ إلى جانب البلطجة المقننة.

ترقد على ضفتي الترعة الرئيسة القوارب الأكثر صحة وقدرة على السباحة في تيارات الماء العنيفة، متلاصقة مع بيوت مالكيها، رغم اختلاف أشكال البيوت، كان العامل المشترك الوحيد بينها هو أن لكل بيت يجاور خندق المكس بابين، الأول على الشارع الضيق عبارة عن مدخل بري للحياة اليومية المعتادة، والباب الآخر على ماء الخندق نفسه يسمح لصاحب البيت بالولوج المباشر لمصدر رزقة الأساسي، وهو قاربه بعد أن يفكه من إطارات السيارات المتراصة على الضفتين كمراسٍ مرتجلة. بجوار البيوت تتناثر ورش صيانة المحركات البسيطة هنا وهناك، فيها يقف نجارو القوارب وصبيانهم يقومون بدورهم في العناية بالقوارب بشكل يومي، ذلك يرمم بعض الخشب المتكسر، آخر يعيد طلاء القارب بالرسوم البدائية الزاهية على شكل شمس أو عروس بحر، تجمع بين الجمال والقبح بشكل فريد، ثالث يصقل الأطراف الناتئة بالمبرد، رابع يضع بعض المسامير في فمه يدقها واحدًا تلو الآخر ليعيد لوحًا منفصلًا إلى قاربه المتهالك، الكل يعمل في تناغم وصخب محبب.

يدوي صوت الشيخ فرحات العالي صائحًا: (الله حي)، إنه بركة المكس، لا أحد يعلم من

أين أتى ولا أين يعيش، لكنه يحفظ ميعاد تجهيز القوارب وإعادة صيانتها، فيأتي بجلبابه الذي كان في يوم من الأيام أبيض تلطخه الرقع القماشية، تتناثر حمراء وخضراء من بقايا مجموعة من الملابس مجهولة المصدر، تهتز ذقنه الطويلة بيضاء اللون كالقطن الطازج، يتمتم بكلمات مجهولة بصوت خفيض يقطعها بصيحته المفضلة التي أصبحت من علامات المكان (الله حي)، ثم يكمل الغمغمة الملغزة حاملًا مبخرة يدور بها على الورش، مطلقًا التبريكات ليتحصل في حقيبته القماشية الواسعة على ما فيه القسمة، ثم يرحل ويترك خلفه رائحة بخوره النفاذ لتلتصق بالأخشاب لفترة ليست بهينة.

تتقافز حنين متفادية الحفر والبرك في الأرض غير الممهدة، حتى تعبر جوار النخلة الكبيرة التي تبدأ بجذع واحد ثم تنقسم إلى نخلتين توأمتين، يجاور النخلة منزل سمير صانع الشباك، يميزه طوبه الإسمنتي وملابس أهل بيته التي تصر أم سمير على نشرها من ناحية الماء، ما يثير الضحكات أحيانًا والمشاحنات دائمًا، فهي تراعي قواعد الغسيل كلها، مثل مسح الحبل الذي ستنشر عليه، التأكد من أن الجزء المعدني من المشبك خالٍ من الصدأ، ولكنها على العكس من كل نساء الحي البسطاء -وكل نساء الكون للدقة- تحطم القاعدة الأهم، فتضع الملابس الداخلية للخارج المؤنث منها والمذكر سيان، ما يعرضها للسرقات المتتالية، فتتهم الجيران وتسب أبناءهم المراهقين.

تفعل النعرة القبلية أفاعيلها، فتحمر العيون وتنفر العروق ترتفع معها العصا وتتكور القبضات ويُتبادل السباب والاتهامات.

أم سمير يؤازرها البعض تقول: أطفالك لم يروا من التربية حجم «بساريا»، إنهم يستعملون الملابس الداخلية وتحديدًا السفليّ منها استعمالات مريبة، أولها الاستمناء وآخرها الأعمال السفلية وكيد النساء.

أما الطرف الآخر فيقولون إن الأرملة اللعوب التي تجاوزت الخمسين بلا رجل يشكمها، تحض الرجال على الفجور، أو على أضعف الإيمان تشجعهم على التخيل الفاحش، تحدث الصدامات المحتومة، ويتدخل الحاج (صابر الملاح) كبير الصيادين، يطلق أحكامه التي لا تُرَد، من ثم تهدأ النفوس إلى حين، ولكن إلى حين فقط... لأن أم سمير تعود إلى نفس الدائرة، ملابس مكشوفة، سرقة، عراك وهكذا إلى يوم يبعثون في جنةٍ ما تنشر فيها أم سمير ملابسها مستترة.

ترفع حنين رأسها لترى طيور النورس مصدرة صوتها المميز وهي تحلق على ارتفاع متوسط، يتيح لها الاقتراب من شباك الصيادين واقتناص فريسة سهلة، لكن في ذات الوقت بعيدة عن لطماتهم المدافعة عن الأسماك، تقترب من القوارب لتسلي نفسها خلال المشوار

الطويل بقراءة أسمائها المتفردة، تلك المركب الفتية متوسط الحجم هي «المحروسة» خاصة الحاج (علي السمين) اسمًا وصفة، هذان القاربان الأصغر في الحجم هما «البطل» و«الملكة» الممتلكين بالتوارث لعائلة سيد البلطي أبًا عن جد.

يقال إن جد المعلم سيد كان من أوائل مستعمري المكس في الفترة الملكية، وكان يعمل في صناعة القوارب من الباطن لصالح البحرية المصرية، بل ويردد المعلم سيد بفخر أجوف أن جده قد شارك في تجهيز يخت (المحروسة) الذي حمل الملك فاروق خارج البلاد بعد بيان 1952 الشهير، وعلى ما يبدو أن في كلامه النذر اليسير من الصحة، فالقاربان بحالة جيدة رغم تعاقب الأجيال عليهم.

أما تلك فهي «المعلمة»، أحد أحدث الإضافات لقوارب المنطقة، تعتقد حنين أن الاسم على مسمى؛ فهي تشبه المعلمة بالفعل، بخشبها العريض ودهانها الجديد ذي الرائحة النفاذة، أضف إلى ذلك لونها المختلط بين الأزرق والأحمر والأخضر، طالما تخيلتها تطابق الصورة التي تراها في السينما الصيفية للمعلمة التي تلطخ وجهها بالأصباغ بلا أي تناسق لكنها عفية قوية التحمل، فبرغم أنها تصنف كأحد القوارب الصغيرة المخصصة للصيد اليومي فقد نجت من نوة يناير الماضي، عندما طمع صاحبها (حسن الأبيض) وبقي في البحر بعد الميعاد المعتاد للعودة، مع مرور الليل اعتبره الجميع في عداد الأموات، لم يلبث أن اتجه كبار الصيادين على رأسهم الحاج صابر لخفر السواحل؛ طمعًا في حملة سريعة لانتشال جثته على أكثر التقديرات تفاؤلًا، لولا أن حسن خيب جميع التوقعات، فلم يمت وعاد سليمًا معافى بمركبه التي لم تنلها إلا بعض الرضوض المحدودة، ومنذ تلك اللحظة وهو يعتبرها تميمة حظه ويرفض بيعها مهما ارتفع سعرها، كان آخر تلك العروض من سيد البلطي الطامع في تكبير أسطوله، فقدّرها بأعلى من ثمنها ثلاث مرات، لكنه قوبل بالرفض، واستمر حسن في تصميمه على عدم البيع وبالغ في الاعتناء بالمعلمة حتى أكثر من ولديه، ما أثار حفيظة البلطي وتشاجرا مرارًا وتفارقا متوعّدين كل منهما مصمم على موقفه.

إلى أن استيقظت المكس كلها يومًا قبيل الفجر على صوت صراخ وعويل من ناحية منزل حسن، هرع الجيران إليه ليجدوا النار تشتعل في «المعلمة» بسرعة البرق، بعد محاولات عدة نجحوا في إطفائها، لكن أسفرت التحقيقات عن أن الحريق حدث بفعل مادة سريعة الاشتعال، توجهت أصابع الاتهام تلقائيًا إلى سيد البلطي، ولعدم وجود دليل، إضافة إلى وجوده في العصافرة عند زوجته الأخرى في نفس التوقيت بشهادة أكثر من عشرة جيران؛ خفظ المحضر وافترق الخصيمان لكن النفوس لم تصفُ، ولم يستسلم حسن، فاستدان وأعاد إصلاح «المعلمة».

المفارقة الساخرة أنه عندما استدان لم يجد في تلك القرية البائسة إلا سيد البلطي نفسه ليقرضه المال!

ذلك الأخير استقبله بأذرع مفتوحة وابتسامة ذئبية، وبعد مائدة عامرة بما لذ وطاب - عربون الوفاق بعد الشقاق- أقرضه ما طلب وزاد، لكن بعد إضافة قدر لا يستهان به من الفوائد؛ طمعًا في تعجيز حسن عن السداد حتى تؤول المعلمة إلى البلطي بطبيعة الحال، ليس ما حدث بغريب على قرية الصيادين، فقد فعل والدها مثلما فعل حسن بالضبط.

مع كِبَر عمره وعدم مقدرته على القيام بأعمال الصيد ومجهودها البدني، زين له البلطي فكرة الاتجاه إلى قارب أكبر وأسهل في التعامل، يسمح له باختراق أعماق أكبر في البحر بعيدًا عن أماكن القوارب الصغيرة ورزقها الذي شح، بعد إلحاح اقتنع الأب وباع مركبه القديم المتهالك «الأمير حمزة» بثمن بخس، حزنت مريم من قلبها لفراق ذلك العزيز بلونه الأخضر ونقشة الوردة على جانبه بجوار اسم «الأمير حمزة»، فقد كان آخر ما يربطها باسم أخيها الأكبر حمزة الذي ابتلعه البحر ذات يوم وهي صغيرة، إضافة إلى صورة زيتونية الألوان بهتت بموت صاحبها معلقة على حائط غرفتهم المقشر.

لم يكفِ ثمن القارب، وعليه اتجه أبوها إلى البلطي مثل الجميع واستدان منه من المال الكثير، على وعد بسداده مشفوعًا بفوائده من مكاسب القارب الجديد -كبير الحجم وفير الرزق كما اقتنع- على هيئة أقساط شهرية، ولكن حتى في المكس -أرض الصيد والبحر- تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن، فهبطت من السماء صاعقة الجسر الجديد، ولذلك قصة.

يومًا ما شعرت الحكومة بالتقصير تجاه شعب المكس المعدم، كيف يعبر من قرية الصيادين القديمة إلى الجديدة وبالعكس؟

لا سبيل إلا القوارب، وفي ذلك مشقة، وعليه، تنفيذًا للتوجيهات العليا بمتابعة أحوال محدودي الدخل، قررت أن تنظر له بعين العطف.

استيقظت القرية ذات صباح على صخب الأوناش القوية والمعدات الثقيلة، التي بدأت في الحفر والإنشاء على نوبتين متتاليتين بلا انقطاع تحت إشراف طاقم كامل من المهندسين يصل الليل بالنهار، الكل يتساءل ما الذي يحدث؟

من هؤلاء؟ وكالعادة تصرف الحاج صابر الملاح!

علبة سجائر مستوردة ووجبة سمك طازجة -وما خفي كان أعظم- ساهمت في حل عقدة لسان كبير المهندسين المسؤول عن المشروع، تطوعت الحكومة ببناء جسر يربط بين القريتين، يعبر فوق المحمودية لراحة المواطنين، ومن هنا تحول اسم ترعة المحمودية إلى

الخندق؛ بسبب المساحة أسفل الكوبري التي تشبه خنادق الحروب القديمة، هلل الناس وكبروا، فما يحدث كرم كبير من الدولة وتسهيل عظيم لحياتهم، وهو غير معتاد؛ لأن جميع المرافق الأساسية ضعيفة، أو للدقة شبه معدومة. فتفاءل الناس بالخير.

بالفعل تم البناء في وقت قياسي وعلى أكمل وجه، جسر قوي عريض يتسع لأربع سيارات متجاورة في الذهاب والأياب، ومع رحيل أواخر أيام شمس يوليو الحارقة تمكنت أول سيارة من العبور بين القريتين منذ ظهور «المكس» للوجود، وكانت فرحة عظيمة.

ومع الوقت وانعدام الرقابة تجرأ الصيادون على الجسر، فافترشوا جانبيه منذ الفجر، ليظهر للناس سوق جديد بشكل مرتجل موازٍ لسوق المكس المعتاد.

تظل الأمور هادئة حتى شروق الشمس، عندها يجد عشرات البسطاء طريقهم إليه، يتهافتون على شراء الأسماك بأرخص الأسعار فور وصول الصيادين من رحلاتهم، وقفت فيه حنين مرازا بدلًا من أبيها تمسك بطاولة السمك المرشوش بالماء ليحتفظ بطزاجته، تجادل وتفاصل السيدات وهن يحاولن الحصول على «شروة» أسماك زهيدة السعر، بجوارها يقف باقي الصيادين تتناثر أمامهم طاولات سمك السردين والبلطي مع الجندوفلي، كل حسب ما جاد عليه البحر في يومه.

وجود السوقين القديم والجديد معًا، إضافة إلى زيادة حرية الحركة بين القريتين، وإقبال البسطاء على المكان لرخص أسعاره مقارنة بالمحال الكبيرة الباهظة، كل ذلك ساهم في انتعاش الاقتصاد المبدئي.

ومع رواج حالة البيع والشراء، أصبحت الحياة اليومية مثل خلية نحل، الكل يجري على رزقه، فذلك يدلل على سمكه، والآخر ينزح المياه التي ضربت جنبات قاربه، وثالث فكر بشكل مختلف فقرر ألا يزاحم في الصيد والبيع والشراء، فبنى من الطوب الأحمر وبقايا الأخشاب شواية مرتجلة؛ واقتصر رزقه على تنظيف السمك وشيه، حركة دائمة بلا كلل أو راحة من الشروق إلى المغيب، سواء من البشر على البر أو القوارب في البحر، حتى مياه الترعة فقدت زرقتها من مخلفات المحركات وبقايا المصانع المتاخمة لآخر الترعة!

ولأن الأعين لاحظت نجاح تجربة أبيها، قلده معظم الصيادين الصغار واستدانوا لتكبير قواربهم بأخرى ذات محركات قوية تلقي بقايا الوقود في الماء، مما أكسبه ذلك اللون الأخضر، غير أن الناس لم تهتم لتلك التفاهات، السمك تدفق والتجارة انتعشت، فما أهمية تغيُّر لون الماء.

حتى حنين في دارها البسيطة لاحظت ذلك؛ من تزايد عدد مرات «البولوبيف» الشهرية ثم

تحسن الحال واستبداله باللحم الطازج وتحوله إلى مناسبة أسبوعية منتظمة، مصحوبًا بنفحات من الفواكه المناسبة للموسم وتزامن ذلك مع تغير مظهر الأب وانتظامه في سداد أقساط القرض غير الحسن إلى البلطي.

لولا أن الكل بما فيهم الحكومة نفسها لم يقيموا حسابًا لضيف الإسكندرية الدائم؛ الشتاء...

بحلول شهر ديسمبر واقتحام البرد والمطر لأجواء المكس انقلب الحال، ارتفع منسوب المياه وتوقف الرزق تمامًا لعدم استطاعة المراكب الكبيرة العبور أسفل الكوبري من وإلى البحر الواسع، فقط القوارب الصغيرة استطاعت ذلك بمخاطرة انتحارية لم تكن دومًا مأمونة العواقب.

آخرها ما حدث لعم «جرجس»، خلال محاولة الصياد المسن العبور بقاربه «أم النور» ارتفع البحر في لحظة فجائية ومعه ارتفع القارب، ومات جرجس في غمضة عين عندما اخترقت الأسياخ الحديدية المدلاة من أسفل الجسر جسده، ولم يجرؤ أحد على محاولة إخراجه حتى هدأت الأجواء وانخفض منسوب الماء؛ نجحت بعدها حملة من شباب الصيادين في إخراجه بعد بقائه مصلوبًا ثلاثة أيام كاملة مع قاربه في قاع الجسر.

بعدها خاف الجميع من المخاطرة، وأصبحت القوارب الكبيرة مكدسة على مدّ البصر على جانبي الخندق يجلس فيها أصحابها ينعون همهم، يدخنون سجائرهم ويشتمون الحكومة التي عندما تذكرتهم قتلتهم.

وها هو أبوها حاله مثل حالهم، في قاربه الكبير الملطخ بالألوان الفاقعة، فتحول إلى لوحة غريبة تجمع بين الشكل الجديد ونقوش مقتبسة عن قاربه القديم، يجلس مرتديًا عدة الصيد الكاملة على سبيل العادة لا أكثر، الحذاء البلاستيكي عالي الرقبة، «العفريتة» الزرقاء الأثيرة، منديلًا أبيض عملاق يغطي رأسه حتى الأكتاف أسفل قبعة الصيادين الشهيرة، يرفع ساقًا ويثني الأخرى تحته، يشعل سيجارة ويراقب القوارب الصغيرة تتدافع للخروج من أسفل الجسر بأسبقية الحضور، ينفث الدخان ويتحسر على ما مضى ويفكر مثلما يفكر دائمًا؛ من أين له بقيمة الأقساط التي تراكمت عليه؟

جلست أمامه حنين. وبدأت في روتينية بتفكيك عمود الطعام وفصل كل صنف على حدة، ورصه على مائدة مرتجلة داخل القارب بلا كلام؛ فقد ساد بينهما الخرس، بل بين أبيها وكل أفراد العائلة عندما تبدل الحال، وما عاد في مقدوره تلبية متطلبات الأسرة المتزايدة التي اعتادت نوعًا على الحياة الآدمية، فانعزل عنهم وقل حديثه حتى انقطع؛ وزاده الفقر

والحاجة عمزا على عمره فتهدلت كتفاه ورسم الوجوم على ملامحه المتغضنة لوحة من الكآبة، لكنه اليوم مشرق على غير العادة.

دون مقدمات حجب نور الشمس الساطع ظل بشري ضخم أتى من خلفها فالتفتت إليه فزعة.

غمغم أبوها بصوت مدغم من مخاط السجائر:

- لا تفزعي يا حنين، سلّمي على جارنا القديم (عمران)، إنه الآن شريكي الجديد في القارب، سيقوم بسداد الأقساط المتأخرة ومناصفتنا في تجارتنا الرابحة بالمشيئة!

وكانت تلك هي الرؤية التي تكونت معها غصّة لا إرادية في حلق حنين، غصّة لا تدري لها سببًا.

## - 6 -

# سِفر التكوين

مرت مهلة الشهر بسرعة خاطفة.

وجدت حنين نفسها تستعد، النسوة يتحلّقن حولها بوجوه مبتسمة مباركة وقلوب تشتعل فيها الغيرة، رغم حزنها المرتسم على ملامحها وعينيها المحمرتين بدت لهم كأميرة من أرض الأحلام؛ بفستان أبيض رقيق مستأجر من محل شهير في «سان ستيفانو» وبضع من الإكسسوار الرخيص، تحولت من فتاة جميلة إلى أسطورة تخطف الأبصار، على رأس النسوة طبعًا كانت «نور»، فإلى جانب عملها كقابلة فهي تجمل النساء المقبلات على الزواج، أو كما تسمّى في الأحياء الشعبية «ماشطة»، تقوم بتصفيف شعر النساء بشكل بسيط وتلطيخ وجوههن ببعض المساحيق، غير أن عملها الأساسي هو إزالة الشعر الزائد «حفافة».

طردت «نور» إخوة حنين الصبية خارج الغرفة، وبقيت النساء مع الأبخرة المهيّجة للجيوب الأنفية والعينين، المنبعثة من قدر معدني صدئ على النار، به أشهر خليط في حياة نساء المنطقة؛ السكر والليمون، تحت إشراف «نور» تمسك كل واحدة من النسوة قطعة من جسدها وقطعة من الخليط الكريه ويتسابقن على نزع جلدها حية، في أحد أسوأ تجارب النساء كافة، إن لم تكن أسوأها، تقف «نور» على مقربة ومبعدة في ذات الوقت، تحافظ على مسافة معقولة وتلقي بالتعليمات، دائمًا ما يقتصر دورها على التوجيه والإشراف ولا تشارك بالعمل الفعلي.

فور انتهاء النسوة من تعذيب المسكينة وتركها تتألم بجلد محمر وعينين دامعتين، أشارت «نور» بيدها فانصرف الجميع عنهما، إذًا هو موعد الحصة الضرورية عن الحياة الزوجية، وكالعادة من «نور».

لماذا ليست من أمها؟ هل ستظل صامتة حتى في هذا اليوم؟

بقي السؤال معلقًا في سماء الغرفة وما من مجيب، اتفعلت وهتفت تنادي على أمها آخر الراحلات، التفتت السيدة الباسلة ورفعت عينيها إليها بعد أن كانت مطأطئة الرأس ولم تجب، إلا أن نظرتها علقت في ذهن حنين أيد الدهر، نظرة انكسار وحزن لا فرجة!

بل كانت نظرة خضوع لسلطة أكبر من المقاومة.

نعم الخضوع هو اسم اللعبة.

وهو الملخص الذي فهمته من «نور» بعد رحيل الأم، واجبها أن تخضع لرجلها على طول الخط، تنفذ كل طلباته، لا تتذمر منه متى طلبها، لا بد من الإجابة، مهما كانت متعبة، خائفة، مشمئزة، كل ذلك لا يهم.

المهم هو أن يرضى سيد الأكوان عنها، فهي أداته اشتراها بحر ماله، ويمتلك حق استخدامها متى أراد، دون مراعاة لتعليمات التشغيل أو إجراءات السلامة، ولتذهب مشاعرها ورغباتها إلى حيث ألقت، المهم هو وليس هي.

أعطتها نور دهانًا خاصًا نفاذ الرائحة لإزالة الالتهابات من جسدها المتقرّح ورحلت، تركتها وحيدة بعد أن نظرت إليها طويلًا نظرة لم تفهمها، نظرة حملت معها شفقة، كأنها تستصعب عليها مستقبلها أو تستشفه بشكل ما.

بدأت حنين تمشد جسدها بالعلاج السحري -الفعال في الحقيقة- وتسمع الصخب بالخارج، فالاحتفالات في أوجها.

سمّاعات عملاقة تصدر ضجيجًا مثيرًا للاشمئزاز يسمى «مهرجانات»، مصحوبًا بقرع زجاجات البيرة الخضراء مع هبوب الأنفاس الزرقاء استعدادًا لليلة الحمراء.

برغم معيشتها عمرها كله في (المكس) لكنها لم تحب يومًا لا المهرجانات ولا تقاليد الأعراس الشعبية العتيدة تلك، فكل مسكر مسطل يزيد الذنوب ويذهب الحسنات هو تحية العريس «للجدعان»، إما ذلك أو تأكل الرجال وجهه حتى يواريه التراب، لذا ترى الزحام والصخب بالخارج يصم الآذان، ولم لا «الكيف» اليوم مجاني تحية من العريس.

ما إن خفَّ الصوت قليلًا وبدأ الشجار -فهو من تقاليد الأعراس الشعبية أيضًا- حتى سمعت صوت أبيها يردد جمل الزواج الشهيرة عن المذهب والصداق، أي صداق هذا؟ فما هي إلا ملاليم أعانتهم على تجهيز خرقتين كأنهما ملابس الزواج، وسرير معدني مستعمل، وبعض الأثاث الخشبي في غرفة أكثر حقارة من غرفة عائلتها، لماذا لم يكتب في العقد عن أقساط القارب، فهي الثمن الحقيقي؟

ينتهي من تكرار الكلمات وراء المأذون ويرد عليه صوت أجش غليظ بباقي التعويذة التي تربطها به حتى يملّها.

تأتي أمها تطلق الزغاريد وقد لطّخت وجهها هي الأخرى كيفما اتُّفق ببعض الأصباغ المقتبسة من إحدى الجارات لتصحبها إلى الجنة الموعودة، العش الذي تحلم به كل فتاة ما إن تصيبها دورتها القمرية، لكن للأسف العش هنا هو مقلب قمامة وإن كان خفيف الرائحة.

لم تتمكن سابقًا من تأمله مليًا، فكانت أولى صدماتها بزوجها بعدما رحل الجميع وخلوته بها، قبل حتى أن ترفع عينيها إليه، رائحته النفاذة التي زكمت أنفها؛ لم تكن كريهة، بل ثقيلة، تجثم على صدرها، ثم توالت الصدمات كاللكمات بلا هوادة، ضخم البنية، عريض المنكبين، أقرب إلى عملاق، كث الشعر إلى حدٍ لا يُصدق، يبرز شعر جسده من كل مكان؛ صدر جلبابه، ذراعيه، لحيته الكثيفة، ساقيه مغطاة بالشعر بالكامل، كأنما وقف في منتصف سلّم التطور، إلا أن غزارة الإنتاج هذه لم تتوافق مع عدالة التوزيع، وهدمت المبادئ الاشتراكية على رأسها، فالرأس صلعاء بالكامل تلمع بالألوان المبهرجة القادمة من زينة الفرح بالخارج، يعوضها بشارب عملاق يبتلع ملامحه كلها فلا تظهر إلا عيناه، واحدة سوداء مظلمة والأخرى بيضاء من غير سوء.

يرتدي جلبابًا سكري اللون، تبدو آثار العرق تحت إبطيه واضحة، نعم كانت تعرفه، فهو ابن المنطقة أيضًا ولكنه أكبر منها سنًا، فلم تمر عليهما فترة لعب الأطفال المعتادة، إلى جانب أنه منطوٍ وحيد أغلب الأحيان، لم تعرف له أهلًا ولا سكن، لم يلفت نظرها في أي يوم، لم تحاول حتى أن تنظر له مرتين متى التقيا في أي مكان، فقط كان موجودًا منذ أن استفاقت إلى هذه الدنيا مثله مثل الفنار أو الترعة، معلم من معالم المنطقة؛ ومنذ حينها لم يتغير كثيرًا.

يتقدم إليها ببطء، مترنح بالتأكيد من أثر الأزرق والأخضر، بياض عينيه يخالطه الأحمر، وحش هائل قادم من حكايات العجائز ليمزقها، وعليها ألا تطمع في فارس يخطفها ويتزوجها، فالوحش هنا هو الفارس بالفعل، تمنت أن يرفق بها، يحتضنها، يخاطبها بحلو الكلام؛ فهي ترتعد ولا تقوى على الوقوف من الرهبة.

رهبة الليلة الأولى مع الغريب، كم سمعت عنها من أحاديث النسوة، سمعتهن يتهامسن بصوت مسموع عن هذه الليلة كم هي مؤلمة، قاسية، تتحطم فيها حصون البنت، تتحول إلى قلعة منتهكة، اقتحمها جيش العدو وأباد المدافعين ثم احتلها إلى الأبد وليس إلى حين.

تفاقمت مخاوفها مع هيئة زوجها الضخمة، فلا بد أن كل ما فيه عملاق خشن مثله؛ بالتأكيد سيمزقها إربًا وهو يدخلها ويدكها، ارتعدت فرائصها وتخبطت ركبتاها، هل سيلطمها الآن؟

فقد سمعت من إحدى الجارات أن زوجها لا يحلو له النوم معها إلا بعد ضربها حتى يزرق جسدها وهو يخور كالثور؟

أم سيمزق فستان الزفاف الرخيص من عليها؟ تمنّت أن يفعل!

لعله انتقام صغير من أبيها عندما يدفع ثمن الفستان إلى صاحبته، بالتأكيد سيبتهج

بعنفوان زوج ابنته الآن.

زاد خوفها عندما تذكرت أن واجب زوجها الأول كما تقول الأعراف لا بد من فعله بالأصبع والملاءة البيضاء، دليل العفة والشرف، وإلا كيف لأبيها أن يتناول وجبة العشاء كما ينص قانون الأغنية الشعبية.

كم كانت غريرة لتظن أن مظهر زوجها الفظ يعكس شخصية مماثلة، كأن الشيطان لا بد من تجسده بقرنين وذيل، وأن الملاك بجناحين وهالة حول رأسه.

تفأجات برقته معها رغم رائحة الخمر الفائحة من فمه، فأمسك يدها بحنوّ وأجلسها بجواره على ساحة المعركة المرتقبة، انتفضت أصابعها لا إراديًا جراء لمسته، غير أنه أطبق عليها بنعومة حازمة، مسّد شعرها برقة، لم يبادر، بل نظر إليها بشبق مشوب بتقديس!

ملّس على جلد يدها بجوع ورهبة.

ثم تكلم.

وتكلم بلا توقف، كأنما أطلق الخمر والحشيش عنان لسانه، أخبرها بأنه أفنى عمره حتى شاخ يجمع المال القليل ليتزوج، عمل في كل الوظائف الدنيا المتاحة في قريتهم، مساعد صياد، صبي نجار، صانع شباك وغيرها الكثير.

لم يكن يومًا صاحب (كيف)، ولا ينفق إلا على نفسه، فهو يتيم، حياته من العمل إلى المنزل والعكس. حياة رتيبة بلا أي تطورات أو تغيرات فجائية، لكنه استفاق ذات صباح على الشيب وهو يغزو مفرقيه -عندما كان يمتلك شعرًا- وتساءل من التي ستنظر إليه الآن، المال الذي جمعه أصلًا قليل، ولا يدعمه جمال أو سطوة، وزاد عليها كِبر السن.

ركبه الغم، ترك قاربه الذي جمع ثمنه بشق الأنفس على مرساة حتى كست الطحالب ظاهره ونخر السوس باطنه، انعزل عن القلة الموجودة من أصدقائه وقل كلامه مع الناس، جلس على المقهى يراقب العمر يجري ولا يقوى حتى على ملاحقته، حتى تبدّل الحال في الحال.

عندما رأى الحورية تخرج من المحمودية، تمشي بين البيوت تحمل عمود الطعام لأبيها. خفق قلبه، بل ركع عند قدميها، كيف لم ينتبه إليها من قبل؟

هل مر كل ذلك الوقت عليه في حياته التقليدية المكررة؟ حتى إنه لم ينتبه إلى الفتاة الصغيرة التي كبرت على حين غرة، لتصبح ملاكًا رفرف بجناحيه ليبهج أيامه الكئيبة، في ذات الوقت رزق إرثه من قريب بعيد فاعتبرها علامة الرضا من السماء، وصمم على الزواج

منها، تقرّد، من الأب العجوز استمع إلى شكواه من تقلبات الدهر بصبر، عرض عليه الإنقاذ السماوي، يسدد الأقساط المتأخرة، ويستثمر معه معظم ماله ليشاركه في تجارته، لمعت عينا الغريق بفرح النجاة، وكان له ما أراد.

وها هو الآن يجالس قرة العين التي اشتهاها.

استمر في رقته معها، بلل دمعه كفها ثم خدها، ظل يبكي حتى بلل وجهها عندما اعتلاها، كأنه لا يصدق.

صوت أنفاسه يتعالى وهو يبكي، لا يصدق.

ارتعش وانتفض وشهق وبكى فما زال لا يصدق.

راقب القطرات الحمراء، دليل الشرف المنتظر.

فلتذهب يا أبيها للعشاء أو إلى الجحيم لا يهم.

ابتسم بشفتيه الغليظتان، إلا أن عينيه كانتا تبكيان.

مسح عينيه ثم وعدها.

وعدها ألا يُشقيها.

وعدها أن يكون حنونًا ولا يطالبها بما لا تقدر عليه.

وعد وأقسم.

أمّن على قسمه من بعيد صدى صوت الشيخ «فرحات» قائلًا: الله حي.

وليتك صدقت القسم يا «عمران».

- 7 -

## سفر عمران

«أنا راحل»...

ألقيتها في فضاء الغرفة الرحب، كأني ألقي عصا موسى، على أمل أن تلتهم ثعابين الخواء المنبعثة عن حنين المنتفخة أمامي، تمنيتُ أن ترد قولي بنظرة قلق.

خوف.

ألم.

أي ردة فعل.

لكني لم أرَ في عينيها إلا الجمود، وإيماءة رأس بسيطة غير ملحوظة.

لا صراخ.

لا دموع ولو من باب المجاملة، ولكني أخدع نفسي، لماذا تبكي امرأة على رجل لا تحبه، نعم... فأنا أعلم أنها لا تحبني من يوم زواجنا، بل من يوم رؤيتها لي، دائمًا ما ألمح في عينيها خليطًا عجيبًا من الحنق، الغضب، الشفقة، بل وأحيانًا الحنو!

لكن أبدًا لم يكن من بينها الحب، بل زاد عليها مؤخرًا بعد ابتعاد أبيها الانتماء والكراهية لصورة الأب المتنكّر في شكل زوج.

أبوها، ذلك القواد اللعين!

الذي لا يستحي ويتاجر في لحم ابنته.

هذا ما تأكدت منه عندما فتنت حنين قلبي، تتبعتها حتى منزل أبيها الخرب، وبما أني كنت في ذلك الوقت مستور الحال بعكس الآن، لزمت باب البيت مثل اللص أترقّب تحركاتها اليومية؛ أحصي أنفاسها هي وأهلها، من تلصّصي علمت الكثير عن بؤس الأب واعتلال صحته، علمت أيضًا أن إخوتها الصبية الأطفال يعملون بالأجرة اليومية في مهام بسيطة، والإيراد كله يذهب إلى الأب لينفق على الأسرة كبيرة الحجم صغيرة الرزق.

كلهم يؤدون أعمالًا ما حتى أصغرهم الذي لا يتجاوز السبع من العمر، يحضر طلبات الجارات البسيطة من السوق مقابل بضع قروش، الكل إلا هي. فوظيفتها بالنسبة لي كانت إثارة بالليل ومذلة بالنهار، كم تمنيتها وقتها، كنت أتحرّق شوقًا لضمها إلى صدري، أسهر

الليالي رابضًا على المقهى القذر المواجه لمدخل المنزل أدخن أحجار المعسل المغشوش، أبتلع خانقًا أكوابًا وراء أكواب من الشاي المغلي بماء المجاري المخلوط بنشارة الخشب، لعلي أحصل على نظرة إلى وجهها الصبوح ولو من باب المصادفة أو الفضول.

بعد المراقبة المستمرة استقرت نفسي على طريقة الصيد، كنت صريحًا مع نفسي؛ لن أستطيع استمالتها؛ فلا أملك وسامة أو مالًا يزغلل عيني غزال مثلها، فألقيت طُعم صنارتي على المدخل السليم؛ أبيها، ذهبت إليه لأقايضه بشكل مستتر.

إنقاذك من السجن ورفع رأسك بين الصيادين من جديد عن طريق سداد أقساطك المتأخرة كلها في مقابل لحم ابنتك الطري، لم يحتج إلى الكثير من الإقناع، والتقم خطّاف الصنارة.

ألا يستحق بعد ذلك كلمة قواد؟!

تثير الذكريات في نفسي الألم، والتعجب من حالي الماضي، لم أكن إلا طفلًا كبيرًا أحبّ لعبة جميلة في واجهة أحد المحلات، فملأ الدنيا بالصراخ فسمعه كل من يسكن مصر من الإسكندرية حتى أسوان: أريد هذه اللعبة ولا شيء سواها.

ولما امتلكها... ذلك الطفل.

أحبها.

قبلها.

احتضنها.

ثم ملّها وألقى بها أسفل الفراش.

وقد كان، انطفأت النار؛ لم أعد ملهوفًا عليها، لكني ظللتُ أعاند وأدفع نفسي إليها دفعًا، أجبر مشاعري على الاستمرار بالقوة؛ أتصنع الحب، بل وأتصنع الرعشة عندما أمتطيها!

فهي باردة كلوح الثلج أو أشد قسوة، أعتقد وبقوة أن برودتها هي التي أطفأت ناري.

طالما تساءلت بعد زواجنا: هل كانت هي المخطئة أم أنا؟

هل كان حبي لها حبًا فعلًا أم رغبة في الامتلاك؟

أم أنه كان الفضول؟

طوال الوقت كنت أتخيل شكلها عارية، حركاتها في المنزل بثياب خفيفة، طعامها

المفضل، كل تفاصيلها.

بالتأكيد الفضول، وكان هو غلطتي الأولى، فما إن قضيت وطري من زوجتي أول مرة حتى شعرت بأن تعبي بلا مقابل، لم تكن لذيذة أو ممتعة أو حنونًا أو... لكني أصررت على الاستمرار وكانت تلك غلطتي الثانية والثالثة.

المكابرة والعناد معًا.

استمررت في العطاء والإنفاق بكل ما أملك بلا توقف، كسوتها وكل أهلها معها، تفننت في إحضار أشهى الطعام لها، لاطفتها وجالستها على أمل أن تحفظ لي المعروف بمتعة تعادل التعب، تعادل الصبر، لكن بلا فائدة، فوقعت بين جفاف في الداخل وسيول ديون بالخارج.

تناقصت أموالي القليلة التي كدّستها طوال سنوات عمري بسرعة رهيبة، فأنا بالفعل أنفق على منزلين، يا ليتني بعد هذا قوبلت ولو بالقليل من الحب، بل قساوة غير مبررة سكبت الماء على النار المشتعلة في قلبي بالتدريج، فوجدت البيت أبرد من عواصف شهر «أمشير»، لا حديث ولا ملاطفة، حتى اللقاء بات مملًا بعد أن كان مكررًا، مجموعة من الحركات تصحبها أصوات ورعشات فاحتكاكات ثم خواء تام.

اقترب الانفصال في الأفق.

لكن الحقيقة المرة مرارة السمكة رديئة التنظيف فاجأتني؛ لم أقدر على الفراق بسهولة، كيف لي أن أفعل؟

عشت رجلًا أعزب لم أقرب امرأة حتى سني هذا، مخالفًا ما هو دائر حولي في كل مكان؛ في مراكب الصيد، في عرض البحر، حتى على المقهى، الكل يتباهى بعلاقاته الكثيرة، فهو الرجل يحق له أن يفعل ما يشاء، ينام مع هذه ويغازل تلك، فهو الرجل الذي لا بد له من التجريب، وعندما تعجبت -كل ذلك يخالف تربيتي المتشددة- اندفع الواحد منهم في تبرير أفعاله، سماها خبرة، متنفسًا، تجربة، نزوة، زلة.

أي شيء، أي شيء إلا أنه نجس الذيل!

ربما كان إحساسي ذلك مصدره تربية أبي الشيخ الأزهري المحترم؛ تربية نجح في زرعها بداخلي قبل أن يتوفى وعمري أقل من ثماني سنوات، طالما ربى بداخلي كلمات لم أفهمها وقتها، الخوف من العاقبة في الآخرة، الفطرة السليمة، مراقبة الله...

كل هذا الخليط جعلني لا أتخيل النوم مع من هي ليست زوجتي، لكن لا أنكر أني حاولت!

بالفعل حاولت مثل كل شاب وصل لمرحلة البلوغ، يتخيل ملمس جسد النساء الناعم،

يرغب في تقليد أصدقائه، حاولت.

فذهبت مع بعض الشباب إلى منزل في طرف المنطقة اعتادوا نساءه، رشّح لي أحدهم واحدة من السيدات الخبيرات تجيد إمتاعه بيدها فقط!

قلت في نفسي: اليد أرحم من باقي الجسد، وبالتأكيد حرام أقل.

دخلت عليها فوجدتها ضخمة ممتلئة وتلملم صدرها الرجراج بجلباب أحمر لامع، اقتربت منها بخطوات مترددة لكنها شدتني إليها وهي تتحسس صدري العريض قائلة: تبدو بصحة جيدة، لعلك لن تكتفي بيدي مثل زميلك.

وتبعتها بضحكة مشروخة، إلا أنها ما إن لمستني حتى أحسست بنفور غريب، وتجسدت أمامي صورة ضبابية لأبي ينظر لي باشمئزاز مع خيبة أمل، فشعرت بجلدي كله يفور وأخذت أحكه بشكل جنوني، خافت معه السيدة المسكينة وظنت أني مصاب بمرض جلدي.

خرجت من البيت متسع العينين، محمر الجسد من الحكة، وزاد عليها تصاعد الطعام من معدتي فتقيئت كل ما فيها بمنتهى العنف.

هنا استندت على حائط المنزل ارتعش.

ومن هنا أدركت أن جسدي يرفض هذا الطريق.

لذلك ظللت أحافظ على نفسي حتى تزوجت حنين، وحطم عقد الزواج سد المنع فانطلقت رغبتي الحارقة التي كنت أقوم بتنفيسها في المجلات الخليعة واستحلبها كل مساء على سريري البارد دامع العينين من الخجل، فتنطلق قذائف شهوتي وأنا أتخيل حنين في جلسات مثيرة مثل الفتيات في الصور.

فلتنصبّ اللعنات على اليد والمجلات والوسائد ويا مرحبًا بالجسد البض الشهي، لكن تكسرت الأمنيات، فالجسد بارد، لا يتحرك ولا يتأوّه، لا ينثني أو يبرز المفاتن مثل الصور، بل يتيبّس كلوح الخشب.

لم أستسلم لليأس، أطلقت أقصى طاقات مطرقتي في الهجوم اليومي على اللوح الخشبي علّه ينكسر، وذكّرت نفسي دومًا:

لا مزيد من الأيدي الملعونة.

لا مزيد من الخيالات.

لا مزيد...

لا أنكر أن لمساتها الأنثوية أضاءت بعضًا من حياتي المظلمة، تحضر لي طعامي وشرابي، تنظف الغرفة القذرة، تقوم بمتطلبات الزوجة المعتادة. إلا أن الدفء لم يغزُ جنبات حياتي كما تخيلت، أصبحت أثور لأكثر الأسباب تفاهة، وحاصرني الشعور بالضآلة، شعرت أني صغير أمام نفسي.

تكلمت معها كثيرًا، لكنها دائمًا لا تجيب إلا بنظرة فارغة متهمة؛ تطعنني بسكين ثلم في ضلوعي كأنها تقول:

ما الذي تريده مني؟ أنت اشتريتني بمالك، أنا لك شيئًا لا بشرًا، مجرد وسادة لتفريغ شهوتك، لا تطلب من تلك الوسادة أن تنفعل معك.

أخيرًا بلغ صبري أقصاه عندما كنت أجالس «شلة الأنس» يوم الجمعة، بعد الصلاة الطويلة والخطبة الأطول من صاحب الصوت المشروخ «جبريل» عليه اللعنة هو الآخر، كلنا نعرف أنه مدعي إيمان يتعاطى الحشيش، لكنه يرسم دور الداعية خلال الخطبة، تتملكه الجلالة ويظل يتكلم فيحمر وجهه ويتطاير الزبد من شدقيه، يتقمص دور شيوخ التلفاز فيصرخ بالوعيد ويستغفر ثم يهدأ ويبدأ في الدعاية للدين كأنه يهدي العصاة، لم أنتبه إلا للبداية، فقد تعودت منذ زمن بمجرد أن يستفتح خطبته أن أسرح في أموري وشؤون الدنيا بسبب مواضيع خطبه المكررة والمملة، فأخذت أحسب ما بقي من مالي ولكم سيكفي من الوقت، دارت عيني في الزاوية المعرشة بالعروق الخشبية المشققة لأجد أن كل الجالسين قد اتبعوا نفس طريقتي، كل منهم في شأن يغنيه، أقيمت الصلاة أخيرًا فتنفسنا للخلاص، الآن هربنا من نصف الطريق ولا زال أمامنا ركعتان بصوته يتعمّد فيهما أن يصلي بأطول سور القرآن!

خرجنا من الزاوية، وتجمعنا لنجلس على المقهى -إن كان لنا أن نسميه ذلك، فما هو إلا بيت واسع لم يكتمل بناؤه، ثلاثة جدران حجرية لا رابع لها، غير متناسقة القطع، عُرِّشت بأغصان الشجر وأربطة القش والصاج الصدئ، الواجهة باب خشبي كبير لا يوصد في وجوه السائلين، أعلاه لافتة زرقاء بهت لونها مكتوب عليها بالأبيض المتقشر «بورصة البوري».

طلبنا مشروباتنا من الصبي المتواثب بين الموائد كالغراب على قدم واحدة، وكالعادة تحولت دفة الحديث إلى أحداث ليلة الخميس، الكل يتكلم وأنا أصغي لثرثرتهم التي تفتح جروحي غير الملتئمة، هذا يقول إنه ضاجع مرتين متتاليتين، وآخر يقول إنه ظل حتى شرقت الشمس، وأخير يدّعي أنه مرّ على زوجتيه في ليلة واحدة، كل منهم يكذب على الآخر، وكل منا يعرف أن الآخر مدعي فحولة.

دارت الكلمات في رأسي ولم تخرج إلى لساني: أنت تتعاطى الحشيش لتتوهّم أنك تطيل

اللقاء، وأنت ونحن نعلم أن زوجتك تنام مع ابن عمك بسبب خيبتك الثقيلة في السرير ولا تجرؤ على فتح فمك، أما أنت فقبل عودتك لبيتك تتوجه لدولاب المخدرات الخاص بعائلة «حمو» فتأخذ ما تستطيع لعله يحيي الميت.

لكن شيطاني يوسوس لي فلا أجد معينًا عليه: ماذا إن كانوا صادقين؟ ماذا إن كان في كلامهم أقل قدر من الحقيقة؟

لماذا يتمتع كل منهم بحضن دافئ من زوجة تماثل قوارب (سيد البلطي) في الشكل والحجم وأنا لا، ألم أظفر بجميلة الجميلات؟ فلم لا أستمتع بها؟

أستمر في الاستماع للمعارك التي دارت في بيوتهم بالتفصيل الممل، وكل منهم حين يبدأ يتفنن في المبالغة عن سابقه، فيصف أدق التفاصيل حتى نتخيل أننا نجلس معهما في غرفة النوم، يضفي على نفسه صفات المصارعين، أما عن «الجماعة» فلا كلام يصف ولا صورة تكفي؛ فهي لا تمل الجماع ولا تتوقف عن طلبه ليل نهار؛ وملكة في فن الإغراء، إن صحّ ربع ما تقولون عن نسائكم لبقي الواحد منكم بباب امرأته مثل الكلب!

كلماتهم رغم كذبها المفضوح تحولت إلى أوجاع لا تنتهي في جسدي، وغلى معها الدم في عروقي، قررت إيقاف عذابي اليومي، قفزت راحلًا بلا سلام تلاحقني عبارات التبكيت والضحكات كضربات السياط تجلدني على ظهري، غامت الرؤية في عيني بالدمع الغاضب، لا أعلم كيف قطعت المسافة من المقهى إلى المنزل، دفعت الباب كأني أدفع عن صدري ما به من غضب، وهممت بالصراخ فيها أنها طالق!

غير أن الباب ما إن فُتِح حتى تجمّدت في مكاني.

فللمرة الأولى منذ أن دخلَت بيتي أراها مبتسمة، ابتسامها غسلت نيران الغضب عن روحي، لا أعلم كيف اختفى الغضب الذي ملأ نفسي منذ لحظات.

اعترفتُ بلا مكابرة، أنا أحبها فعلًا ولا أقوى على فراقٍ بيني وبينها، انتبهت لها تجلس على طرف الفراش تشبك كفيها على بطنها، تنقلت عيني بين يدها ووجهها الصبوح، وبدأت أفهم، معقول؟!

ارتعشت شفتي، تساقط الدمع من عيني، لكنه دمع آخر غير الأول، بالطبع فدمع الغضب يختلف عن دمع الفرح، عن الضحك، كله دمع إلا أنه يختلف؛ حتى مذاق الملح على لساني منه يختلف.

ركعت على ركبتي عند قدمها واحتضنت يدها الدافئة، يدها بالفعل دافئة للمرة الأولى في

عمر زواجنا القصير.

على وجهي علامة استفهام، فتجيب هي بإيماءة وتقول كلمة واحدة أسقطت قلبي من مكانه، واحدة فقط هي أعذب ما سمعت في عمري كله منذ ولدت.

- حامل.

أفقت من الذكريات القريبة على حياتي الباردة كشاطئ أبي قير في منتصف يناير.

هبّة ريح مثلجة على الوجه أفاقتني بسؤال، هل كنت أستحق مثل تلك العطية؟

لا، قاطعة!

ذلك لأني خدعتهم كلهم، أوحيت لهم بأني أمتلك من المال الكثير، بل الكثير جدًا، كذبت!

نعم كذبت، لكن عذري أن ذلك كان سبيلي الوحيد حتى أظفر بالمحبوبة.

بدأ الأمر بخطة وسوس لي بها إدريس صديق عمري بل وشارك في تنفيذها، فأسررت بشكل خفي بين بعض الرجال في مقهى عاطلي الحي المعتاد أني سأغيب عن الإسكندرية كلها لمصلحة ما فيها من الخير الوفير، وأوصيت ألا ينتشر الخبر، ثم تركت النميمة تتولى الباقي، بالفعل اختفيت قرابة أسبوعين في مكان بعيد نسبيًا، وعدت مرتديًا ثيابًا جديدة غالية وساعة أصلية، ومعي علبة سجائر مستوردة، إضافة إلى حذاء من أغلى محلات شارع فؤاد، كل تفصيلة توحي بالعز.

توجهت إلى المقهى فور وصولي، دعوت الجالسين كبيرهم وصغيرهم على المشاريب وأحجار المعسل بلا حساب، وطلبت من الجميع ألا يلتفتوا للمال فهو وفير والحمد لله، وانتظرت حتى التفّ الناس حولي وتساءلوا عن تغير الحال، رغم عدم اعتيادي الكذب، أطلتُ وبالغتُ في وصف الخيرات التي ورثتها من شخص تجمعني به صلة قرابة بعيدة وأنا وريثه الوحيد، زيّفتُ القصة بالكامل وابتلعها الجميع مع المشروبات المجانية.

كذبت وكلي يقين من أن الخبر لن يبيت ليلته إلا وهو نائم في أحضان أبي حنين، وقد كان ما توقعت عبر واسطة الخير إدريس بأن قام بنقل الصورة كاملة بعد تتبيلها بالبهارات اللازمة لمظهر الثراء المفاجئ. فأتى أبو حنين ليهنئ، فتودّدت إليه وأرخيت حبال الشباك، فالتقفها بلا جهد.

وكان ذلك مدخلي لغايتي واستمررت في رسم الدور نفسه بعد إتمام الزواج، أنفقت بإسراف، سددت الأقساط، كسوت الأطفال، ملأت البيتين بما لذ وطاب، ذلك أوهم الجميع أني أمتلك ما لا يعلمون.

لكن كما قال الجدود: خذ من التل يختل! وهو لم يكن تلًا أبدًا، بل كذبة كبيرة.

الآن لا مال في محفظتي للطفل القادم، تكاثر على كتفي الدين ولا معارف لأقترض منهم المزيد، أما عن العمل فحدث ولا حرج، الركود أصاب بيوت القرية كلها بالفقر وقلة الحيلة، حتى الأعمال المتصلة بالصيد لم تعد تكفي أصحابها طعام يومهم.

حاولت التقشف، فالميزانية لا تسمح بأي إنفاق في غير الأساسيات، لا سجائر أجنبية فلنكتفي بالمحلي، حتى أقلعت عنها بالكامل، لا أجبان إلا البيضاء التي ملّحت أيامي أكثر من اللازم، اللحم لم يعد لساني يذكر طعمه.

حاولت كثيرًا، أخرجت قاربي القديم ونويت العودة إلى البحر، فحجمه يسمح ببعض المرونة في الأيام الباردة عالية الموج، ربما أسمح لأحد الشباب العاطلين بمساعدتي وتحمّل الجانب الشاق من العمل، ولكن كانت الصدمة؛ عوامل الطقس وطول رقاد القارب دمرته تمامًا، فأصبحت تكلفة صيانته تفوق أي مكسب محتمل منه.

حاولت.

وحاولت.

لكن بلا فائدة، كل الطرق شدّت في وجهي، وصلت لأقصى إذلالي لنفسي بأن عرضت على بعض المعارف العمل عندهم أجيرًا باليومية، ولكني تفهمت رفضهم وكلمات الأسف الفارغة الخارجة من أفواههم، ونظرات الشماتة المنطلقة من عيونهم.

ذهبت فتزوجت فتاة في مثل عمر بناتك، أتت على كل أموالك والآن تبحث عن العمل، أي عمل ذلك الذي تقدر عليه في سنك هذا.

من هنا ظهر الحل السحري في جلسة القهوة المعتادة، السفر إلى الخارج والعمل والعودة بالمال الوفير، لكني بالفعل كبرت على هذا الشقاء، ثم ومن أين لنا بالسفر؟ فالتأشيرة غالية أو لأصحاب الواسطة؟

لكن ما باليد حيلة، إما هذا أو الجوع لي ولزوجتي ونسلي القادم الذي حلمت به طيلة حياتي ليعوضني عن انقطاع الأهل، عقدت العزم وأوكلت النية، مثلما يفعل الجميع، سمسار سفر، مبلغ من المال استدنت بعضه بالتذلل والوعود الكاذبة، وإيصالات الأمانة، والبعض الآخر كان مقابل بيع قاربي المتهالك بثمن بخس لحوت المراكب سيد البلطي.

ثم القليل من الطعام، ملابس ثقيلة، قارب مستور بظلام الليل إلى عرض البحر ونهاجر إلى بلاد أخرى وبشر آخرين.

ذهبت لحنين وألقيت في حجرها كل ما في جوفي.

لكن لا جواب!

القليل من اللهفة، بعض من التأثر لن يضرك وسيرضيني، حتى أقل القليل من دمع، لكن ما كل هذا الجمود؟

لملمت القليل من الملابس وغادرت دون كلام، فلا مزيد يقال بعد هذا الصمت، وقفت بالباب المفتوح ألقيتُ نظرة أخيرة على أمل رؤية ما يبرد نار قلبي، يخبرني بأني أفعل الصواب أو حتى يمنعني، لكن لا يوجد إلا الوجه الجامد الجميل، أتأمل ملامحها الباردة لبرهة. تتلاقى الأعين من خلف دموعي التي ترفض النزول، أرى عينيها الخاليتين من المشاعر فأكتفي بهذا القدر من تعذيب نفسي.

وأرحل... لكني لم أعلم يومها أني ذاهب بلا عودة!

## - 8 -

# سِفر التيه

**الإسكندرية**

**31 ديسمبر**

كيف ترى مريم كل هذا؟

أي قوى روحانية تلبِّستها، لترى مواقف لم تعشها وحيوات لم تكن موجودة فيها، ذكريات أبيها وأمها، لحظة ميلادها هي نفسها، الأدهى أنها لا ترى كل التفاصيل كأنها معهم، بل أحيانًا تتقمصهم كأن روحها المعلقة بين السماء والأرض في لحظات سقوطها تحررت في الزمان والمكان.

هل هي هلوسة أم وسوسة شيطانية؟

ضلالات يبثُّها عقلها المعذب بعد أن قاسى الأمرَّين؟

أم هبة مقدسة أشبه بالوحي المُعطى للأولياء والقديسين؟

الكثير من العجائز على فراش الموت يكلمن الأحباء ويرين الخِلَّان أحياء وأموات، البعض يقول سكرات الموت وخرافات الشيخوخة، والبعض يقول كرامات الأتقياء.

ربما لن تعرف مريم أبدًا.

لكنك ستعرف!

***

**قبل ذلك بسنين طويلة.**

**في الساعة الرابعة فجرًا.**

على شاطئ البحر الخالي، جلس عمران في عشة خشبية من جريد النخيل مساحتها لا تتعدى الخمسة أمتار طولًا وعرضًا، بصحبة العشرات من الرجال المتلاحمين في هذه المساحة الضيقة، فلا تعرف ذراع من تحتضن ساق من، الجميع قانع صامت، ترتسم على الوجوه ملامح الهم واليأس؛ فالكثير منهم يعلم أن اليوم هو الفيصل في حياته، إما العيشة الكريمة أو الغرق في البحر.

البحر الذي لطالما صادقوه، فمعظمهم من الصيادين وأبناء منطقة عمران، بعضهم يعرفه بشكل شخصي والبعض الآخر لم يعرف حتى اسمه، لكن الكل ينظر إليه بارتياب مشوب بالاستهجان، لماذا يزاحمهم في سفرة هم أحق منه بها؟

الأماكن المحدودة على قوارب الخلاص أولى بها شاب في مقتبل العمر يبحث عن زوجة تدفئ فراشه ليلًا، أما عمران فقد ذاق ملذات النعيم في أحضان مديرة الرؤوس حنين. فلماذا الطمع؟

آه لو يعلمون!

لكن الحق أن التناقض يثير التساؤل، شكل عمران العجوز بشاربه الذي شابه الشيب وتجاعيد وجهه المتغضن يبدو شاذًا وسط الوجوه الشابة، ربما لأن أكبرهم لا يتعدى الخامسة والعشرين، مقبل على تجربة جديدة، محطم من تجربة قديمة، داسه الفقر.

عجيب هذا الفقر، ما إن تسمع الكلمة حتى تتخيل عجوزًا محني القامة يرتدي المهلهل من الثياب ويمسك بعصا بالية، لكن المنطق يقول إن الفقر عملاق مفتول العضلات موفور الصحة، وإلا فكيف هزم كل هؤلاء الفتية الصغار وأجبرهم على ترك ذويهم وطردهم من بلادهم للمجهول، إن لم يكن أقوى منهم؟

تطول لحظات الصمت، فيعود عمران بذاكرته إلى ترتيبات السفر التي تمت بلا مشقة تذكر، فإدريس بعد أن جلس معه على المقهى مطولًا زيَّن له وأقنعه بأهمية السفر، وكيف أنه السبيل الوحيد لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، تولى بنفسه التوسُّط بين عمران وسمسار السفر، بل وقام بمحاولات شتى لإقناع الأخير بتخفيض مبلغ رسوم السفر، ثم زاد على ذلك بأن أقرضه جزءًا من المبلغ من ماله الخاص الذي لا يعلم أحد مصدره.

تنهَّد عمران متخيلًا كيف لحياته أن تستمر بدون إدريس.

عاد من شروده حين بدأت الجلسة تطول والأطراف تتململ؛ فالتلاحم لا يسمح إلا بحركة محدودة، الكل حانق وممتن، حانق على الروائح التي أخذت في التزايد التدريجي حتى دمعت الأعين، صادرة عن أرجل محشورة في أحذية ضيقة لساعات طويلة أو مؤخرات اختمرت داخلها آخر وجبة مكونة في الغالب من الفول ومشتقاته.

وممتن للدفء الحقيقي المنبعث من الأجساد، فلولاه لتجمدوا في هذا الزمهرير القارس الذي ينخر في العظام ويكسر الأبدان، فخارج الكوخ تعوي الرياح مثل الذئاب يبارزها صوت تلاطم الأمواج على الشاطئ في حرب ضروس تهيل على الأجساد المتلاحمة المزيد من البرد.

ولا يدفئ الأجواء عذب الحديث، فالكلام ممنوع بأمر سمسار البشر، مجرد الكلام قد يجذب الانتباه غير المرغوب فيه، لكن أعين الجالسين تقول الكثير بمجرد النظر، يسلي «عمران» نفسه بتخيل حكاياتهم من أشكالهم.

يجاوره شاب متين البنيان يبدو أنه في حاجة للمال حتى يتزوج حبيبته الجميلة التي تلهب منامه وصحوه، فلا ينول منها إلا بعض قبلات خاطفة في مقلب القمامة المهجور رافضة بكل صرامة المزيد من التمادي، فحد الله بينها وبين الحرام، وهل هناك حرام أكثر مما هم فيه الآن؟

أما ذلك الفتى ضامر الوجه والجسد، يبدو أنه بحاجة للمال لعلاج أحد أبويه أو كليهما من مرض عضال استبدَّ بجسديهما، ولا يقوى الرزق المحلي على نفقات العلاج الدولي، لعله سرطان أو ربما داء في الكلي مع ذلك الماء الملوث، في حين يشي وجه الفتى بمرض في الكبد ورث هو بعضه، ربما كانت خلطة من كل ما سبق.

ما قصة ذلك الرجل الأسمر صاحب الأنف الأفطس؟

بالنظر إلى ملامحه الغليظة، ربما كان ذكرًا على الكثير من الأخوات البنات يمتلكن مثله الحظ القليل من الجمال؛ بلغن سن الزواج ولا باب يطرق ولا زوج يأتي، إذًا عليه أن يضع في الصفقة معهن القليل من المال لعل الرجال تطمع في زيجة سهلة فيتغاضون بها عن الجمال.

ولكن إن حدث وذهب المال فماذا يبقى؟

يبتسم «عمران» وهو يرد على نفسه، هو ذاته حيوان شهواني وقع في غرام الجمال والشكل الخارجي، فاشترى بالمال ما كان خارجه جميل وداخله بضاعة باردة لا تعمل كما ينبغي، أو للدقة كما يرغب.

انتبه إلى أن كل الأسباب التي تخيلها للسفر كانت تتمحور حول المال، الأداة المفضلة للعبث بتفكير البشر، المال الوسيلة والغاية، السبب والنتيجة، عمران نفسه ترك مشترياته الأثيرة إلى قلبه ورحل إلى بلاد غريبة وبشر أغرب يتحدثون بلسان أعوج، للبحث عن المزيد من المال لعلها ترضى، لكن جانبًا من أسباب السفر بالفعل كانت المولود القادم، كم تمناه طوال عمره، فهو يتيم لأب مات في شبابه ولم يرسل له المزيد من الإخوة، فكان هو الأول والأخير.

دائمًا ما تمنى طفلًا يؤنس وحدته، يكبر هو في كنف صغيره، وتصغر سنين عمران في صداقته، ما زاد تلك الأمنية إلحاحًا هو لوح الثلج الجميل المسمى زوجته، لعل القادم ينشر الدفء بينهما ويذيب ولو القليل من برودتها، تمنى دائمًا ألا يكبر وحيدًا، لا يهم نوع المولود

ذكرًا أو أنثى المهم أن يكون عصاه التي يستند إليها عندما يهرم، فلا حياة في بيت بلا أطفال.

لكن سلاسل أفكاره تحطمت تحت مطارق خطوات تمشي على الرمال خارج العشة بحفيف خافت، يندمج الصوت مع عويل الريح وعواء الأمواج فيصنع صورة ذهنية تحطم أقوى الأعصاب.

لكن لكي تخاف لا بد أن تمتلك الخيال، وهؤلاء المساكين طحن الواقع مخيلتهم، سحقها فلم يعد يخيفهم شيء، لا عن شجاعة بل عن يؤس، الفقير الجائع يخاف من عدم وجود الوجبة القادمة فقط، املأ معدتهم وعالج أمراضهم ثم التفت إلى الجانب النفسي لاحقًا.

فلا قشعريرة هنا إلا من الهواء البارد الذي اقتحم فضاء الغرفة دون سابق إنذار؛ عندما انفتح باب العشة بعنف فتبخر الدفء المفتعل، على العتبة وقف السمسار الملعون، قائد مركب العبور إلى العالم الآخر؛ إما إلى أرض الميعاد الأوربية أو بالأسفل إلى أرض السواد.

تعلقت العيون به بمجرد أن فتح الباب، فلحضوره سطوة، إنه يمتلك من القوة ما يؤهله لأن يحرم أيًا من المنبطحين أمامه فرصة النجاة.

هل يكون بذلك رضوان الجنة أم ملاك الموت؟

سيعرف الجميع عما قريب.

الضوء المشقشق من خلفه مع الزمهرير والريح أعطاه تأثيرًا أكبر من الواقع بشكل ما، تقدم خطوة للأمام وأغلق الباب خلفه فأفسح له الجالسون مكانًا وازدادوا تلاحمًا بشكل إعجازي.

أخذ يدير عينه الواحدة فيهم ببطء متلذذًا بشعور السيطرة المعتاد، صحيح أنه يقوم بعمله في تهريب المهاجرين غير الشرعيين إلى الخارج من أجل المال الوفير إلا أن العمل يحتوي على لذة خاصة، فكل فرد منهم معلق به، يتطلع إليه كأنه المسيح المخلص يلقي بالرحمات، إحساس قوة غير عادي تملّكه، تلبّسته روح وإحساس الرؤساء، ومن لا يحب أن يتكلم فيسمعه الجميع؟

فها هو يستمتع بهذا الحشد الصغير القابع أمامه ينتظر كلماته المنزلة، فتزلزله النشوة وتكهرب خلايا مخه حتى يقارب على الارتعاش والقذف من المتعة، كل هذه المتعة يعطيها له حفنة من الهاربين، كم يحصد الخطيب على منبر الجمعة؟

عضو مجلس الشعب؟

الرئيس في احتفالات النصر؟

لو أنه مكان الأخير لفقد الوعي حتمًا من تتابع النشوة.

صدق، فالسلطة والمتعة الجنسية خرجا من مشكاة واحدة.

أغمض عينيه ليهضم كل تلك الانفعالات، اختلج جفن عينه السليمة، سيطر على أعصابه، ارتسمت على وجهه سيمات الامتعاض عندما قاطعه أحد الجالسين القرفصاء متململًا من طول الانتظار بلا طعام أو شراب في هذا البرد اللعين، اشتمّ رائحة يعرفها جيدًا، إنه التمرد.

قبل أن تتفشّى حمى الثورة في القطيع انقضّ السمسار على المتبرّم وعلى وجهه أعتى ملامح الغضب؛ بالأخص مع الجرح القطعي الكبير الذي يغطي عينه الأخرى من أول الجفن حتى الشفة العليا.

جر الرجل من قفاه سابًا بأقذع الألفاظ، مد يده إلى جيب سرواله الخلفي مخرجًا مطواة قصيرة تفتح بزنبرك، هدد الجميع صائحًا إنه يخاطر بحياته وحريته في سبيل نقلهم من حياتهم المتقوبة المهمشة إلى النعيم في بلاد القهوة المميكنة والنساء الجميلات... والآن يتبرّمون.

غير أن المعترض إياه قد أعماه الغضب وشل عقله الجوع والبرد، فأخذ يهتف بأن تضحيته ليست مجانية بل قبض مقابلها الكثير من المال المقتطع من قوت عيالهم، هنا انفجر السمسار فلطمه على وجهه ملقيًا إياه على الأرض قائلًا إنه محروم من أرض الميعاد، فلا سفر ولا مال له.

وكذلك نجزي الناكرين!

هنا أفاق الشاب من سكرة الغضب وتلعثم بالاعتذارات، اقترب زاحفًا على ركبتيه من الرجل ودارت عيناه في وجوه الجالسين، هل من مغيث؟

الكل أدار عينيه، الكل نكّس رأسه، الكل تعلّم من رأس الذئب التي طارت، لن يخاطر أي منهم بفقدان فرصته.

تأكد السمسار من استعادة السيطرة، ركل الزاحف أمامه وطرده خارج العشة ككلب أجرب، ولوح بالمطواة متوعدًا إياه إن فكر في فتح فمه القذر فسيعثر عليه ويخصيه في سريره بعد أن يغتصب امرأته أمامه، وعاد إلى داخل العشة يطلق الشرر من عينه في وجوه الحاضرين في تحدٍ، هل هناك المزيد من العصاة؟

ولما انحنت الرؤوس أكثر تأكدت هيمنته الكلية، فانفرجت اساريره بعض الشيء وهدأ، أشعل سيجارة ثخينة غريبة المنظر بعثت دخانًا مزرقًا في سماء المكان؛ لانت معه الأعصاب

المتوترة كأنه من رحيق الجنة، ثم بدأ يشرح لهم خطوات إيصالهم إلى سواحل إيطاليا.

بعد حادثة رشيد المشهورة -عندما غرق أكثر من مئتي فرد في مركب تهريب- أصبحت معدلات الحذر أعلى بسبب تشديد الإجراءات، لم يعد الطريق المعتاد في الإمكان، وأصبح كل قارب يخرج من المكس لا بد أن يعبر من خلال وحدة الجيش المرابطة للتفتيش وتسليم رخص الصيد؛ لذلك سيتم تحميلهم على قوارب صيد صغيرة تتحرك ببطء بالتوازي مع الساحل حتى الحدود الليبية، ذلك خلال فترات تغيير نوبات حرس الحدود المحسوبة بدقة، ثم نقلهم إلى قوارب صيد أكبر وأقوى بما يكفي لتقطع عرض البحر المتوسط، سوف تستغرق الرحلة أيامًا في ظروف جوية متقلبة مع عدم وجود إمكانية لرفاهية السكن المنفصل، يجب أن يجلسوا في القاع بعيدًا عن الأعين حتى يتم الخروج من المياه الإقليمية الليبية مع التحرك البطيء لعدم إثارة الشكوك.

خلال هذه الفترة سيكون عليهم الاقتصاد في الطعام الشحيح أصلًا، إلى جانب أنه لا سبيل لقضاء الحاجة لعدم وجود حمامات، فلا ملاذ إلا البحر، عليهم ارتداء سترات النجاة طوال الوقت، فعند الشعور بأي لمحة خطر لن يتردد قائد المركب لحظة في إلقائهم إلى الأسماك!

لا مجال هنا للتعاطف أو الشفقة.

هنا انقبض صدر «عمران»، فرغم بنيته الضخمة إلى جانب عمله منذ الصغر في وظائف متعلقة بالبحر والصيد، لكن خبرته بالسباحة محدودة، لا تتعدي القفز عاريًا مع أقرانه في المياه خلال الطفولة بجوار الشاطئ، أما في الأعماق لمسافات كبيرة، سباحة حقيقية، تلك قضية أخرى.

هذا أحد أهم أسراره التي أخفاها عن الجميع، كان دومًا يبتعد عن المياه العميقة التي لا يرى لها قعرًا، طالما يرى الأرض داخل الماء فهو في أمان، ازرقّت المياه واختفت الأرض فهنا يبدأ الخطر ويتملكه الخوف الذي لازمه منذ الطفولة، يوم اصطحبه أبوه للمرة الأولى إلى رحلة صيد في المياه الأكثر عمقًا، كاد يقفز من السعادة، فأخيرًا وثق فيه الأب ولمح بداخله بذرة الرجل تبدأ في النمو وقرر أنه يصلح لرحلة خطيرة مثل تلك، وخلال الاندماج في الصيد، لاحظ أن أباه كان يحتسي أكوابًا متتالية من الشاي الأسود الثقيل بعد أن يضع كمية صغيرة من عجين غريب ملفوف في سلوفان أحمر أسفل لسانه، ولما سأل عمران الشاب أباه عنها قال إنها حيلة تساعده على البقاء متيقظًا خلال الليل عندما تكثر الاسماك، فهي تهرب من الحر في النهار إلى الأعماق السحيقة، لكن في الليل عندما تبرد المياه تقترب من السطح لتقتات وتلك فرصتهم، وأكمل أنه تعلم تلك الحيلة من أحد الاصدقاء على المقهى، ممن كانوا

يعملوا في شحن الأسماك على الطرق السريعة بين المحافظات.

يومها قال له أبوه إنه (وجه السعد)، فالرزق وفير والسمك يكاد يقفز إلى المركب من تلقاء نفسه، واستمروا في الصيد حتى اقترب الفجر، ولكن عمران لم يقوَ على السهر، فسقط نائمًا بعد أن سمح له أبوه، فتركه وهو يحضر جرعة أخرى من الأفيون ليضعها أسفل لسانه فيسهر أكثر ويغنم المزيد، مرت دقائق بين اليقظة والنوم، رأى فيها عمران أباه يتحرك ببطء أخرق، ولا يقدر على جذب الشباك المليئة بالخير، فظن أنه يحلم، ولم يستفق إلا على صوت تصادم عظيم بالماء طيّر النوم من عينيه، فأفاق وأخذ يبحث عن أبيه في كل مكان في القارب الصغير فلم يجده. ولما عثروا عليه بعد انبلاج الصبح كانت عيناه متورمتان من البكاء وأبوه في غياهب البحر بلا أثر، ومن يومها لا يقدر على النظر إلى مياه لا يرى أرضها، فيسقط ويتصلّب وتشل قدماه.

انتزعه من أفكاره صوت السمسار وهو يكمل خطة النجاة، طريق الهروب إلى الجنة المحفوفة بالمخاطر، فأخبرهم بأنه إن مرت الأيام على خير وعميت عنهم عيون السلطات، مع الاقتراب من السواحل وقبل المياه الإقليمية الإيطالية بمسافة معقولة ستقابلهم قوارب صيد إيطالية صغيرة ستتولى نقلهم إلى اليابسة مستترين بعباءة الليل، على الشواطئ يتواجد محترفو تسكين الهاربين؛ على أهبة الاستعداد لإيوائهم وتزويدهم بالطعام وخلافه مقابل مبالغ خيالية، وعلى المتضرر اللجوء للدعاء!

الأمر احتكار صريح، منظومة تعاون دولي واحدة تعمل في تناغم تام بين الجوانب المصرية الليبية الايطالية.

أمرهم بأخذ قسط من الراحة لعدة ساعات وسيعود إليهم مرة أخرى في ميعاد التحرك، وشدد على الصمت، مؤكدًا أن مسؤوليته تنتهي عندما يضعون أقدامهم على الأرض الإيطالية، عندها كل شخص حر نفسه، من يريد الرحيل إلى المدن القريبة مثل «ميلانو» باحثًا عن الرزق فليفعل، من له قريب في «روما» يتصرف، كلٌ مسؤول عن تدبير شأنه، الأهم طبعًا هو الابتعاد التام عن السلطات بكافة أنواعها وإلا فهو الترحيل إلى مصر، من يقبض عليه بلا أوراق يعود فورًا على أول رحلة من أقرب مطار يجر أذيال الخيبة.

من يعود هو الملوم، فلا مال يعود لصاحبه تحت أي مسمى، وإن لمح أيًا منهم ثانية سيشق بطنه ويلقيه في المالح للأسماك تقتات به، ولما لمح في العيون الخضوع فطن إلى أنهم يعلمون خط السير مسبقًا وتم إبلاغهم بالتعليمات، فكل منهم أتى من طرف صديق أو قريب سبق أن سفّره، فخبرته وسمعته في المجال تسبقه، صحيح أنه يتقاضى الكثير، لكنه الأكثر امانًا بين المنافسين.

حتى هنا يوجد سوق موازٍ وعرض وطلب، سعر أقل مخاطرة أعلى والعكس!

خرج وأغلق عليهم باب العشة من الخارج ومشى عائدًا من حيث أتى على وعد بلقاء قريب.

***

مرت الأيام على «عمران» في عرض البحر مع الصحبة الإجبارية، تعرف على الشباب وتعرفوا عليه وكسر الحاجز الناشئ عن هيئته الضخمة وملامحه الشائخة، اكتشفوا فيه أبًا طيبًا في غربة موحشة، واكتشف فيهم براءة مخلوطة بنزق الشباب وضيق الحال، كل منهم يحلم بالمال والنساء المنتظرين على شاطئ جنات عدن.

منهم من يؤمن بأنه ما إن يطأ أرض الفرنجة حتى تتهافت عليه الشقراوات المغرمات بالرجل المصري، يضاجع منهن من يشاء كما لم يفعل هارون الرشيد في زمانه، والعجيب أنه يحل الزنا بهن لنفسه!

سخر منهم في أعماقه، ولو أن طيبة قلبه أبت أن يصدمهم بالواقع المرير، ليحلموا وليستمنوا على أحلامهم، غدًا يتعلمون بالطريقة الصعبة، لكن الرحلة طالت أكثر من المتوقع، فالبحر غير مواتٍ والمركب متهالك ولا سبيل لزيادة السرعة.

شحّت المؤن، واقتصد الرجال في الطعام، لم تظهر مشكلة نقص الزاد مبكرًا؛ لأن معظمهم قوي البنية يتحمل بعض الجوع، من كان يأكل رغيفًا في الوجبة اكتفى بالنصف، ومن كان يضع بعضًا من الجبن القديم مع طعامه، وضع رغيفه في الماء ثم ابتلعه علّه ينتفش ليزيّف إحساس الشبع في معدته.

ولما اشتدّ الكرب سبح عمران في ذكرياته علّه يجد السلوى في الماضي، تذكر زوجته حنين، وبرغم الموت المحيط به من كل جانب بفعل الشمس الحارقة التي تصليه نارًا؛ اقشعرّ جسمه من برودة وليفته وخوائها كليل الشتاء، ألهذا يحبها؟ لأنها الشتاء؟!

طالما تساءل، لماذا يحب الجميع الشتاء؟

تكونت لديه قناعة مهمة منذ كان شابًا، الشتاء محبب لمن يقدر عليه، تدفئة مركزية وغطاء ثقيل، مشروب ساخن تتصاعد منه الأبخرة زكية الرائحة تدفئ الروح نفسها داخل الجسد، تدغدغ الحواس وتنشر الخدر في الأطراف المضمومة حول حبيب يشع دفئًا هو الآخر، هذا هو شتاؤهم لا شتاء الفقراء، الآخر مختلف تنهال منه الأمطار من أسقف البيوت المشققة، لا أغطية ولا تدفئة إلا الأجساد المتلاحمة، الشفاه مزرقة، الأطراف متيبسة من

الصقيع الحارق، فالبرد يحرق مثل النار أو أشد قسوة.

مع سقوطه في غياهب الذكريات أحسّ بالمرض يسري في أطرافه، الذكرى تلسعه ببرد الإسكندرية بينما جسده يلتهب من الشمس التي تلتهمه على مهل، أفاقته الحرارة وانتبه لحاله.

برغم عدم آدمية الوضع ونقص الطعام لكن المشكلة الحقة ظهرت مع نقص الماء، فقد زادت مدة الرحلة أسبوعًا عما هو محدد بسبب تقلبات البحر؛ وجر الأسبوع أيامًا فقدوا عددها، وزاد الطين بلة أن المحرك المتهالك أصبح يعمل على سطر ويترك سطر، فتناقص معها المخزون الحالي للماء باطراد، ولا بارقة أمل في نجاة قريبة، فقد ابتعدوا كثيرًا عن سواحل ليبيا، إلا أنهم لم يقتربوا من الفردوس الموعودة كذلك، وبدأت إجراءات التقشف تتوحّش، فقسّم قائد المركب الماء بالتساوي عليهم وعلى كل منهم استعمال حصته باقتصاد مجحف.

اكتفوا بجرعات محدودة يومية تكفيهم الموت عطشًا، من كان منهم يصلي توضأ بماء البحر المالح فزاده عطشًا، تظلل الجميع بعيدًا عن الشمس علّهم يحتفظون بترطيب أجسامهم لأطول فترة متاحة، إلا أنها لم تبتعد عنهم، بل دبغت جلودهم جميعًا، تخثّر الدم في العروق جراء الجفاف فالتهبت الأعصاب وتزايدت الشحناء، ما عادت ساعة تمر بلا مشادة أو تراشق بالألفاظ، غاب العقل فتسيّدت الغرائز، تقلصت البشرية وتضخمت الحيوانية، لا مجال لرحمة أو شفقة، إنه الموت أو الحياة، لا الطبيعة ترحمهم ولا هم يرحمون أنفسهم.

ما زاد الطين بلة اختفاء حصة الماء لدى البعض!

مع النقص الشديد لجأ البعض للتستر بالليل وسرقة نصيب الزملاء وتجرعه مرة واحدة فلا يمسك متلبسًا بالجرم المشهود، ومن هنا ظهرت تهمة جديدة، من لا تظهر عليه أمارات العطش الشديد هو بالضرورة سارق.

وكيف لا يعلم العطشان ملامح الشارب، فسيماهم على وجوههم!

أصبح تمييزهم سهلًا على الأعمى، نقص الماء بدّل الملامح، الأعين تجحظ وتفقد البريق، تتورم الألسن وتتشقق كأرض جدباء خاصمها المطر، الشفاه تختفي مسودة قاحلة لا تجيد الانغلاق، تبرز من خلفها الأسنان المخلخلة من جفاف اللثة، تتثاقل الأنفاس، تشحب الموجودات ويبدأ السراب في الظهور، فالعطش أتى مسبوقًا بسوء تغذية دام عمرًا ونيف فتضعضعت الأجساد سريعًا.

أما من ارتوى فلا زال محتفظًا ببعض العافية ولم يطحنه العطش مع طول البقاء في البحر.

تلفت الأعصاب وتكدّرت الوجوه، بدا التعقُّل يختفي أكثر وأكثر، لم يعد أيهم يحترم هيبة «عمران» بعد أن كانوا يبجلونه وينصاعوا لشخطاته حين يأمرهم بألا يتعاركوا، انقسم سكان المركب على بعضهم؛ كل فريق يحسب نفسه من الفرقة الناجية ويقذف الآخر بما تطوله يده وهو ينعته بأقذع الالفاظ، في حين انقسم كل فريق على نفسه.

أصحاب الدين الواحد اعتصموا ببعضهم، من داخلهم تكونت فرق من أرباب الحرفة الواحدة أو البلدة المشتركة، كل فريق لا يأمن غدر الآخر ويتعارك مع الآخر ومع نفسه في ذات الوقت، فلا تعلم من يحابي من ولا من يحارب من.

تحولت المركب إلى دولة مصغَّرة، صراعات وتحالفات ما إن تكونت حتى انشقت على نفسها، أصبح الحابل يضرب في النابل، الكل يقاتل الكل بلا أي رغبة حقيقة في النصر أو حتى معرفة الاسباب، «عمران» وسط هذه المقتلة يضرب ويضْرب، لا يعلم يضرب من ولا من يضربه.

***

بزغت شمس البحر اللا نهائي مبلغة عن يوم حارق أشد قسوة من سابقيه، انقشعت السحب وانفرجت أبواب الأعالي مستعدة لاستقبال الأرواح، الشرر يتطاير، العصبات تكونت تترصد بعضها البعض طمعًا في طعام غير موجود وماء لم يُشرب، الأعصاب مشدودة كأوتار العود منذرة بالتمزق في أي لحظة ومع أول نغمة من المعزوفة.

حتى تدخُل قائد المركب أخيرًا، فهو ومساعدوه احتفظوا بأكبر قدر من الماء والزاد باعتبار أنهم من يستطيعون إيصال الجميع إلى بر الأمان، وقف أعلى قمرة القيادة وأخرج من جيب جلبابه العملاق سلاحًا ناريًا محلي الصنع بماسورة طويلة ومقبض خشبي مصنفر.

أطلق منه طلقة تجاه السماء، وما إن انقشع الصوت حتى ساد الصمت لا يقطعه إلا ارتطام الموج بجوانب المركب، ما بين جريح ومصاب برضوض الكل يرفع عينيه تجاه القائد، الذي أخذ بدوره يسبهم ويؤكد أنه لن يتورَّع في قتل أي مثير للشغب فورًا.

فبعد الآن لا مجال للثورة في مملكته.

هنا فقد الأسمر صاحب الأنف الأفطس إياه أعصابه وبدأ في الصياح، ربما هو نقص الماء والغذاء أو عدم ظهور بصيص أمل في نجاة قريبة، المهم أن ساعة القدر قد عمي البصر وما

كان قد كان، شد من أزره عصبته المكونة من دينه أو قريته أو حرفته وبدأ اللغو في التصاعد من جديد، لكنه الآن موجه للقائد نفسه الذي احتفظ برفاهية المأكل والمشرب له وحاشيته وحرم منها الرعية.

وانتشرت شرارة التمرد في المركب كالنار في الهشيم، أصبح الوضع يشي بالانقلاب لنقطة اللا عودة، مما تطلب إجراءات احترازية حازمة، ومن فوره صوب قائد المركب سلاحه إلى مشعل جذوة الثورة قاصدًا تأديبه، لكن الأخير تنحى في الثانية الفاصلة، وأصابت الطلقة (عمران) بدلًا عنه! الذي بدوره أمسك بطنه وانثنى غير مصدق أن الحال وصل به لهذا، سقط على ركبتيه ملوثًا كفيه وكل ما حوله بدماء سوداء ثقيلة بطيئة الانسياب.

هرع إليه أحد الشباب سبق له العمل كممرض في مبرة العصافرة فترة لا بأس بها، تفحصه سريعًا وأعلن أنه لم يمت، هنا ارتفع اللغط وساد الضجيج، بعض سارقي جرعات الماء أخرج من مخزونه ليسقي عمران، الممرض مزق بعض الخرق وتكاتف مع بعض من الشباب لنقل الرجل إلى مكان ظليل نسبيًا لمحاولة تضميد جرحه.

مرت ساعة حاول فيها إخراج الرصاصة، لكن مع عدم توافر المعدات اللازمة ولا الأدوات الطبية فشل، فعاد إلى قائد المركب وأعلن أن حالته سيئة ولكن بنيانه القوي يساعده على تحمل بضع ساعات أخرى.

فكر الربان برهة ثم قال: حسنًا لنتركه على حاله، ولنبذل قصارى جهدنا في مداواته، ربما كان عمران يتيمًا لا أهل له إلا زوجته وعائلتها ولكنه كان محبوبًا، ومقتله برصاصة سيثير الكثير من القيل والقال نحن في جِلٍّ منه.

وأنهى كلامه بأن أمر باقتطاع جزء من حصة الطعام والشراب الموجودين على المركب حتى منه هو ورجاله نفسهم، وأعطاها للممرض الذي تحول تلقائيًا إلى طبيب عمران الخاص.

مرت الساعات بطيئة على عمران، ارتفعت فيها درجة حرارته إلى حد غير مسبوق، لم تفلح معها محاولات التخفيض باستخدام كمدات الماء المالح من البحر، بدأ يرى في هلوسات الحمي أطياف زوجته وطفله الذي لم يرَ النور بعد. يخاطبهما بصوت مبحوح خفيض بكلمات غير مترابطة أقرب إلى الهذيان.

التف الشباب حوله وذابت خلافاتهم بلا أي مقدمات أمام الحدث الجلجل، الكل سارح والكل يفكر ما هو مصير الرجل الطيب؟ وهل يؤثر ذلك على مسار الرحلة؟

البعض فكر في الاستنجاد بأحد القوارب المارة على موجات اللاسلكي عسى أن تتواجد عندهم متطلبات الإنقاذ للمصاب ولهم، البعض الآخر تجاوز حيز التفكير وجهر بكلامه إلى

الربان الذي جأر صارخًا: هل جننتم؟ تريدون تعريض كل من في المركب لخطر القبض عليهم والترحيل مقابل حياة شخص واحد؟

التفت إلى الممرض مستفسرًا عن تطورات حالة عمران، فما كان من الأخير غير تنكيس رأسه في إشارة مفهومة، إلا أن هذا لم يحرك ملامح القائد الجامدة قيد أنملة، بل ألقى عليهم ما كان وقعه كألف ألف مطرقة من السماء، قائلًا بهدوء بارد:

حاولنا ما في وسعنا، الجرح سيتقيح ويتلوث أكثر فأكثر وسيفضي في النهاية إلى الموت، ليرتاح المصاب ويريحنا من عويل ومرض، ادعوا له بالرحمة!

وأمر بإلقائه في البحر!

تبادرت خواطر التمرد في أذهان البعض، بالأخص أصدقاء المصاب الجدد، لكن صوته المتألم ودماءه التي أفعمت الهواء برائحة معدنية ذكّرتهم بعاقبة التمرد، فانطفأت الجزوة واكتفوا بهمهمات خائبة يغلفها الاعتراض ويبطنها الخنوع، فما كان من القائد إلا أن قطع حبل التلاسن بأن أمر صاحب الأنف الأفطس واثنين آخرين توسّم فيهما قوة البنية، بحمل المصاب من فوره وإلقائه إلى قبره المائي، هنيئًا مريئًا لأسماك البحر وجبة عجفاء مجانية.

بعد تحرك بطيء مجبر ألقي المسكين حيًا إلى بحر لا يشبع، هربًا من بشر لا ترحم.

آخر ما لمحه «عمران» كان الشباب دامعو العيون يقفون على جانب المركب منكسي الرؤوس في صلاة صامتة.

وآخر ما سمعه في رأسه هو صوت الشيخ «فرحات» يهدر «الله حي».

وآخر ما تساءلت فيه نفسه: هل تجوز صلاة الجنازة على الحي؟ وهل تقبل لقاتليه الصلاة؟

## سِفر الحنين

يناير البارد، شوارع مهجورة من البشر مسكونة بالريح العاصفة، «نوة» رأس السنة ترسل أمطارها على الرؤوس، أتقافز مسرعة لأختبئ أسفل لافتة محل «تريانون» الشهير في محطة الرمل، المكان مطفأ الأنوار من زمن، كم يذكّرني هذا المكان بعبق وقت لم أعشه، وإن كنت سمعت عنه وشاهدته في الأفلام القديمة بطابعه العتيق وجلسته المحملة برائحة الزمن الجميل كما يقولون، طالما تخيلت أميرًا ما من الأسرة الملكية كان لا بد له من تناول قهوة الصباح في هذا المكان مع قطعة من الكرواسون وهو يخبر النادل النوبي بأنه «نهارك سعيد» ويلاطف حسناء من أصول يونانية قائلًا: «الطقس بديع يا هانم».

أتعجّب من طريقة تفكيري التي تغيرت، تحولت من فتاة بلا مستقبل في قرية محكوم عليها بالفناء؛ تحولت من أداة تستخدم بلا عقل، إلى أداة أخرى تستخدم لكنها تفكر، ربما لعملي مميزات لا تدرك في وقتها!

أفيق من خواطر لا تُسمن ولا تُشبع من جوع، اقترب النهار وقاربت نوبة عملي على الانتهاء فنهاية الليل تعني موعد رحيلي.

لكن لا ضير من بضع دقائق إضافية، لعل الرزق يأتي!

أمشي بتأرجح خفيف لأبعث بعض الدفء في جسدي نحو شارع سعد زغلول، وقفة أخرى سريعة هناك عند محل البن (سفاينوبولو)؛ أعشق رائحته التي لا تنتهي ليل نهار رغم أنه مغلق في هذا التوقيت، البن المخلوط برائحة الخشب القديم، أتيت يومًا وأنا صغيرة مع صديق أبي النوبي العجوز ليحضر توليفة البن الخاصة به، انبهرت يومها بالشكل القديم للمكان كأنه من زمن آخر، أراني صورة ضخمة لمحمد أنور السادات بغليونه وشاربه المميز في قلب المحل يقف على ماكينة الطحن يجهز خلطته بنفسه ضاحكًا.

أنفث دخان سيجارتي في الهواء فأضيف للشبورة قليلًا من البخار وكثيرًا من الكآبة، اعتدت التدخين من وقت لآخر فلا أتمادى، لا خوفًا على صحة بل على مال لا أملكه، أزفر بعضًا من الهم مع الدخان فأخرج اللهيب من صدري.

ليس الموسم رائجًا لعملي مطلقًا، أضم معطفي على جسدي بحكم العادة لا أكثر، صحيح أن الأمطار توقفت إلا أن الطقس ما زال مثلجًا، ولكنه لم يعد يؤثر في جسدي؛ اعتاد كلانا على الآخر.

نظرت إلى السماء، شقشق الفجر، يبدو أنها ليلة أخرى بلا عمل وبلا طعام، أعدل هندامي، أسوي شعري الطويل، أزيل أحمر شفاهي الرخيص، ألقي سيجارتي أرضًا وأسحقها بحذائي البالي مطلقة سحابة الدخان مصحوبة بخيبة أملي، وأهم بالانصراف، أتساءل عما سأفعله، وكيف سأرد عليها عندما تسألني عن الطعام، هزلت وجف عودها ولها كل الحق في ذلك، فهي بالكاد تأكل وجبة واحدة مشبعة يوميًا.

قبل أن أتحرك توقفت تلك السيارة الأنيقة في منتصف الطريق مثيرة حولها المزيد من الضباب، ينفتح بابها ليترجّل عجوز فخم المظهر يتظاهر بإشعال سيجار فاخر، لكني أدرك أنه يطالعني بجانب عينه، فقد اعتدت تلك النظرات المتفحصة لكل من احترف التعامل مع مهنتي، يتظاهر بالثقة برغم القلق الظاهر في تصرفاته، في رعشة القداحة، في تحرك جفونه السريع، ربما هو مستجد، يتقدم نحوي بخطوات متوترة يريد سلعتي الوحيدة.

لكن مني أنا؟

لماذا؟

يبدو ثريًا، بل أكثر ثراء من منطقتي بأكملها، يستطيع بالقطع تأجير من هي أكثر جمالًا وأصغر سنًا مني، لكني بحكم طبيعة العمل والاحتكاك بأنواع البشر اعتدت الغرابة، ربما كان يحب النساء الأقل منه، البعض يفضل الشعور بسيطرته الكاملة على العلاقة ولو ليوم أو حتى ساعة واحدة، ربما ملَّ الأناقة والعطور فاختار تجربة عكس ما أعتاد.

لا يهم، فلولا اختلاف ميول الرجال لمِتُّ جوعًا.

يغالب تردده فيغلبه، يتقدم...

يتفاوض...

نتفق...

أركب إلى جواره...

يسود صمت متوتر، تنتشر أنفاسه ثقيلة مصحوبة بصفير خفيف من وطأة التدخين والسن أو ربما مرض صدري ما... لا يهم، فكلهم في النهاية سواء؛ مهما كان سنهم أو مكانتهم لا هم لهم إلا إرضاء نصفهم السفلي، الأهم عندي هو أن يأخذ مطلبه وأنال مطلبي، علاقة تجارية بحتة فقدت أي معنى آخر في داخلي، اعتبرت نفسي منذ زمن مقدم خدمة مثل أي شركة، مجرد عرض وطلب!

والمنافسة شديدة بالمناسبة!

لولا الطقس السيئ لوجد من تقدم له نفس الخدمة بسعر منافس، ربما وجب إضافة خدمة التوصيل يومًا ما، لماذا يأتي لي الزبون، كل ما عليه هو الطلب وأنا أذهب إليه.

سعر المنتج ثابت، سعر الشحن ثابت، تصلك أينما كنت.

لكن الحقيقة أن سعر المنتج غير ثابت، بل يزداد نزولًا يومًا بعد يوم!

ما بالي اليوم أسرح في الكثير من الخواطر التي لا تجدي نفعًا.

التفتُّ إلى جواري وانتبهت إلى أن أعصابه مشدودة لأقصى مدى، متوتر لأقصى حد، قطرات العرق تحتشد على منابت صلعته الواسعة وأعلى شاربه الكث رغم برودة الأجواء، الغريب أنه لا يُقدِم على أي خطوة من المعتاد، الطبيعي أن يطمع الزبون في عينة مجانية للتجربة، لكنه صامت ولا يلعب دور محترف النساء.

انتقل لي التوتر، نظراته الجانبية عجيبة كأنما يخشى مواجهتي، أذنه محمرّة كطفل لوّث ملابسه ويخشى تقريع أمه، الاضطراب يرسم بصمته على ملامحه المتغضنة، ينظر أمامه بثبات متعمَّد متحاشيًا نظراتي، نوع نادر لم يمر بتاريخي كثيرًا، فكما نكتسب خبرة في التعامل معهم يكتسبون هم أيضًا خبرة التعامل معنا؛ فيصبحون أكثر قدرة على تجاذب أطراف الحديث، كهروب من فكرة أننا مؤجِّرين، لا نذهب معهم إلى آخر الدنيا من أجل الحب أو حتى الإعجاب؛ فقط المال.

أما هذا فتبدوا عليه علامات عدم الاحتراف، على الأرجح أنا تجربته الأولى خارج نطاق الزواج.

عجيب، في سنه هذا وثرائه الواضح لم يتعامل مع أمثالي قط!

أفاقتني من أفكاري السوداء وقفته بالسيارة بقدر من الخشونة أمام بناية فاخرة بمنطقة رشدي على البحر، يشير برأسه نحو المدخل، إذًا وصلنا وينتظر نزولي أولًا. لكني أتسمَّر مكاني، فلقد تعلمت أن آخذ حذري وألا أكون ساذجة، مررت بالكثير مما أكسبني سوء الظن، في أوقات أجد مجموعة من الأصدقاء يتناوبون على الوليمة، ويكون السائق هنا مجرد خدمة توصيل أخرى، ذلك وغيره من المفاجآت غير السارة.

من تصلُّبي فهم أني لن أتحرك، فترجَّلنا معًا، الرياح تعبث بملابسي ورذاذ البحر يحيل الرؤية إلى عدم، الطقس في هذه المنطقة يكرهني بشكل شخصي، كأنما علم بشكل ما أني أكثر انحطاطًا من مجرد المجيء إلى هنا، أزبد إحكام معطفي وأعدل نظارتي الشمسية المقلَّدة، فهي مهمة لإخفاء الملامح، ندخل البناية بحذر رغم أن البواب يغفو في سلام

بصوت غطيط مسموع لأسماك البحر، يسبقني صاعدًا الدرجات القليلة المؤدية إلى المصعد دون النظر للخلف، أرى أذنه تزداد احمرارًا؛ يبدو أن لحظة المكاشفة اقتربت.

ننطلق بالمصعد للأعلى، يدس يده في جيبه ويخرج سلسلة مفاتيح، بيد مرتعشة من الانفعال يفتح باب الشقة الأنيق وندخل، يتحرك بألفة واضحة مع المكان، إذًا فهذه شقته بشكل ما، لا يهم المكان في الغالب، فعلتها مسبقًا في أماكن لم أكن أتصورها، بداية من الصالون الخلفي لسيارة ملاكي، مرورًا بعربة نقل مفتوحة في مكان مهجور، من مقالب القمامة حتى القصور في زيزينيا.

الكل عشق ذلك الجمال ولم يجلب لي سوى الشقاء.

أنا مجرد غلاف جميل مبهر لحلوى مسوَّسة، برودة مشاعري تجعل مني تجربة لمرة واحدة ولا سبيل إلى التكرار، لا أمتلك قسمًا حتى الآن لخدمة ما بعد البيع، ولن أمتلك أبدًا على ما يبدو، أنا المثال الأشهر للغش التجاري، إعلان جميل لمنتج ما، ممتاز في الشكل، خرب المواصفات، يصيب المستخدم بخيبة الأمل لا نشوة الانتصار.

عيني تبحث عن الطعام والخمر رفاق مهنتي الأهم، يقرأ نظراتي فيغمغم باختصار: بالمطبخ.

أتحرك في حيرة خفيفة من المساحات الغريبة على قدمي، يشير إلى آخر الرواق، أهرع لإحضار المطلوب، خلال الذهاب تدور عيني في المكان بسرعة أولًا من باب الفضول، وثانيًا لتجنُّب مفاجآت غير محسوبة، فلا ضير أبدًا في المزيد من الحذر، تأثيث الشقة يجذب النظر بالفعل، فهي ليست فخمة للغاية كالقصور لكنها توحي بارتفاع مستوى المعيشة بطريقة ما، تعبر عن بعض المرتبات المريحة كموظف كبير في بنك ما، رجل أعمال في شركة متوسطة، لدينا ستائر مزركشة وأثاث أنيق، كل شيء مرتب بعناية، بذوق جيد، كل ركن يؤكد وجود سيدة ما في هذا المكان، لمسات المرأة ظاهرة في كل ركن.

لكن أين هي؟

المزيد من اللا يهم، كم من المرات تناوب على جسدي متزوجون!

من ملَّ حياة زوجية رتيبة ويسعى إلى التغيير.

من اعتقد أنه شاب قبل أوانه وتجربة جديدة مع امرأة صغيرة ستعيد الحيوية إلى مفاصله المتيبِّسة.

من يريد تجربة مذاق آخر، فقد ملَّ نفس الثقب ولا يريد التورُّط في زيجة جديدة، إذا

فلنكتفي بمغامرة ساخنة تحرك الدم في العروق، الأمثلة لا حصر لها فالرجل تربّى على حب ما بين أقدام النساء، ولتبرير عشقه يخترع الحجج لتجنّب تأنيب الضمير.

أعود محمّلة باللحم البارد المقطّع إلى شرائح، جمبري كبير الحجم يقارب كف اليد غارق في مرق أحمر، أطباق متعددة من التسالي المختلفة لوازم المشروبات التي لم أجد فيها أي بخل، أحضرت زجاجة عملاقة من الفودكا ذات الغطاء الأزرق؛ صحيح أني لا أستطيع فك حروف الاسم، لكن طول الخبرة مكّنتني من تمييز الأنواع بمجرد النظر، فلم تعد البيرة المحلية أو الأجنبية حتى تؤثر بي، أحتاج إلى الأنواع الأقوى، وفي هذا لم أجد إلا الفودكا الروسية والتاكيلا المكسيكية.

أحتاج إلى جرعات عالية من الكحول أضيفها إلى جمودي الطبيعي حتى أطفئ أي بقايا من كرامتي، وأتقبّل نزوات السادة، لا بد من الطاعة بلا نقاش، فأنا ملكه طوال مدة الإيجار، برغم ذلك ما زال البعض يملك القدرة على التجديد، ما زلت أكتشف ما في النفوس من صديد ينفجر عندما يشعر السيد بقوة السيطرة.

أنتهي من رص المائدة بشكل يفتح شهية السيد، فلا أريد له تعكّر المزاج، يجلس على طرف المائدة بتؤدة، يبدأ في تناول الجمبري بالشوكة والسكين في أناقة تلقائية، يدعوني إلى مشاركته لكني بحكم الخبرة أعلم أني لن أستطيع مجاراته في طريقة الأكل مما قد يثير اشمئزازه فامتنع بلطف، يشير إلى الزجاجة فأصب له ولي كأسين.

يبدو أنه محترف، فقد تجرّع كأسه دفعة واحدة، يغمض عينيه مع الجرعة المكثفة مرجعًا رأسه إلى الوراء والسائل الحارق يكوي جوفه، يعتدل بعينين محمرتين، ينهض بقليل من الترنح، وتكون تلك إشارة لي بأن أشرع في رفع الأطباق استعدادًا للمرحلة التالية من برنامج سهرة اليوم.

أعود من المطبخ لأجده قد ملَّ الانتظار، لعب الحماس مع الخمر برأسه ورحل معهما وقاره الظاهري فتجرّد من نصف ثيابه العلوي ليظهر شعر صدره الشائب على جسده المجعد، مجرد عجوز بائس يسعى لتجديد الماضي!

بيده أظلم الغرفة... يريحني الظلام، يلائم روحي السوداء.

ينزع ملابسي بعنف... يعشق الشراسة على ما يبدو، وهذا جديد، فلم يظهر عليه ما يوحي بأنه من ذلك النوع، لكن لا يهم، فالعبد لا يملك إلا الطاعة.

يخرج من خلف الأريكة سوطًا طويلًا كليلتي، أسود كأحلامي، تفوح منه رائحة الزيت المنقوع فيه منذ دهر حتى تشرّبه.

إذًا لذلك كان متحفظًا، خاف هروبي لو علمت بمزاجه المنحرف، فلتطمئن، أنا أوافق على أي شيء وكل شيء.

يوسع كرامتي قبل جسدي بالضربات وكأن ما زالت لديّ كرامة!

جسدي مخدّر وروحي بليدة، فلن أتألم الآن لو كنتَ تستعذب ذلك، ولكني أدرك من ملامحه المستثارة إلى أقصى حد أنه ينتظر ذلك، لعل ذلك سبيله للذروة، هنا بدأت في رسم ملامح توجُّع مزيفة من باب النفاق لعل السيد يرضى.

تزداد ملامحه وحشية مع تألُّمي الذي تحول إلى حقيقة، سكوتي وتقبّلي المستكين أطلق فيه كل الرغبات المكبوتة فرفع من حدة الضربات وسرعتها، بدأ يتفنن في التركيز على مناطق الفتنة في جسدي كأنما يعاقبني على أنوثتي.

أخيرًا ينال منه التعب، يسقط على الأريكة الفخمة جسده يلتمع من العرق، متلاحق الأنفاس يراقبني بعين نصف مفتوحة وأنا أتكور حول نفسي وعيني تدمع.

أشار إليّ بإصبع مهتز نحو الزجاجة الملعونة، فأمسح الدم عن شفتي، ألملم قطع ثوبي، أجهز له كأسًا جديدًا يشربه مترنحًا من الإنهاك والنشوة.

ثم يعاود الكرة مرارًا وتكرارًا منذ شروق الشمس حتى المغيب.

طعام...

سوط...

دماء...

مع بداية انبثاق الدماء من ضربات السوط حدثت المعجزة، وقام الميت من قبره عفيًا منتصبًا كأنه شاب دون العشرين، قلبني على وجهي وانقضّ يدكُّني بقوته التي بُعثت من ضعفي، تدور الغرفة بي فلا أدري أين اليسار من اليمين، كل ما أعلمه هو الأسفل، والأسفل فقط.

فأنا أسفل الغرفة على السجاد الفخم.

أسفل أنواع البشر.

أسفل منه مستسلمة لدخوله المتتالي إلى روحي، حتى وجهي إلى أسفل فلا أجرؤ على الاستدارة إليه، لن يطيقني وأنا مبعثرة هكذا، ربما غضب مني.

لن أطيق رؤيته يهتز فوقي، ربما سأتقيأ ما شربت وبالتأكيد هذا سيغضبه، ولا همّ لي إلا رضاه!

أخيرًا زهد السيد في جسدي المفكّك كعروسة خشبية قطعت أوتارها بعد أن صبّ داخلي شهوته، قام عني، أحكم بنطاله، مد يده إلى محفظة جلدية، أخرج منها مقابل خدماتي مضافًا إليه مكافأة نهاية الخدمة، وألقاه في وجهي، ارتسمت في أعماقي ابتسامة لم أنجح في رسمها على وجهي المتورم، ولم لا أبتسم، فقد استحققت مالي وعملت من أجله جهدي كله، لكني لم أكتفي بالمال!

بعين موارية الجفن نظرت إلى بقايا الطعام نظرة ذات معنى؛ فهمها السيد فأشار لي بأن آخذه باشمئزاز وأشاح نحو الباب.

غسلت وجهي في محاولة لمداراة الكدمات والجروح، جمعت بقايا العطية التي نفحني إياها في كيس أسود يخفيها عن أعين الجائعين من أبناء منطقتي، فمنهم من لم يرَ اللحم منذ أن فطمته أمه، نزلت من البناية أترنح، لا من الخمر التي فقدت مفعولها، بل من السهر وآلام ليست بالقليلة في أجزاء جسدي المتفرقة.

***

أعود إلى منطقتي، أنزل في القارب الخشبي الأزرق، رائحة اليود المنعشة تشفي جراح وجهي، رذاذ البحر يتناثر على ملابسي فتسري الحياة في عروقي، حتى البحر هنا تختلف لمسته على وجهي عن ذلك البحر الخاص بالسادة، بحرنا أكثر حنوًا، يفهمني جيدًا، ويعرف لماذا فعلت ما فعلت.

يقودني عبره (حمو) نقّالنا الأصغر فقد ورث عن أبيه (عبد المطلب) القارب، واستمر يصونه ويعتني به، ينظفه دومًا ويزيل قطع الخشب الصغيرة الناتئة من جسد القارب حتى لا تجرح أحد، يصر على طلائه كل عام حتى يحتفظ برونقه ولا تدمره ملوحة البحر وأمطار السماء.

كل هذا العمل اليدوي أكسب جسده النحيل قوة واضحة، فتجلّدت عضلاته وخشنت أصابعه واكتسب أعوامًا مرهقة فوق أعوام مراهقته، صوته اخشوشن، والزغب لطّخ ما أسفل أنفه، وحب الشباب ملأ وجهه، الرغبات الفائرة طفحت من عينيه عندما مد يده يساعدني على الركوب وهو يختلس النظر إلى ما أسفل معطفي قائلًا: (اتفضلي يا دكتورة).

ذلك هو لقبي من قِبَل أهالي المنطقة، فهم يعلمون أني أمارس التمريض، لكنهم لا يعلمون أني تركته لأنه لا يبتاع معظم السلع، في حين أني اكتشفت جسدي كسلعة!

بدأ الأمر في المستشفى حيث عملت؛ تعرضت لكافة أنواع التحرش كأمر واقع، فتاة جميلة تقبل العمل وحيدة ولا تتضرر من النوبات الليلية طمعًا في أي زيادة ممكنة للمرتب، لماذا لا يحاول معها الطبيب المناوب والممرض الزميل بل وحتى حارس البوابات؟

قاومت بقوة في البداية، قاومت بعنف، بكل ما أملك من بقايا إحساس.

ذهبت باكية من القهر يومها إلى (سناء) زميلتي في القسم التي تماثلني سنًا، استمعت لشكواي بصمت، ثم وجدت ردها في قمة اللا مبالاة، فكانت الصدمة أن ذلك حال كل الممرضات الشابات، وعليهن الاختيار إما التجاوب أو الرفض الذي يترتب عليه التعرُّض المستمر إما للخصم المتكرر بسبب هفوات لا تُذكر، أو ساعات عمل إضافية مرهقة، وغيرها من المضايقات التي قد تصل إلى حد الطرد المسبَّب أو غير المسبَّب من العمل.

ثم مالت على أذني وقالت بصوتها الناعم: ولكن لماذا الرفض؟

فهمت قصدها فانطلقت ثورتي، لكنها هدَّأتني وتركتني لنفسي توسوس لي هي الأخرى، قاومت كلتيهما في البداية، لكن مع التضييق عليَ من كل من في المستشفى، وتكرار التحرشات وكلمات سناء، قررت التجربة؛ فليس لديَّ ما أخسره!

ومن ثمَّ اكتشفت أن تساهلي مع مسكة ثدي أو مسحة مؤخرة يتيح لي مزايا عدة، نوبات عمل أقل في أقسام خفيفة، مكافآت بسيطة، وجبة ليلية إضافية وغيرها.

ولكن هل الثمن مناسب؟ كانت تلك كلمات سناء المسمومة التي لا تخلو من الحق.

طالما اختيار البيع متاح، فلنبحث عن المشتري الأعلى سعرًا.

فجربت الاختفاء خلال النوبات الليلية بعد التنسيق مع الطبيب المناوب، ثلاث ساعات على الأكثر بعد منتصف الليل أغيب فيها عن المستشفى -بعد أن يأخذ الطبيب ما يشاء بشكل مقدم بالطبع- وأنطلق إلى موقعي المحبَّب في محطة الرمل، وأعود بعد ذلك لأستكمل النوبة كالمعتاد وقد تحصَّلت في تلك الساعات الثلاث على ما يعادل شهر من مرتب المستشفى.

ثم فطنت إلى أن تلك الكشوفات الخاصة أكثر ربحًا، فأقلعت عن العمل في المستشفى إلى الأبد، وإن كنتُ قد التزمت بمواعيد العمل الرسمية أمام أهل المنطقة، فمن أجل شهرتي كممرضة يغفرون لي مواعيد عودتي الغريبة، ذلك إلى جانب أني لا أتأخر عن تقديم الخدمات الطبية البسيطة لمن يطلبها، هذه تريد حقنة مسكن، وهذا يحتاج إلى تضميد جرح بسيط بسبب مشاجرة بالسلاح الأبيض، فكثيرًا ما تحدث مثل هذه المشاحنات تافهة الأسباب

عظيمة النتائج، فتكثر الإصابات ولا مجال لمستشفى يحقق في الدوافع، هنا يأتي دوري الذي أتفانى في أدائه صامتة بلا أسئلة ومتطوعة في كثير من الأحيان بلا مقابل، لهذا يبجلني الجميع الآن بعكس ما كان عندما كنت خادمة أنظف البيوت.

أتجه إلى بيتي البسيط وأنا أعرج قليلًا من ضربات العجوز والأرض غير الممهدة التي أغرقتها السماء بالأمطار، فتحولت الأرض الرملية إلى طينية زلقة، أجاهد بشدة لحفظ توازني فالألم يمزق جانبي الأيسر، وضربات قلبي تطنُّ في أذني حتى أطارت آخر آثار الخمر من رأسي، استند إلى حائط قريب حتى أستعيد انتظام أنفاسي وتصفي الغشاوة عن عيني، بعد حين أنتصب واقفة وقد تحسنت قليلًا، أسرع السير في طريق العودة فقد تأخرت عليها كثيرًا!

برفق أفتح باب منزلي الأخضر، أملًا في أن تكون نائمة، صحيح أن وضعي بين الجيران الآن أفضل، مما يسمح لي بتركها لديهم تلعب مع أقرانها، و«نور» بالتحديد دائمًا ما ترحب بها، لكني لا أرغب في الإثقال عليها، فرغم لسانها السليط ونظراتها الكاشفة المعرِّية، كلامها المحمَّل بالعديد من المعاني -كثيرًا ما توحي لي بأنها تعلم عني الكثير ولا تبوح، أشك أنها حتى تعلم طبيعة عملي الحقيقي- لكني لم أرَ منها يومًا ما يسوء، بل على العكس، دائمًا ما كانت هنا؛ موجودة عندما أحتاجها، أشعر بأنها تراقبني في كل وقت، عندما أدير لها ظهري نظراتها تخترقني من الخلف، عندما أتحدث معها وجهًا لوجه، عينها تلمع كأنها تكلم روحي لا جسدي، أعلم أن ما أفكر فيه يثير السخرية لكني أصدقه.

تتيه أفكاري بمعاودة الألم الحارق للهجوم، يحرق صدري من الناحية اليسرى، لكني أتماسك وابتسم لها وأباعد بين ذراعي.

فها قد أتت وخيبت ظني كالعادة، لا يطيب لها النوم قبل تطمئن على عودتي، وكأن الحال معكوس هي أمي ولست أنا، تقابلني بقبلات الترحيب المعتادة.

ابنتي (مريم) ذات العشر سنوات، قرة عيني الجميلة؛ امتلكت الكثير من ملامحي فتكاد تطابقني، ما عدا اختلافات طفيفة، فشعرها أكثر غزارة وطولًا كالليل على كتفيها، عيناها شديدتي السواد كحيلة بلا كحل، لكنها شاحبة قليلًا، فهي ما زالت تتعافى من نزلة شعبية حادة ألمَّت بها نتيجة الأجواء الباردة التي يتم نقعنا فيها يوميًا طوال الشتاء.

هذا ما أخبرني به ذلك الطبيب الشهير في (لوران) بعد أن كلفني كشفه أسبوعًا من عملي الليلي، سبعة أيام من بيع لحمي حتى أعرض حبة قلبي على طبيب يعلم ما يفعله، وأقدر على تحمل نفقات العلاج وأشعة الصدر في المركز الخاص -الباهظ الثمن عادي النتائج- الذي يصر

الطبيب على ألا يتعامل مع غيره، لكن إما هذا أو التأمين الصحي المعيب!

صحيح أني أملك القليل من الخبرة الطبية لكني لا أستطيع المجازفة مع مريم، فلم يعد باقيًا لي في هذه الدنيا سواها بعد ذهاب عمران بلا عودة، توقفت عن التفكير في مصيره منذ زمن، فأغلب الظن أنه قد تزوج من إيطالية حتى يضمن بقاءه هناك في أرض العملة الصعبة.

نسينا ونسيناه.

أما أمي وأبي فلم أعد أعلم عنهما أي شيء، فبمجرد انقطاع المدد من جيب عمران حتى قلت الزيارات وتحجّج الجميع بالانشغال في هموم الحياة، ثم انقطعت عندما أتت أمي تخبرني بنجاح أبي في الحصول على بيعة -أقصد زيجة ممتازة- لأختي الصغرى المراهقة من ثري عربي يسكن في بلاد البترول.

من ضمن بنود الصفقة أن يأخذ باقي أفراد العائلة معه إلى بلاده ويتولى الإنفاق على الجميع، على ما يبدو أن العريس العجوز كان متعجلًا فوافق على الشرط غير العادل، وارتحل الجميع يقيمون في عهدة الكفيل، يأكلون من عرق ابنتهم الطفلة في سرير العجوز المتصابي.

تساءلت وقتها: ما اختلافها عني إذًا؟

أنا وهي نمارس نفس المهنة، الفرق أني أغير الزبائن يوميًا أما هي فحصلت على عميل دائم!

لكن قبل رحيلهم كأنت القطيعة الكبرى!

فور علمي بتلك الزيجة اشتعل الغضب في نفسي، رفضت أن تلاقي أختي نفس المصير، البيع في المزاد؛ ذهبت إلى أبي وألقيت عليه كل ما كان في نفسي من إحساس بالظلم، تحطم حلم كل فتاة في رجل يحتويها لا يشتريها.

ما زلت أذكر رد فعل أبي البارد يومها، كل ما فعله أن رفع عقيرته بالنداء على أختي وهو يشعل سيجارة طويلة من علبة أمريكية مخالفة لعلبته المصنوعة من الورق المقوى الذهبي الأشهر، أخرج سحابة بيضاء دسمة من منخاره وسأل أختي عن رأيها في زواجها.

وكأن دلو ماء مثلج سقط على رأسي في منتصف ديسمبر، أعلنت أختي بلا أدني تردد أو تفكير موافقتها بل ورغبتها الشديدة في ذلك، ولم تكتفي، بل هاجمتني بشدة ومنعتني من التدخل في شأنها.

ما زالت صورتها منطبعة في رأسي وهي تضع يدها في وسطها، ترفض سماعي وتكيل لي

من الكلمات ما لم أسمعه منها في حياتي، وأبي ينفخ المزيد من دخان سيجارته الأبيض الكثيف في وجهي.

أما أمي فكالعادة لم تتكلم، بل نكست رأسها في موافقة صامتة.

هنا كانت اللحظة التي أدركت فيها.

أدركت أن أولئك الناس ارتضوا الذل، وافقوا على اتفاق يسمح للعريس الغني بأن يضاجعهم جميعًا، أختي في السرير كزوجة، والبقية في كل نواحي الحياة كخدم.

لكن قبل أن ألقي ما في جوفي عليهم عاجلني أبي بأمره لباقي إخوتي بطردي خارج المنزل محملة باللعنات قائلًا: لم تعد لي ابنة تسمى حنين، توفيت في يومنا هذا!

نعم مت.

لكن يوم قبلت بيعي ولم أعترض، توفيتم أنتم اليوم عندي.

الكل انفضوا من حولنا، ولم يعد لديّ أنا و(مريم) غير الاعتماد على نفسينا، وليبقى الحال على ما هو عليه، كل ما أستطيع هو تسهيل حياتها قدر المستطاع.

استبدَّ الجوع بوحيدتي فشدَّت من يدي بقايا إهانة أمها، انتبهتُ إلى أني بالفعل لم أترك لها أي طعام في المنزل لأنه ببساطة لا يوجد طعام، فنحن حرفيًا نأكل قوت اليوم بيومه.

تركت لها ثمن لحمي، فليس لها ذنب فيما نحن فيه، ما هي إلا ضحية مثلي تنتظر دورها لتُطحن بين ضروس الدنيا، أتجه إلى الحمام لأغسل أوساخ المستأجِر عن جسدي، ما زالت صورته عالقة بذهني ورائحة عرقه ملتصقة بخياشيمي فأكاد أتقيأ، ينتابني الدوار وأترنح، فأرغم نفسي على التماسك، ألقي بقايا ملابسي على الأرض، أفتح ماسورة المياه الصدئة، ينهال على جسدي المكدود ثلوجًا على شكل ماء.

تنهمر دموعي وتختلط بمياه طهارتي، للمرة الأولى تنتابني عاصفة من البكاء خلال استحمامي عندما أعود من مناوبتي، أشعر بأن دموعي الساخنة وسياط الماء البارد المتساقطان على جسدي يطهرانني من الذنوب.

ما يحدث اليوم لي غير طبيعي.

اعتقدت دومًا أن كرامتي ماتت ومشاعري تبلَّدت.

أخرج لأجد ملاكي قد أكلت وشبعت فنامت على الطبلية العرجاء، جسدي المكدود لا يعطيني القوة اللازمة لأضعها على سريرنا الوحيد إلا بعد عناء.

أجهز قطعة خضراء من الحصير لصلاة لا أدرك ما هي.

أفتتح.

أكبّر...

أقرأ ما أذكره... فالذهن ملبّد بالضباب من السهر والإجهاد.

أركع...

أرفع... أترنّح... أتماسك... أكمل.

أسجد...

جبهتي تلامس الأرض تسبقها دموعي النادمة وابتهالاتي، أدعوه أن يغفر لي، فهل يتقبّل مني؟

يعلم أني لم أجد سبيلًا آخر؛ فقد تخلى عني الجميع.

أشعر بإرهاق شديد، لا بد من المقاومة، فيجب أن أعود لعملي!

استغفرت ولمتُ نفسي حين تذكرت عملي النجس في صلاتي.

قلبي يدق كالطبل في صدري، الهواء يتثاقل والدوار يدوخني، نوبة ألم رهيبة تشل ذراعي وكتفي الأيسر مثل ضربات السكاكين، أعصابي تخونني فلا أقوى على القيام من سجودي.

أتلعثم في الكلمات فلا أدري هل أبتهل أم أدعو أم أقرأ.

على جبيني العرق يحتشد وبدموعي يختلط، الرؤية تهتز، الدنيا تظلم.

الوعي يرحل، الأزمة القلبية تقترب، أدركها بالخبرة.

إنه الموت يدنو، روحي تطفو.

يشيّعني الشيخ فرحات بصياحه المعتاد من بعيد: الله حي!

بوجداني يتردد السؤال بخفوت خجلان:

(هل لمثلي نصيب من حسن الخاتمة؟)

## - 10 -

# سِفر النور

مرت من السنوات ست، ومن الأيام ستة، ومن الساعات ست منذ رحلت حنين!

أشرقت الشمس وغابت عددًا لا يُحصى من المرات، استحالت الأيام إلى تراب وتغضّن ورق الأشجار متساقطًا، مات أناس وولد آخرون، تغير ما تغير في المنطقة إلا هي.

إلا نور؛ ما زالت على حالها، لم يتجعّد وجهها، ولم يهدأ لها لسان، ما زالت تراقب وتسجل كل ما يحدث في أرشيف ذاكرتها الخارق و...

تستخدمه عند الحاجة.

تستيقظ مبكرًا، دائما قبل مريم -الحق أن أحدًا لم يشاهدها نائمة مطلقًا- تجلس مثل كل صباح تراقب شروق الشمس على الدكة الخشبية أمام منزلها، الذي هو بمثابة محرابها الأثير، قلّما تتحرك منه إلا للضرورة، تحتسي الشاي الساخن في كوب زجاجي مشروخ تتصاعد منه الأبخرة بكثافة، غير أنها تمسك به بلا مبالاة كأن النار لا تحرقها، تشرب منه رشفات بطيئة بطريقة غريبة، تشمُّ أولًا الكوب بأنفاس عميقة فيملأ القرنفل خياشيمها، ثم تطلق زفيرًا بطيئًا يتصاعد معه البخار من فيها، تتبع ذلك برشفة كبيرة وهي تغمض عينيها مع الاحتفاظ بالمشروب أطول وقت ممكن في فمها، تترك بعدها السائل ينساب ببطء إلى مؤخرة لسانها وهي تُرجِع رأسها إلى الوراء بعض الشيء مع اختلاج جفنيها من النشوة، يخيل للرائي من بعيد أنها تبحر في ملكوت آخر، في كون آخر تسبح فيه كواكب بديلة يسكنها أناس آخرون، يحتسون الشاي المريب هذا.

مع مرور الأيام تعلمت مريم بالتجربة ألا تقاطع تلك الجلسة وتترك نور لتنتهي من كوبها حتى الثمالة، وإلا فهي غضبة لا تبقي ولا تذر، يرى الناظر مريم الشابة البهية وقد كبرت، مر عليها الزمن بأحسن ما كان؛ فزادها حسنًا على حسن، ورغم كل ما قاست لم يمحُ البراءة من عينيها الواسعتين.

تقف بعيدًا مثل الطود تستند إلى مدخل البيت ملتحفة بشال من الصوف الثائك يبقيها دافئة في البرد، تنتظر مهما طالت مدة الصبر حتى تضع (نور) كوب الشاي الفارغ على الأريكة الخشبية بجوارها، فتكون تلك الإشارة لتتحرك (مريم) إليها؛ تلقي تحية الصباح وتتلقى تعليمات اليوم المتجددة.

تبدأ مع استيقاظ الدجاج في الحظيرة الصغيرة فتنظفها وتحصد البيضات اليومية، بعد

أن تضع لهم الماء والخبز المبلول مصحوبًا بما تبقى من طعام الأمس، ثم تنظف الدار نفسها - إن صحّ عليها لفظة الدار- فهي مجرد غرفة متسعة تصلح للجلوس والطعام معًا، يتوسطها مركز الكون من وجهة نظر نور، كرسي ضخم جميل إلى درجة البهاء لا يتناسب مع أثاث المنزل المتواضع، له مقعدة من القطيفة الخضراء، ظهره عريض مرصع بالصدف، حوافه من الأرابيسك اليدوي بديع الصنع يختلط فيه الأبيض والبني بتناغم فيخطف أنفاس كل من تقع عينه عليه، تحرم نور على مريم مجرد تنظيفه وتكن له منزلة خاصة ولا تجلس إلا عليه.

ما إن تخرج من الغرفة حتى تجد ممرًا صغيرًا ثم مطبخ أصفر يكفي بالكاد لوقوف شخص واحد ويحتوي الأساسيات، موقدًا وثلاجة إيديال قديمة، يجاوره حمام ضيق، يليه غرفة واحدة كبيرة تم قسمتها بالطوب الأحمر مع وصول مريم للبيت.

فمنذ وفاة أمها ولم تجد لها إلا هنا ملجأ، تعهّدتها «نور» بالرعاية الكاملة، ورفضت بشكل قاطع أي محاولة لضمها إلى الأسر المحيطة ببيت أمها على سبيل العطف أو الإحسان، حتى عندما تدخّل كبير المنطقة صابر الملاح شيخ الصيادين الآمر الناهي الذي لا صادّ ولا رادّ لكلامه في كل شؤون القرية، تدخّل ورجع خائبًا، فهو القائد في كل مكان في القرية إلا هنا، فعند نور يتوقف نفوذ الكل ويستمر قولها وحده.

الكل تعجب وخبطوا كفوفًا بالكفوف، نور شخصية تنفر من التواصل مع البشر بأي شكل من الأشكال، بل قد تصل إلى حد الاشمئزاز منهم والترفع عنهم، لا تخالط الجيران، تعلم كل شيء عن الجميع، لا يعلم عنها أحد أي شيء.

المدقّق في نظراتها للجموع يكاد يجزم أنها تحتقرهم وتنظر لهم من علٍ.

لماذا نسخت الآية إذًا؟

ما الذي دفعها لتغيير القاعدة لتتبنى طفلة يتيمة الأبوين في مقتبل العمر لتسكن معها، فتاة بتلك المواصفات قطعًا تحتاج إلى رعاية ومتطلبات خاصة؟ ما الذي دفع نور لتلك التضحية؟

أسئلة كثيرة لا يعلم إجابتها يقينًا إلا هي.

حاول الجميع إثناؤها عن تلك الفعلة، تجمعوا في بيتها، ساقوا إليها المبررات المقنعة، هذا لديه من الأطفال ما يوازي «مريم» في السن فليأكلوا معًا ولتعيننا الأقدار عليهم، أما ذلك فميسور الحال نسبيًا بالمقارنة مع باقي الجيران وامرأته عاقر تفيض بمشاعر الأمومة وتتمنى لنفسها طفلًا قبل المشيب، فستعتبر اليتيمة هدية السماء.

رغم كل الإقناع أخرستهم جميعًا، وقفت وسطهم تشع سطوة وهيبة، فسكتوا كأن على رؤوسهم الطير، وزّعت عليهم نظراتها الحادة مصحوبة بفضائحهم وخبايا بيوتهم، فالأول يطلق الأطفال في الأزقة ليمارسوا التسول على نطاق واسع في الأحياء الأكثر رقيًا، ويحملون له عند المساء الغلة اليومية مصحوبة بما تيسّر من الطعام المتصدّق به، ورغبته في الفتاة لا تتعدى استثمارًا لزيادة الأرباح، فكلما كثرت الأيدي الممدودة زادت العطايا الممنوحة.

أما الآخر فامرأته ليست بعاقر كما يُشيع، بل هو الذي يعافها، لا لعلة فيها بل فيه، ثم ابتسمت بركن فمها بخبث وأطلقت تلميحًا أو اثنين عن حبه لمصادقة الأطفال وحميمية علاقته بصبايا وفتيان الحي!

لم تقلها مباشرة ولكن الكل فهم، طعنتهم التلميحات في مقتل فالكل يعلم والكل يسكت عن فضائح العجوز المخبول، طالما تخرسهم العطايا المستترة على هيئة قروض حسنة لا ترد، أو الهدايا العينية مختلفة القيمة؛ فلكل فم الوجبة التي تخرسه، وطالما الفم يطعم فلنغض البصر وندعو له بالهداية.

كلا.

أصدرتها قاطعة لن يأخذ مريم هذا أو ذاك، أعلنت ألا كلام بعد كلامها، وصاحت بشفاه مزمومة وكلمات ملغزة: أوصلتُها إلى الدنيا وستظل معي حتى أوصلها منها!

ران الصمت على المكان إلا من صوت التنفس الكظيم، الغريب أن أيًا منهم لم يكذّبها، لم تأخذه الحمية للدفاع عن نفسه، بل نُكّست الرؤوس ووقفت هي شامخة في المنتصف، لا يجرؤ أي من الرجال مجرد رفع رأسه في حضرتها.

العجب كل العجب!

كل واحد من هؤلاء الرجال يصنّف كأحد كبار المنطقة، إما بالمال أو النفوذ، لكنهم أمامها مثل الخراف، لا يجرؤ أي منهم على مجرد الاعتراض على كلامها ولا حتى بهمهمة خائبة.

من هنا حسم النقاش والأمر برمّته كما وقر في نفس «مريم»، التي كانت تراقب الاجتماع من نفس وقفتها الأثيرة عند مدخل المكان، وبالفعل تمتم الواحد تلو الآخر بعبارات مبهمة ولملم كرامته المبعثرة ثم انسحب يجر أذيال الخيبة، حتى خلت الغرفة من سواهما.

«مريم» و«نور».

ما زالت «مريم» تذكر ذلك اليوم كأنه بالأمس القريب، لم تخف من المرأة الاسطورية التي طردت من يهابهم الجميع، ربما كانت صغيرة السن فلم تستوعب كل ما حدث، لكنها فهمت

أن تلك السيدة فازت بحيازتها حتى أمد بعيد ولن تتخلى عنها، تكونت داخلها سحب كثيفة لا تختلف عن شتاء الإسكندرية الملبد بالغيوم؛ فهي لم تتجاوز بعد صدمة موت أمها المفاجئ، ولم تستوعب أبعاد الكارثة التي حلت بها فتركت الأقدار تحرك مركبها كيفما تشاء.

منذ اليوم الأول حافظت «مريم» على المسافة بينهما، دائمًا تبقى بعيدًا عنها في طرف أي مكان يجمعهما معًا، في أقصى ركن من أركان الغرفة تقف، فلا هي قريبة فينالها ما نال الرجال من الأذى، ولا هي بعيدة عن تلقي الأوامر التي تصدح بها السيدة.

تنطبق تلك المسافة على مشاعرها أيضًا، فرغم مرور كل تلك السنين، لم تستطع يومًا كسر الحاجز النفسي بينهما، لم تقترب من «نور» إلا بحساب، مهما ظُلمت من الحياة وقاست الأمرّين لم تبكِ أمامها يومًا فقلبها أغلق بعد موت أمها، وهذه السيدة ليست أمًا بديلة، بل كيانًا أكبر من قدرتها على الاستيعاب يؤويها في داره.

لطالما ترسّخ داخلها هذا الاحساس.

«نور» ليست امرأة عادية، دومًا يحيط بها جدار من المهابة أو هالة من القداسة...

تهابها وتميل إليها، تقدّسها وتشمئز منها معًا.

على الجانب الآخر لم تحاول نور بدورها عبور الجسر ذاته، فحافظت على نفس المسافة، تكونت بينهما علاقة عجيبة، ليست إنسانية بشكل كامل، قوامها الخوف الظاهر والمحبة المستترة.

لم تسألها عن أبسط الأشياء؛ فهي حتى لم تعلم قط من أين تقتاتان، ولا ما هي مصادر دخلهم؟

فلم تزر نور تخرج من البيت إلا لِمامًا وبصحبتها، يذهبان معًا إلى القليل من المساعدات في حالات الولادة. تصطحبها نور في يدها وتجبرها على المشاهدة بل والمساعدة البسيطة، دون أي اعتبار لسنها أو لبشاعة المنظر، والحقيقة أن ذلك الأمر بدأ من قبل وفاة أمها؛ التي وللعجب كانت توافق على حضور الصغيرة للولادات دون معارضة تُذكر!

ورغم ذلك فالمنزل عامر دائمًا بالطيبات، لم ينقطع عنه القدر المضبوط من احتياجاتهما سواء كان طعامًا أو شرابًا، مع هامش خفيف من الرفاهية متمثلة في الفاكهة الموسمية واللحم بشكل متقطّع، فشرت مريم الأمر في تأملاتها التي لا تنتهي، بأن لنور مخزونًا ما تصرف منه عليهما، وديعة في بنك أو ما شابه.

ذلك هو التفسير المنطقي الوحيد.

مرّت عليها الأيام في منزل نور مملة جامدة، اليوم مثل الأمس وبالتأكيد سيطابق الغد، روتين مضبوط بالساعة لا ينكسر ولا يتغير، يتكرر تلقائيًا بلا تفكير حتى اعتادت مريم على تلك الطبائع العجيبة والصمت المطبق.

صحيح أنها بالفعل اعتادت، لكن ذلك لم يمنع الغصة الموجودة في حلقها بشكل مستمر، مثل رائحة كريهة نفرت منها في البداية وتنغّصت الحياة معها، لكن بمرور الوقت ألفتها، اعتادتها أنفها فتناستها كأن لم تكن من البداية، لكنها ما زالت موجودة؛ إن غابت عنها قليلًا تظهر من جديد وتزكم أنفها.

هذا ما كان من الحياة مع نور، أما شخصية نور نفسها فبدأت في التبلور يومًا بعد يوم أمام الفتاة، صامتة كالقبر، لا تتكلم إلا بحدود وتنطق بالموجع من الكلمات كأن لسانها مجموعة من الحيّات الزاحفة، لا يخرج إلا ليلدغ.

نظراتها كاشفة، تعرّي اللحم عن العظم فتنفُذُ إلى الروح بلا عراقيل، ترى الماضي والحاضر والمستقبل، تعلم عن الجميع كل شيء ولا يعلم عنها أحد أي شيء.

لم تكبر يومًا واحدًا منذ رأتها أول مرة -هكذا تتخيل مريم- منتهى الطاقة والحيوية، أصبى من الجميع، حضورها يترك موجة أثيرية في المكان، لا يجرؤ أحد بعد رحيلها أن يتحدث عنها بسوء، خشية أن تعلم!

وهي دائمًا ما تعلم.

في أحد الأيام الغبراء حاولت مريم مرة إخفاء بعض من الطعام أسفل فراشها دون أي سبب مفهوم، ربما هي الغريزة، الخوف من المجهول، أو ذكرى أيام لم تكن تجد فيها إلا وجبة واحدة أو لا تجد على الإطلاق.

لا يهم السبب، لكنه ما حدث.

بشكل ما غامض علمت نور وسألت عن الأمر، تلجلجت مريم وتصبب العرق من جبينها مع ارتعاشه خفيفة في أصابعها الطفلة.

لم تتحرك نور من مكانها على كرسي العرش -كما تطلق عليه مريم في دواخلها- ورغم بعد المسافة بينهما لفحت وجهها لهيب أنفاس نور التي تتحدث بصوت مثل الفحيح الهامس.

«لا تكذبي، لطالما كرهت الكاذبين».

لم تزد على جملتها حرفًا، إلا أن الرعب جمّد الدم في عروق مريم، ومن يومها لم تفكر أبدًا في الكذب.

مجرد تفكير.

ودارت الأيام وآن الأوان لرتابتها أن تنكسر، فاليوم وللمرة الأولى يحل على ذلك البيت الصامت ضيف، أخبرتها نور عن قريبة لها من بعيد، فتاة تماثلها في العمر تدعى نوران ستأتي لتقيم معهما لغرض ما له علاقة بالدراسة أو ما شابه، في الحقيقة لم تهتم مريم بالأسباب، قدر إثارتها من الحدث نفسه، فقد فرحت بالتغيير، فلم يكن لها يومًا صديقة ولا قريبة، خرجت من بيت إلى بيت، لم تذهب إلى مدرسة ولا تكلم البشر إلا نادرًا، بعض من التجديد لن يضر أحدًا، بل بالتأكيد سيفيد في تحريك المياه الراكدة.

أخبرتها نور بالترتيبات والتعليمات اللازمة بلا إسهاب أو نقصان، وأكدت على حسن الاستقبال؛ فهي لن تكون موجودة؛ لأنها ستتغيَّب في مهمة ما لبضعة أيام أو تزيد.

بالفعل لاحقًا في هذا اليوم بعد رحيل نور بسويعات برزت نوران من الباب المفتوح. تركت نفسها لفحص عيني مريم فوقفت مكانها مسترخية بلا حراك.

ضوء الشمس الغارب في الأصيل يلقي بريقًا خاصًا على شعرها الطويل المجدول على هيئة ذيل فرس جامح كأنه نار تعلو رأسها، هي نفسها فرس عصي الترويض يطل تمرد روحها من تقاسيم وجهها الصغيرة، الأنف المستقيم، الفم الدقيق والذقن المشقوق، إلا أن أول ما يُرى منها عيناها، تمتلك لمعة عيني نور الثاقبة المجلية للنفس، يعلوها حاجبان أقرب إلى التلاصق، سوادهما يناقض احمرار الشعر الكستنائي، كل تقاسيمها تمتلك سحرًا معينًا، خلطة من الجمال الشمعي والبرودة، الشهوة والقسوة.

جسدها ضئيل نسبيًا، ليس بفارع مثل مريم، تقاطيع أنوثتها فائرة صلبة غير رجراجة، مع كلامها وحركتها تبرز أوتار جسمها ورقبتها المشدودة كأنها قطٌ على وشك الوثوب، أصابعها طويلة بشكل ملحوظ لا تكف عن الحركة، مصبوغة الأظافر بالأحمر القاني.

بعد توقفها هنيهة لتتأكد من أن مريم استوعبت وجودها وألِفته، تقدَّمت داخلة للمكان بخطى واثقة كمن سبق له الاطلاع على دواخله، أفاقت مريم من مغناطيسية الفتاة وتحركت تستقبلها فتقابلا في منتصف الطريق، تستكشف كل منهما الأخرى من أعلى رأسها إلى أخمص قدميها، صافحتها نوران بيد باردة كالثلج، تظهر عروقها الزرقاء المخضرة بوضوح.

انهزمت عينا مريم أمام نظرات نوران الكاشفة، شيء ما في نظرات الفتاة غير مريح، فضول مشوب بشهوة الافتراس!

تلعثمت قليلًا ثم تمالكت نفسها ورحبت بها بحرارة، قادتها لغرفتهما المشتركة ساهمة

نوعًا، تتحدث ببطء وتزن كلماتها بحفاوة متوجسة، استنتجت من الانطباع الأول أن الفتاة ليست سهلة، أكسبت مريم إحساسًا بأنها من النوع الذي يخفي أكثر مما يظهر، راودها انقباض بسيط في قلبها أخبرها بلا مواربة أنه من اليوم تغير الكثير في حياتها؛ وأن علاقتها مع تلك الفتاة لن تكون سهلة أبدًا.

وكم كانت مشاعرك صادقة يا مريم!

# -11-

## سِفر النشوة

### حمُّو

والله ما طلعت شمس ولا غربت

إلا وحبُّك مقرون بأنفاسي.

ولا خلوتُ إلى قوم أحدِّثهم

إلا وأنت حديثي بين جُلّاسي.

ولا ذكرتُك محزونًا ولا فرِحا

إلا وأنت بقلبي بين وسواسي.

مررت بجوار الزاوية التي يتصاعد من داخلها صوت جبريل المشروخ يترنّم بكلمات الحلاج، فتعجبت!

ألا يدّعي جبريل الالتزام والتقوى.

حتى أنا -رغم عمري الضئيل في هذه الدنيا وتديُّني المحدود الأقرب إلى المعدوم- أعلم أن الملتزمين يكرهون المتصوفة عامة والحلاج خاصة، كم من مرة كنت في مصلحة ما خارج المنطقة وحانت وقتها صلاة الجمعة، فأصلي في جامع سيدي بشر أو القائد إبراهيم لأسمع شيخ المسجد ينهى الناس عن كلمات الحلاج إلى حد تكفيره.

الأغلب أن جبريل لا يعلم ما يترنم به، لعله يظنها تواشيح أو ابتهالات. ابتسمتُ للخاطرة وأنا أنفث دخان سيجارتي في الهواء البارد فيخرج مصحوبًا بالبخار، وضعت يدي في جيبي سترتي الجلدية أتحسس مطواتي العزيزة -وهي عادة تلازمني عندما أفكر- وأنا أمشي حثيثًا إلى نصفي الآخر المنتظر في المكان الموعود.

أسرعت الخطى في محاولة لبعث الدفء في جسدي، ولكن عقلي أكمل تأملاته، آه كم رأيت في حياتي من عجائب داخل منطقتي تجعلها أقرب إلى سيرك! الكل يتصنّع الطهر والعفاف، لكن السوس نخر في القوارب حتى أصبحت أقرب إلى التداعي، فها هو جبريل يبتهل هائمًا في بحر من الورع الزائف، لكنه يتناول كل يوم جرعة ثابتة من الحشيش؛ ويقنع نفسه بأن الحشيش ليس بحرام، بل ينقّي صوته حتى يرفع الآذان وينجلي، بالتالي شرب

جبريل للحشيش يصب في مصلحة الدين!

كيف لا تكون الدنيا قاتمة في عيني وقد رأيت وسمعت كل ما عرفت؟

مع موت أبي ورثت عنه كل أعماله، أولها القارب الخشبي المتهالك، فحاولت الحفاظ عليه وصيانته بقدر المستطاع على أمل الفوز بحياة طاهرة لم يحظَ بها هو، فقد ورثت أيضًا عمله الأصلي الذي كان يتوارى خلفه بالقارب، وهو دولاب المخدرات!

قِبلة كل باحث عن الكيف الحرام في المنطقة، ليس وكرًا كبيرًا مؤيدًا بشبكة توزيع مثل ما سمعت عن باقي الموزعين الأكثر شهرة، بل دولاب قديم في غرفتنا مغلق بالسلاسل مجاور للنافذة التي كان أبي يجلس إلى جوارها من بعد الغروب؛ ليمر عليه طالبو المزاج فيعطيهم طلبهم بصوت أقرب إلى الهمس، تخصص في تجارة الأدوية الممنوعة عن طريق التوريد المستمر من صيدلية مشبوهة في سان ستيفانو صاحبها يدعى جورج راسم، تمد الدولاب بما لذَّ وطاب من الأدوية المدرجة في الجدول إياه، ولا تتدخل الصيدلية في البيع المباشر، وتحصد النسبة المقررة من الأرباح، علمت بذلك الاتفاق خلال عزاء أبي!

في قلب الصوان أتى الدكتور جورج كما سمى نفسه لي، شدَّ على يدي واحتضنني بقوة وأسهب في ذكر محاسن أبي -التي لا أذكر أيًا منها- وبعد أن انفض الجمع ولم يتبقَّ سوانا، جلس إلى جواري يربت على فخذي، ثم اقتحم الموضوع دون مقدمات، طالبًا تجديد العهد واستمرار التعاون بين الطرفين، صدمت أولًا وبدأت في التذكُّر وتركيب أجزاء الصورة؛ منع أبي لأي من أفراد العائلة من مجرد الاقتراب من الدولاب، الشباب الهامس الذي يميل عليه من الشباك ويعطيه مالًا ويرحل بغنيمة صغيرة يخفيها بين ملابسه.

ثم رفضت في خوف مخلوط بوخزة خفيفة من الداخل تخبرني بالصواب، ابتسم بخفة وأعطاني رقم هاتفه الخاص مصحوبًا بمهلة للتفكير خاتمًا كلامه بنصيحة مغلفة بتهديد خفي:

«تعلم أين هي مصلحتك!»

استمررت في عنادي وكافحت حتى أقف أمام متطلبات الحياة باستخدام القارب فقط، لكني لم أقرأ المستقبل جيدًا مثلي كمثل كل سكان قريتنا، شيدت الحكومة الجسر اللعين وقل الاعتماد على قوارب التنقل، بل قوارب الصيد كلها أصبحت تعمل صيفًا فقط.

انحدر الحال وتغوَّل الفقر، فلم أقدر على أقل القليل باستخدام القارب، حتى لقمة يومي لم أتحصَّل عليها.

بُحث بغليان صدري لصديق عمري ضياء، الوحيد الذي حكيت له عن الصيدلي وعرض الدولاب، فزيّنه لي. الكل فاسد، فلماذا تقف العجلة عندي -على حد قوله؟

جبريل إمام الزاوية نهارًا شارب الحشيش ليلًا، وقبله كان أبي مورد الأدوية الممنوعة الأول في المكس كلها، لماذا أحارب وحدي؟

أو كما قال بصوته العميق:

«ما الذي يدفعك لتلعب بشرف والكل (يقرص) في الزهر؟ ستخسر وحدك والكل يكسب!»

ظل يتناول الموضوع من كل النواحي حتى أقنعني ورضخت؛ فذهبت للصيدلي وجددت عهد الموت، فتح ذراعيه لي وتوسّم في عودتي تدفُّق الأرباح من جديد، اتفقنا على كل شيء؛ طرق التسليم، توريد المال، نسبة المكاسب، تفاصيل شركة كما يجب أن تكون.

وبالفعل امتلأت المحفظة بالمال السهل، وتضاعفت الخبرة التي اكتسبتها في المجال، مع الوقت اكتشفت طريقة لزيادة الأرباح والانفراد بفارق المكسب لي وحدي، تعلمت كيف أدخل بعض المقادير التي لا تكلف الكثير لكنها تزيد الكمية وبالتالي الربح، لكن الطريقة التي اتبعتها كان لها أثرًا جانبيًا، كانت تسرع الطريق إلى الموت، لسعني ضميري، فكرت أن أعود للتجارة العادية وأتوب عن غش المخدر، غير أن ضياء نجح كالعادة في إثنائي عما قررت.

دائمًا ما يقدر على تغيير وجهة نظري، حتى أصبحت جملتي الأثيرة له: لقد خُلقتَ لتُقنِع يا ابن الكلب.

فلا يرد ويبتسم.

وقد كان ما أشار به، استمررت رغم وخز الضمير الذي أخذ في الاختفاء التدريجي أمام المكسب السهل، أصبحت أكسب في شهر ما لم أكسب في أعوام كاملة، لكن المال ظل دائمًا أقل من احتياجاتي، لم أصل يومًا إلى حدّ الاكتفاء والتفكير في التوقف، لم ينقلني إلى درجة الأغنياء، لم يساعدني على الرحيل من هذه الحفرة النتنة، لم يقوِّي علاقاتي بالسلطات كما يُسمع عن تجار الصنف الكبار وعلاقاتهم القوية التي تجعلهم فوق القانون، دائمًا كان أقل من المطلوب!

لكنه بالتأكيد أفضل حالًا مما كنت عليه عندما اعتمدت كليًا على القارب كمصدر رزق، أصبحت أدخن السجائر الأجنبية بدلًا عن المصرية المليئة بالخشب التي دمرت صدري، ارتديت بعض الملابس الجديدة، بل أحطتُ رقبتي بسلسة ذهبية خفيفة تحمل اسم عزيز على القلب، بين الحين والآخر وجبات دسمة من الكفتة والطرب مصدرها محل (كلابجي

المكس) كما نسميه بسبب رخص وجباته المصنوعة من الكلاب.

لكن كل هذا لم يكن بلا ثمن!

ما إن وصلت بفكري إلى هذه النقطة حتى ارتفعت يدي في حركة عفوية صاحبتني كلما توترت، امتدت يدي تمسح الجرح الطولي الذي يغلق عيني اليسرى، عيني التي راحت مقابل الثمن الذي قبضته، ثمن الموت.

نتيجة لجرعة عالية مغشوشة توفي أحد زبائني الدائمين، غُبِر عليه مقلوب العينين شاحب الوجه ملقى إلى جانب أحد المصارف القريبة، وكل ما هو ثمين لديه أو عليه سُرق، وصلت إلى أذني الاتهامات، الكل يعلم والكل أغمض عينيه، فمن لا يشتري مني، يهاب مطواتي قرن الغزال، أحد أهم المهارات التي اكتسبتها من عملي الجديد.

وعليه لم يُفِد إبلاغ القسم، فلا دليل على أن المتعاطي كان يأخذ مزاجه من عندي، فعدت إلى سابق عهدي بلا أدنى خوف.

لكن أخا المتوفى الغاضب لم يغفر ورغب في الثأر، تصادف أنه مثلي كان متمكنًا من استخدام نفس السلاح، فأتى منتقمًا لأخيه، دارت المعركة بيننا وكان النصر فيها لي، ألحقته بأخيه، لكنه أخذ عيني معه، فضاعت مني نصف الرؤية واكتسبت أمامها ضعفي الهيبة، يخافني الجميع ولا يرفع أحدهم عينه في وجهي.

تزداد الأجواء برودة ساعة بعد ساعة، أجد السير من خلف المباني القصيرة المظلمة باتجاه مقلب القمامة عند ملتقى الحارات، المساحة الخالية المتاخمة له هي مقر مقابلات شباب الحي المفضلة، تحولت مع الوقت إلى منطقة نفوذ، لا يمسها إلا المقربون، يلتف بها (الجدعان) في جماعات لا يتدخل أي منهم في أمور الآخر، فهؤلاء يتصاعد من دائرتهم الدخان الأزرق مخلوطًا بروائح الفضلات المتصاعدة من القمامة، أما هؤلاء فيتقاذفون الزجاجات الخضراء الفارغة مع أصوات تجشُّؤ عالية مصحوبة بضحكات مخمورة أعلى، أما الجماعة التي في العمق بعيدًا عن المدخل فمكشوفي السواعد رغم البرد، تتدلى من عروقهم المحاقن، أعينهم مقلوبة وصامتون دائمًا، كل منهم في شأن يغنيه.

لكن الكل اتفق على الحماية والعهد، يغطي كل منا ظهر الآخر عند الخطر، نحمي بعضنا البعض رغم اختلاف الأمزجة، لا يدخل المكان إلا من كان وجهه مألوفًا أو بصحبة أحدنا ليأخذ الأمان، ما عدا ذلك يمزق قبل أن يعبر المدخل، ليس مدخلًا بالمعنى المفهوم، بل فتحة في سور منخفض مبني بالطوب الرمادي لا يخفي الكثير، فالكل يعلم عن المكان، والكل أيضًا يغض البصر، أرض بلا زرع متوحلة من إثر المطر وبقايا المخلفات؛ بها بعض المقاعد المهشمة

والأحجار الصالحة للجلوس عليها.

أمشي بين الجماعات أرفع يدي بالتحية لهذا وأهز رأسي لذاك، شعبيتي هنا مثل الطبل، لا حبًا بل رهبة، ألقي بالتحيات السريعة غير المهتمة للجميع في طريقي لعمق المكان، حيث يجلس ضياء كعادته منعزلًا في أقصى اليسار، موقعه المعتاد بعيدًا عن الزحام مستترًا بالظل، يطالع الجميع بعين مراقبة؛ بينما يقلب الحطب في (المنقد) ليعد لي الشاي بيده، ينعكس اللهب على وجهه فيضيؤه ويتركز في عينيه المتقدة كأن النار تخرج منها بطريقة تجبرني على الجلوس بالساعات وأنا أتأمل تفاصيله فقط.

أجلس أمامه على حجر ضخم يحرك البراد الصدئ المغطى بالسناج بيده رغم الاحمرار المتوهج للمعدن فلا يهتم، يصب الشاي الذي يتصاعد منه البخار بكثافة فينعش ويدفئ قلبي، أخرج علبة السجائر أضع واحدة في فمي ولا أعرض عليه كما تقتضي الأعراف، فأنا أعلم الإجابة، دائمًا ما تكون بالرفض؛ رغم وجوده في هذا المكان المشجع على كل أنواع المزاج، لكنه لا يتعاطى أي نوع منها، حتى السجائر العادية لا يقربها، وعندما سألته يومًا، أجاب بأنه يكره الغياب عن الوعي، قال جملته التي رنّت في أذني كثيرًا:

«أنا حاكم لا محكوم، وسأظل كذلك».

وهو قول يطبقه بكل تفاصيله، أقوى سيجارة ملفوفة من يده، كوب الشاي المغمّس بما لذّ وطاب لا يجيد غيره عمله، حدّد فقط النوع الذي تريده وسيلبي، لكنه لن يشارك!

رفع يده بكوب الشاي نحوي وهو يسأل كعادته في كشف ما في نفسي دون أن أتكلم:

ما بك اليوم؟

دائمًا ما أتعجب من ذلك، كأنه يطّلع على القلوب، يعرّيني من الداخل، أخرجت من أنفي دخانًا كثيفًا من الغليان الذي يحدث بداخلي بلا سبب، راقبت طرف السيجارة المشتعلة ولم أتحدث، وهو لم يسأل، أكملت تدخيني في شرود، أحاول إيجاد المدخل السليم للموضوع، طال الصمت حتى تعبت من الكتمان فتكلمت بلا ترتيب أو تجهيز للكلمات كعادتي مع ضياء، فقلت بطريقتي المتقطّعة في الكلام بسبب محتويات شاي ضياء الفعّالة:

- مريم كبرت، رؤيتها تحركني، أ... أ... أريدها... وأنت تعلم سر أمها، الشك يطير النوم من عيني!

يسكت كأنه يقلب الموضوع في رأسه، أسرح في جلسته المظلمة بحذائه الرياضي البسيط باهت اللون، ذقن عريض مشقوق بطابع الحسن، شعر جاف متربّ كأنما لم يُغسل منذ شهور

بعيدة، اختلط فيه الأسود بالأبيض بطريقة تليق به، ولا تنبئ عن عمره الحقيقي الذي لا يعلمه أحد، يعتقد الجميع بسبب صداقتنا أنه يماثلني عمرًا، لكن كلامه -عندما يتكلم في المناسبات فقط- يقول إنه أكبر، يحكي أنه شاهد في هذا المكان أحداثًا كثيرة تمت قبل وجودي، يعتمد الصمت والنظرات أكثر الأوقات بدلًا عن الكلام.

أعود بذاكرتي إلى ذلك اليوم الأغبر، اليوم الذي كشفت فيه حنين أو الدكتورة على حقيقتها، أتذكره كأنه كان بالأمس، كانت مراهقتي قد تحركت، أصبحت لا أنام بالليل، ولو نمت أصحو على أحلام تبلل الملاءات بماء مختلف، نظرتي للنساء تغيرت، لم أعد أراهن زملاء لعب أو منطقة، لكن أجساد أخرى غامضة ظهرت لها منحنيات جذابة وحركات متمايلة.

فتوجهت عيني إلى النساء الأكبر سنًا، لا أعلم السبب، ربما بسبب موت أمي في الصغر، استقرت نظراتي على فاتنة الحي؛ حنين... ساعدني أنها كانت تعاملني برقة ولا تدرك اشتعال الرغبات داخلي، فكانت تسمح لي بالإمساك بيدها ومساعدتها على ركوب القارب الخشبي، عندما أتبادل الأماكن مع أبي المشغول بعمله الآخر، مجرد لمسة بسيطة من ناحيتها، لكنها كانت لي تعني الكثير.

تشعل مشاعري، وتصيبني بانتصاب فوري أداريه بحركات مفضوحة لم تلاحظها لحسن الحظ، وإلا كانت فضيحة، وعندما يحين الليل أبقى متيقظًا أعبث وأتخيل، فأبتل بدل المرة مرات حتى أنام من الإرهاق، لأحلم بها مرة أخرى، فأقوم متعكر المزاج لأنها ليست معي في الحقيقة كما في المنام.

هنا لم أعد أطيق فقررت التحرك، ولما كنت أجبن من مصارحة الفاتنة بمشاعري، قررت ملاحقتها لعلّي أفوز بنظرة أو لمسة أو لمحة ما.

تابعت مشوارها اليومي إلى المستشفى في مواعيدها الليلية، هنا صدمت بأنها لا تذهب إلى هناك، بل تركب المواصلات إلى محطة الرمل، شاهدتها تتهادى هناك حتى منطقة معينة أسفل أحد اعمدة الأنارة وتقف لتنتظر هناك ما لم أفهمه في البداية.

تمر دقائق قليلة وأنا أراقبها من مكان بعيد نسبيًا، تتوقف ببطء سيارة إلى جوارها، يشير إليها راكبها، تقترب حنين، تنحني على الباب المجاور للسائق، يتكلمان لثوانٍ ثم تركب إلى جواره وترحل!

وقفت مكاني دقائق لا أعلم عددها، لم أدرك كيف عدت إلى منزلي يومها، طار من عيني النوم، فخرجت إلى قاربي مع شقشقة نهار يوم جديد لأجدها عائدة تتمايل مرهقة من أثر السهر، ساعدتها على الركوب وسألتها عن عملها كما اعتدنا.

أخبرتني بأن النوبة كانت مليئة بحالات الطوارئ ولم تنم ليلتها!

تتبعتها يوميًا لفترة ليست بالقصيرة، يتكرر الموضوع وتختلف التفاصيل، المواصلات، محطة الرمل، المكان المظلم، السيارة، الرجل، الرحيل.

سيارات مختلفة، ألوان مختلفة، رجال مختلفون، وامرأة واحدة فقط...

لم أصدق في البداية، لكن الدكتورة كانت في الحقيقة مومسًا!

كبرت وملأ المال جيوبي؛ جربت كل أنواع النساء، لكن بقت حنين هي التي لم أصل إليها حتى ماتت، فقد خفت من المحاولة معها، وكبرت ابنتها وتحولت إلى نسخة منها لكن أصبى وأشد عودًا، فتجددت النار في القلب.

أنتبه إلى ضياء ينهمك في العمل فيضع السكر في البراد ويقلب الحطب ليحضر دورًا آخر من الشاي، بعد فترة صمت يرفع عينيه كثيفتي الحاجبين ويثبتها في عيني، يتكلم بلا مباشرة كعادته وهو يرفع أمام وجهي قطعة خشب مشتعلة الطرف:

- النار تأكل الخشب لتعيش. لم لا تجرب ألا تطعم النار الخشب بل الماء؟

فهمت مراده في لحظة، كلامه لمس ما أريد في نفسي، لو كانت مثل أمها فقد استمتعت بالجميلة بنت الجميلة، وإن لم تكن استمتعت هي بمميزاتي كزوج، بدأت في تخيل المتعة التي سأنالها من جسدها البض، غلى الدم في عروقي واشتعلت فيه الرغبة، فشعرت بأن أذني احمرت وريقي جف.

لم أحتمل ارتفاع ضربات قلبي، وقمت من فوري لأنفذ المراد، فأنا دائمًا ما أفعل ولا أقول.

جذبني ضياء إلى جواره وهو يهز رأسه بالنفي.

نظرت مستفهمًا!

أعاد ضياء عينيه إلى النار التي أحالت وجهه مع الظلال لملامح ذئب، وقال ببطء ضاغطًا على الكلمات:

- ليس الآن.

جلست ببطء كصخور الشاطئ بلا حركة، فقط أفكر، حتى فار الشاي على الحطب ولم يمسه أحدنا.

## سِفر التنوير

في البداية مرت الأيام ببعض الرتابة على مريم، لم تعد نور من حيث ذهبت، غير أن هذا لم يشغل الحيز الأكبر من تفكير الفتاة، فمسامرة الضيفة الجديدة تأخذ قدرًا ليس بالقليل من وقتها، مع الكلام والمعاشرة تأكدت أن نوران كائن مميز، لبقة في الحديث، حلوة اللسان، تفهم في كل الاهتمامات والهوايات، نشيطة لا تهدأ قط، تشارك مريم كل واجباتها المنزلية دون تكلُّف أو مكابرة، ناعمة، تتسلل تحت الجلد بلا مقدمات، لكنها تحتفظ بحد فاصل أو خيط رفيع لا تسمح بتخطّيه في علاقتها بمريم.

مع تساقط أوراق نتيجة الحائط، تعمقت العلاقة بينهما وتحولت إلى شكل مريب، مختلف عن المعتاد في الصداقة بين الأقران، نوران هي من تتحكم في حلقات التواصل بينهم، متى تتكلم، متى تصمت، متى تتبسّط، متى تتحفّظ، لم يعد التواصل والود في الاتجاهين ذهابًا وإيابًا، بل أصبح أقرب ما يكون إلى مدار فلكي مركزه هو الشمس المسماة نوران، أما مريم فأصبحت جرمًا سماويًا أو كويكب يدور في حلقات مفرغة بلا توقف حولها، تتحكم في مدى قربه منها، فتزداد حرارة العلاقة ويتقاربان إلى حد التماهي؛ فتتجالس الفتاتان لا تفرّقهما الواحدة عن الأخرى، حتى إن مريم في بعض الأحيان كانت تقلد تصفيفة نوران لشعرها.

أختان تتشاركان حتى بتحضير الطعام، بعد ما يصدح جبريل بأذان الظهر، تكون تلك إشارة البدء لدخول المطبخ، يغلفهما بخار القدور حاملًا رائحة القلي ورحيق الحبهان.

في أيام بعينها يتزايد التدليل من نوران فتحضر وصفتها الخاصة التي تعتبرها مريم ألذ وصفة دجاج أكلتها على الإطلاق، دجاج حقيقي من الذي تربيه نور، لا ذلك المجمد معدوم الطعم، باستخدام أشياء غريبة كحشوة معجون الريحان، أو بالتحمير في السمن البلدي بالنعناع، تقدم وصفاتها الحصرية دومًا في طبق من الخزف الصيني المنقوش بأشكال غريبة مثلها.

تحرص نوران على أن تأكله مريم بالكامل ولا تشاركها الطعام، بل تجلس على طرف المائدة تحيك شيئًا ما لا ينتهي مهما دارت الأيام باستخدام بكرة من الخيط القطني الأسود وإبرة فضية مميزة طويلة إلى حد ملحوظ.

لكن دوام الحال من المحال، فتلعب الأيام لعبتها وتبتعد الشمس الكويكب عنها وتنطفئ الحرارة وتبرد المشاعر ويعم الجفاء، يتحول الكلام من الاسترسال إلى تقطير، والمجالسة

من التلاصق إلى صد، حتى تبدأ مريم في اليأس من محاولة المحاورة وتنزوي على روحها المثقوبة لا تعلم فيما أخطأت لتعاقب.

هنا تشد نوران خيط الصيد بمهارة في اللحظة المناسبة، فلا تسمح لمريم بالابتعاد طويلًا، وتسقطها مرة أخرى في مدارها الفلكي.

فلا تعلم الفتاة فيمَ كان الفراق، ولماذا الآن الاقتراب!

لمَ كانت القطيعة ولمَ أصبح الوصال؟

مع تكرار العملية بدأت تظهر على مريم معالم الخنوع والترويض، فتحولت إلى كلب مطيع بمجرد شم الرائحة يسيل لعابه على وجبة الطعام مسبقًا دون أن يراها، وبغض النظر عن أي من مكوناتها، من هنا تعلمت مريم أن تقرأ غضب رفيقتها ورضاها، ومن خلال قراءتها تتصرف لتجنب الجفاء وإطالة الوئام.

انعكس هذا على روح مريم نفسها، فأصبحت راهبة في محراب الربة نوران، تقدسها ليل نهار، وتلقي عند قدميها بالقرابين لترضى، فمن رضاها تكتسب احترامها لذاتها وسلامها الداخلي، هي عشتار المقدسة التي تنير الظلمة، لو غضبت جلبت الوباء والوبال، ولو عطفت تفتحت الزهور وتلون الأفق ببتلات الزهور وعبير الشجيرات، هي مصدر الرحمات وأنشودة الصفاء.

دارت رحى الأيام بين شد وجذب أفقد مريم قدرتها على الحساب، فلم تعد تدرك كم غابت نور عن حياتها ولم تعد تهتم، فقد انزوت في ثنايا ذاكرتها تدريجيًا!

ولأن أيامها انصبّت بالكامل على رضا نوران، تحولت إلى ما يشبه المدمن تتناول جرعات محسوبة بدقة من الساحرة الصغيرة، لا تقل فتتهيج وتتمرد الضحية ولا تزيد فتموت.

أصبحت مريم تستيقظ بشروق نوران وتنام مع أفولها، تغلغلت في كافة التفاصيل، بدأت تسيطر على مقاليد حياتها بالكامل، لا تأكل ولا تنام ولا تستحم إلا بإشارة منها، تسعد بالنوم إلى جوارها ككلب وديع يقبع أسفل فراش صاحبه.

عندما تأكدت نوران من إحكام قبضتها على مريم انتقلت للموجة الثانية من السيطرة الشاملة، في يوم غيّر كل شيء في حياة مريم.

وإلى الأبد.

بعد انتهاء مريم من رفع بقايا طعام العشاء، ذهبت لتأخذ حمامها اليومي، فهذه أحد أهم تعليمات نوران التي لا تطيق أي روائح نفاذة إلا تلك المنبعثة منها هي شخصيًا، أو هكذا

يخيل لمريم، فكل ليلة عندما تنام بجوارها في الفراش ينبعث من جسد نوران شذى عجيب خافت لكنه موجود، لا يُشم بالأنف، بل بمؤخرة الرأس، أقرب إلى الوخز الخفيف، رائحة مبهرة حريفة كأن نوران تغمس جسدها يوميًا في بخور هندي مخفف تلتصق رائحته بجسدها لكنه لا يطبق على الأنفاس.

مع تكرار تعاطي مريم لتلك الرائحة أدمنتها مثلما أدمنت صاحبتها واكتشفت أنها تساعد بقوة على النوم العميق، تأخذها إلى عالم غامض هانئ من الأحلام المفرغة الأقرب إلى العدم.

كانت مريم ممتنة لذلك فالرائحة قهرت الأرق المصاحب لها منذ أن سكنت مع نور في المنزل الجديد؛ فكم من ليالٍ نابغية تقلّبت فيها على جمر الفراش تسرح في خواطر سوداء عن أشباح الماضي، نتج عنها نوم متقطع غير منتظم.

نفضت الذكريات عن رأسها وهي تدخل الحمام، لتبدأ روتينها اليومي خلال تلك العملية المعقدة المسماة الاستحمام، فهي ليست مثل أي شخص آخر تقف تحت الماء قليلًا تنهال عليه القطرات وتخرج.

**أولًا** لأن هذا غير متاح، فوسيلة الاستحمام الرسمية هي وعاءان من البلاستيك، الأول كبير يحوي الماء الساخن الذي تم رفعه حالًا من فوق الموقد آحادي العين، والآخر أصغر حجمًا تحسوا به الماء على رأسها في دفقات متتالية.

**ثانيًا** طقوس الاستحمام نفسها خاضعة لتعليمات صارمة لضمان النظافة من جهة نوران، تخلع ملابسها بمجرد الدخول للحمام الضيق، تضع الملابس الجديدة وراء الباب، تتأكد أن الإناء الكبير يحوي الماء المغلي جيدًا، فيبدأ الحمام في التشبّع ببخار الماء لتتفتح المسام، تأخذ القليل منه لتخلطه بالماء البارد من الصنبور لتحقيق درجة الحرارة المثالية، تبلل جسدها بالكامل من رأسها لأخمص قدميها ثم تحضر اللوفة الصفراء ومع الكثير من الصابون؛ تغطي جسدها كاملًا بطبقة من الرغوة، يليها المزيد من الماء المتعادل، المرحلة التالية حجر أسود شبه دائري تستخدمه لفرك الكعب والكوع وإزالة الجلد الميت تتشرّب معه تلك المناطق بحمرة محبّبة.

ودورة ثالثة من الماء لجسدها بالكامل ساخن ثم بارد، أخيرًا تنهي كل ذلك بدهان خاص نفاذ الرائحة لإزالة الالتهابات وترطيب البشرة، أعطتها إياه نوران بعد أن أخبرتها بأنه تركيبة خاصة لا يعلم سرها سواها، وهو ما يعطي بشرتها تلك الرائحة المسامية الأقرب إلى البخور، ثم المرحلة الما بعد الأخيرة، باستخدام الملاقط والمرآة الصغيرة لإزالة ما يزيد عن الحواجب

وأسفل الأنف.

رغم اعتراض الفتاة على تكرار تلك العملية المؤلمة يوميًا، لكنها رضخت لرغبة نوران التي يقززها أي زوائد في تلك المناطق ولو كانت ميكروسكوبية لا تُرى بالعين المجردة.

عند هذه المرحلة ومع تكرار الروتين يوميًا أصبحت مريم تتحرك بحركات مبرمجة بلا تفكير، غير أنها اليوم انتبهت مع تزايد البخار بشكل غير مألوف إلى درجة التعتيم فلا ترى كف يدها، تهب لفحة من الريح المثلجة تقتحم الغلاف البخاري الساخن المحيط بها كأن الباب قد فُتح؛ رغم تأكُّدها من إحكام الإغلاق!

تقلق... تنادي بخفوت على نوران لكن ما من مجيب، يتصاعد بداخلها إحساس بالضعف والانكشاف؛ كأن شخصًا ما معها في نفس الحمام يتأمل تفاصيل جسدها العاري بتمعُّن، تقشعر رغم سخونة البخار، تشعر بأنفاس باردة في مؤخرة عنقها، تتلفت حولها مثل المجاذيب لكنها لا ترى أي مخلوق. فقط الضباب، تزداد هلعًا فتغطي بيدها ما بين ساقيها وصدرها مع أنها متأكدة بعقلها من أنها وحيدة في الحمام، بعكس قلبها الذي يجزم بأنها مراقبة!

تتعجل إجراءات الحمام المعتادة، الماء الساخن يليه الماء البارد إلى حد الارتجاف ثم التجفيف وارتداء الملابس بسرعة تقارب الهرولة، لا تنسى قبل المغادرة القاء نظرة على نفسها في مرآة الحمام صدئة الحواف تتأكد من تنفيذ التعليمات على أكمل وجه فتتنفس الصعداء.

تخرج وتستند إلى الباب من الخارج مرتجفة بشعر مندى وأنفاس متلاحقة، تقع عيناها على نوران جالسة على حافة الأريكة المجاورة للنافذة المطلة على الماء، تتأمل صفحة المحمودية الهادئة على ضوء القمر المنعكس على وجهها كأقصى آيات الجمال بل كواحدة من حوريات البحر التي يتناول الصيادين أسطورتهن.

سكون المشهد يهدئ من روع مريم ويقلل ضربات قلبها الخافق، تتقدم ببطء من المنحوتة البديعة كي لا تقطع شرودها، تلتفت اليها نوران -دائمًا ما تشعر بها حتى لو تحرَّت الصمت- تأملتها بنظرة حادة متفحصة من أسفل لأعلى حتى ساور مريم الشك في أنها ربما سهت عن شيءٍ من التعليمات. حاولت تجاوز القلق فتشققت شفتاها ببسمة مرتبكة، قابلتها الأخرى أخيرًا ببسمة غريبة وهي تفتح لها ذراعيها في حضنها اليومي.

دائما ما تطلب ذلك الحضن بعد حمام مريم قائلة:

لا تبخلي على روحي بهذا الحضن الجميل، أعشق رائحة شعرك المشبع بعطر الصابون!

ثم تكمل الطقوس اليومية بإجلاس مريم بين قدميها المرمريتين، تجفف شعرها بمنشفة صغيرة، وتخرج مشطها المخصوص من جيب مئزرها، تستخدمه يوميًا ولا تستخدم سواه، مشط عجيب بأسنان واسعة أسود مخالط بأحمر يشبه العقيق، ما إن يمس شعر مريم ويتحرك في اتجاه منتظم من أعلى لأسفل بشكل رتيب حتى ينبعث الخدر في أطرافها وتكون تلك مقدمات النعاس، لكن ليس قبل أن تنتهي نوران من شد شعرها وتضفيره على هيئة سنبلة قمح فهكذا تعشقه، تقول لها إن ذلك يعطيها مظهر الأرض البكر كأنما ولدت للتو.

بعدها تسير مريم متثاقلة بتباطؤ يحيط رأسها بما يشبه الضباب الوردي، وتنغلق عيناها تدريجيًا حتى تجد أن مجرد فتحهما يحتاج إلى مجهود شاق، تترنح حتى الغرفة، تستلقي على الفراش، تتكوم ملتفة حول نفسها، يدها تحتضن ساقيها ورأسها إلى أسفل في وضع على ما يبدو هو حنين إلى أيام رحم أمها، ومن فورها تذهب لدنيا الأحلام. لكن اليوم اختلف الأمر وحدث ما لم يكن متوقعًا في أقصى الخيالات جموحًا.

بمجرد أن أغمضت عينيها حتى فتحتهما على أقصى اتساع وقد تبخر أي أثر للنعاس من رأسها، فقد شعرت بيد ناعمة تعبث في جسدها من أسفل الغلالة الرقيقة التي ترتديها وتتحسس حلمتي صدرها في رقة!

قفزت إلى طرف الفراش القصي مرتعدة، تضم فخذيها وتحملق عبر الظلام بقوة في نوران التي تقترب منها ببطء واثق؛ تزحف على يديها وقدميها مثل القطة، تثبت عينها المنوّمة الأقرب إلى عيون الفهود على مريم وتتحدث بصوتها المغناطيسي الساحر:

- لماذا انتفضتِ؟ لا تخافي، ستدخلين معي آفاق جنة لم تتخيلي وجودها، لماذا أنت خائفة؟ لن أوذيك، ثم ألسنا متماثلتين؟ فما الضرر؟ صدقيني سترتجفين من المتعة ولن يصيبك أذى، ستبقين طاهرة كأنما لم يمسسك بشر من قبل.

أمسكت بقدم مريم الصغيرة وأخذت تمسدها وهي تصعد لأعلى السمانة ثم الركبة بمنتهى البطء الواثق في حركات ناعمة مدلكة مع ضغطات بسيطة، وهي لا تزال تثبت عينيها في عيني مريم التي اتسعت فتحتي أنفها، زاغت عيناها وتسارعت أنفاسها مع اقتراب نوران من مناطق الخطر، اندفع ضخ الدم في عروقها متركزًا بين ساقيها مع لمسات الأخيرة شديدة الحرفية التي تذيب عقلها وحواسها بدقة خبيرة.

تنفك عقدة ساقيها بالتدريج، يسترخي جسدها ولا تمتلك من بقايا المقاومة إلا هزة رأس نافية بسيطة إلى حد لا يُرى، فتأثير لمسات نوران ساحق مخدر، تنهار معه حصونها بل تُدَكُّ دكًّا، تتوالى في جسدها الرعشات وتنبعث من شفتيها المنفرجات قليلًا آهات خافتة تكاد لا

تسمع من بحة صوتها الضائع، تلصق نوران خدها في خد مريم المتورّد من الإثارة وهي تهمس بصوت خافت ممطوط الحروف في أذنها بكلمات لم تستوعبها مريم، لكنها زادت من دوران رأسها، تحتضنها نوران بيد بينما الأخرى ما زالت تصول وتجول في ميدان المعركة المحسوم لصالحها مسبقًا، فقد سلم الخصم الغرير من أول التقاء بين الجيوش.

يتلاحم الجسدان بين كر وفر.

مقاومة خائبة ونصر مؤزر.

تحاول إبعاد وجهها بضعف لكنها تستسلم لقبلات نوران الخبيرة خلف أذنها وعلى رقبتها، كل واحدة منها تزيد من ارتعاشات الجسد وغياب العقل.

غير أن صحوة مفاجئة أصابت مريم عندما أغمضت عينيها تجسد أمامها وجه أمها تنظر إليها لائمة، كان ذلك كافيًا لبث قوة خفية في عروقها؛ فدفعت نوران من فوقها بحركة مباغتة؛ وقفزت من فوق السرير تعدو خارج الحجرة تلاحقها اللعنات من اللبؤة التي فقدت فريستها، لكنها لم تلتفت ولم تفكر مرتين؛ لأنها لو فعلت ستعود!

ما مرت به الآن هو كم من المتعة الحسية لم تشعر به منذ ولدت، متعة زلزلت كيانها وأيقظت مسامّها العطشى للتلامس، لكن قلبها يخبرها بأن هذا خطأ دون أن تعلم السبب.

هداها قلبها إلى الخروج من المنزل، أطاعت وأغلقت باب الحجرة على نوران من الخارج، التي أخذت تزأر مثل نمرة حبيسة وتناديها، مرة بالترهيب الناعم ومرة بالترغيب الآمر، لكن مريم صمّت أذنيها واستمعت لوجيب قلبها واندفعت خارج المنزل تعدو. دموعها منسابة على وجهها، حافية القدمين، لا ترتدي على جسدها سوى غلالة رقيقة تشف وتصف ولا تقي من البرد الخارجي ولا لهيبها الداخلي.

## - 13 -

# سِفر الملاك

## مريم

استمررتُ في العدو لا أرى أمامي من الدموع التي تغطي وجهي، لا أعلم إلى أين أذهب، كل همي الابتعاد عند ذلك البيت الملعون وكفى، حتى وإن أصبحت مشردة في الشوارع، وكأن الزمن لم يُشبِعني لطمات منذ وُلدت فاستمر يضرب بلا توقف، لا أدري ما المطلوب مني أصلًا كي أفعله، قاربت على الكفر بكل ما هو نقي وطاهر في الدنيا.

لماذا يتم وضعي في هذا الامتحان المرير؟

أب يهرب وأم تموت وأنا أتشرد في البيوت حتى أقع في أحضان فتاة تغتصب النساء!

تخلو الحارات المظلمة من البشر، فلا ذاهب ولا عائد، السحب الرمادية في السماء أكدت الرؤية، النوة مستمرة وليس لها رحيل قريب، الشوارع طينية زلقة بعد أن خفَّت سيول المطر وأصبحت رذاذًا خفيفًا؛ لكنه يخترق ملابسي إلى جسمي العاري أسفل جلبابي الخفيف، أضم يدي حول صدري على أمل أن أخبئ أكبر قدر منه وأدفئ جسدي قليلًا، لا أفلح. أحكُّ كفوفي ببعض باحثة عن بعض الحرارة تخفف من لسعة البرودة في الجو.

أوشكت على السقوط عدة مرات. الشد العصبي أرهق جسدي بعد أن رحل والبرد يحطمني، شفتي ترتجفان، أستند بظهري على أحد الجدران وأسقط متكورة حول نفسي؛ تختلط دموعي مع المطر فلا تتحسن الحالة ولا الرؤية، أخبئ رأسي بين ركبتي وأنهنه في البكاء بصوت مشروخ.

يرد عليَّ نباح الكلاب الضالة من بعيد فتزيد من إحساس الضعف داخلي، أضم نفسي أكثر وقد زاد خوفي من المجهول، يد قوية تقع على كتفي فأنتفض بعنف، أعطي فمي بكفي كي لا أصرخ وأنا أرفع عيناي لصاحب اليد، فأجد حمُّو واقفًا، طويلًا قويًا يملأ نظري فلا أرى ما حوله.

أخيرًا وصل المدد، حمو صديق الطفولة، لطالما لعبنا معًا وكان يحميني من بطش باقي الصغار عندما يذلونني برحيل أبي، ينهر هذا ويركل ذاك، وها قد عاد ليجدد عهد الحماية.

أكاد أسجد على الطين شكرًا لكن يمنعني الحياء!

يركع على ركبته بعينه الوحيدة المتسائلة، لم يسأل ولم أجب، أقامني وهو ينظر إلى

جسدي من أعلى إلى أسفل. احمرّ وجهي من عري جسمي فحاولت أن أبتعد عن مجال بصره وأستر نفسي بيدي، التمعت عينه ولم يحركها عن جسدي، التفت حوله بريبة وخلع سترته الجلدية ببطء متعمّد، وأنا أنكمش من نظراته لكن تفكيري مشلول فلا أعلم ما يجب فعله.

يغطي كتفي بالسترة وهو يضمني بقوة أسفل ذراعه كأنه يحميني كما كان في طفولتنا دائمًا، أصدق لمساته وأسير معه متمهلة -خوفًا من الانزلاق- بين المباني المتآكلة التي تشع كراهية وبردًا. أصبحت أكره كل البيوت لا أريد سكنى تلك الأقفاص، أرغب في التحليق في البحر كسمكة حرة.

أشعر بأني ضعيفة لا أقدر على الحركة السليمة فأسند جسدي بكتفه. تركت نفسي له يقودها، جسدي العاري وما حدث لي أصاباني بالخنوع.

تنتظم مشيتنا بين الحواري الضيقة التي تشابهت في عيني، أشعر بجسده يشع بالدفء والاحتواء.

اذهب بي حيث شئت يا صديق الطفولة، فلم يعد لي غيرك، ربما تكون الهدية التي أرسِلَت لي لتصالحني بعد طول خصام.

تسترنا عتمة الليل فلم يرنا أحد ونحن ندخل بيت حمو كما اعتقدت من شكل الغرفة الفقيرة من الداخل، الفقر والتقشف يشعان من الجدران مثلما تتسرب منها قطرات المطر في شتائنا الكئيب، لكن ما يزيد الأمر هنا أن علامات الانعزال والخشونة منطبعة على الجدران ذاتها، فهذه الغرفة لم تزر لمسة أنثى منذ أزمان بعيدة.

بدءًا من عدم وجود وسادة واحدة تشبه الأخرى، وكل الملاءات الممزقة الملقاة بإهمال في كل مكان، إلى الجير المدهون على الحائط ينطبع على اليد مع الملامسة، حتى أثاث الغرفة سيئ الحظ مثل صاحبها.

منضدة جانبية صغيرة تجاور الفراش، عليها مطفأة سجائر زجاجية مصفرة طافحة بالأعقاب، الأرض عارية إلا من قطعة كليم مزركشة متهالكة تآكلت أطرافها بالزمن، تنبعث رائحة عفونة خفيفة مجهولة المصدر في هواء الغرفة، كل ركن في الغرفة يدل على أنها شقة أعزب، إلا مكان واحد لم تطله يد الإهمال...

خزينة ملابس قديمة مقشرة الطلاء في عدة مواضع لكنها لا تحمل ذرة من غبار بعكس باقي الغرفة، مغلقة بقفل معدني ضخم يعلوه قليل من الصدأ، الخزينة أو الدولاب نفسه قطعة قديمة لا يشبه أي شيء رأيته، يحمل الكثير من النقوش والزخارف وله رائحة زنخة باردة، رائحة شيء قديم للغاية مخلوط بما يشبه المنظفات.

أجلسني على أريكة مقطّعة في أكثر من مكان لكنها مريحة تستعمل أيضًا على ما يبدو ككرسي مائدة؛ فأمامها مائدة وطيئة عليها بقايا طعام جاهز، شطائر تم أكل نصفها وظهر عليها بعض أشكال العفونة، كوب يبدو أنه يحتوي على مياه غازية فقدت فقاقيعها، حبة طماطم ذابلة، قطعة من الجبن تنبت منها أشياء خضراء... ربما هي سبب تلك الرائحة الخانقة.

جلس إلى جواري. انتقى بعض الطعام الأفضل حالًا وضعه أمامي لكن نفسي رفضته وانكمشت في طرف الأريكة متكورة حول نفسي ملتحفة بسترته، راقبني بنظرة جامدة قليلًا ثم مد يده لطبق مقلوب على طبق آخر، كشفه فظهرت أسفله قطعة كبيرة من عجين بني مخضر حبيبي مع سكين مشرشر وقطع أصغر حجمًا مقطعة بعناية، أخرج من جيبه الخلفي علبة صغيرة تحتوي على أوراق رقيقة وأخذ يلف سيجارة حشيش ضخمة...

تعرّفته فورًا، فأنا أسكن في المكس حيث يلعب الطفل بالحشيش قبل أن يقلع عن تلويث سرواله الداخلي، أشعلها وعاد بظهره للوراء وأخذ نفسًا عميقًا مغمض العينين حتى تخيلت أنه نام، زفر الدخان المزرق الكثيف والتفت لي مرة أخرى بعين محتقنة حمراء بشدة، مد يده بالسيجارة المشتعلة فأبعدتها متأففة، هز كتفيه وقام يترنح قليلًا إلى الدولاب العملاق يوليني ظهره.

سمعت صلصلة القفل المتيبس قليلًا وهو يفتح فرجة صغيرة لم تسمح لي برؤية ما في الدولاب بسبب ضعف الإضاءة، ابتلع شيئًا ما والتفت إلى أسفل الأريكة حيث أجلس مخرجًا زجاجة بيرة خضراء فتحها بأسنانه وتجرع نصفها مرة واحدة فزاد ترنحه.

تجشأ بصوت مكتوم وتقدم نحوي.

نحوي أنا!

صوت غراب ينعب من بعيد تردد صداه في صدري فتشاءمت وارتفعت ضربات قلبي، اشتممت رائحة الغدر، أقرأ نظراته الزائغة وأنفاسه الكريهة، يتحول وجهه إلى كلب جائع.

حتى أنت أيضًا يا حمو!

أزداد انكماشًا وأشد في طرف ثوبي ليغطي أطراف قدمي في محاولة ضعيفة لستر جسدي، أفرد ذراعي أمامي كأني أوقفه مكانه وأتكلم بصوت خفيض مهادن:

- حمو؛ ماذا جرى لك؟

لماذا تنظر إليّ هكذا؟ أنت تخيفني.

أنت... أنت علامة على للرجولة والشهامة.

استعطفت مكملة:

- تذكّر أيام طفولتنا كما كنت طيبًا، تحميني من الجميع، إنها أنا مريم.

ألا تتعرف على وجهي؟

تعود دموعي للانهمار عندما لا تُحدث كلماتي أي تغيير في ملامح وجهه، ما زال جامدًا زائغ النظرات يتحرك كدمية نحوي، يخلع قمصيه ليظهر جسده العاري الغارق في الجروح القديمة ملتمعًا من العرق البارد!

ينقض عليّ بسرعة خاطفة، لكني كنت متوترة ومستعدة، فأتفاداه للطرف الآخر من الأريكة وأنا أصرخ، يعدل من جسده ويعيد القفز، أحاول الهرب لكنه كان أسرع، أمسكني من شعري بقبضة مؤلمة، جذبني نحوه بعنف فصرخت مجددًا متألمة.

أغرس في وجهه أظافري وأقفز بعيدًا عنه حتى تصبح المائدة الصغيرة بيننا، يحاول الإمساك بي لكني أحاول الإفلات وعيني معلقة على الباب من خلفه، أستمر في محاولة العبور من خلاله فأركل المائدة بكل قوتي لتصطدم بقصبة رجله اليمنى فيصرخ متألمًا ويسقط على الأرض ويتناثر حوله ما كان على الطاولة.

أستغل الفرصة وأعدو نحو الباب، لكنه كان أسرع فأمسك بقدمي وأسقطني وجثم فوقي، صفعني بيمناه بقوة أضاعت تركيزي لثوانٍ كانت كافية ليمزق باقي ملابسي، يعتصر ثديي بقوة مؤلمة، يثبت ذراعي بجوار جسدي أسفل ركبتيه فأشعر بأنفاسي تضيق، يداه الآن خاليتان ليفتح بمنتهى التعجل أزرار بنطاله ليطلق سلاحه منتصبًا بكامل القوة، يحتك بجسدي فيزداد هياجي وأخبط بقدمي على الأرض وأنا أصرخ بكل ما في صدري من يأس، أحاول تحرير نفسي بلا فائدة، فهو قوي الأعصاب رغم تعاطيه للمخدر.

ينجح في مهمته أخيرًا، يصبح شبه عارٍ ويعيد النوم على جسدي بكامل طوله الفارع؛ يكبل ذراعي بيد واحدة أسفل جسدي وبالأخرى يفتح ما بين ساقي غصبًا وأنا أقاوم وأركز كل حياتي في عضلات فخذي، أضمهما وتتعالى صرخاتي حتى أحس أني جرحت حنجرتي.

وتحدث المعجزة؛ طرقات عالية تزحزح الباب، فتشتت حمو للحظات كانت كافية لأرفع ركبتي وأركله بأقصى قوة بين ساقيه، فيعوي مثل الكلب؛ أدفعه عني في نفس اللحظة التي يتكسر معها باب الغرفة ويظهر عم جبريل بضخامته وجسده غير المتناسق، غير أنه في عيني الآن مثل ملاك منقذ. من نظرة واحدة في الغرفة المبعثرة فهم كل شيء؛ تلاقت

نظراتنا للحظة وثبتت نظراته على حمو المتألم، الآخذ في الاعتدال واقفًا يرفع بنطاله، يصيح بصوت متألم وهو يلملم نفسه:

- كيف تجرؤ أيها الشيخ الأحمق على اقتحام حرم بيتي؟

هل نسيت من هو حمو؟ أم أن الحشيش قد أطار عقلك، دعني أعيدك إلى عقلك.

مدّ يده في جيب بنطاله الخلفي وأخرج مطواته الشهيرة؛ وفتحها في حركة سريعة ملوّحًا بها في ضربات رشيقة للهواء وهو يزن جسد خصمه الضخم بعينه الوحيدة، تسللت ببطء وراء عم جبريل الذي بدأ صوته في الارتعاش؛ فكلنا يعلم حمو وضربات مطواة حمو التي لا تخطئ، تكلم وهو يتراجع معي للخلف بخطوات حذرة مداهنة:

- اهدأ يا حمو، مريم مثل أختك وبنت منطقتك؛ لا يصح ما كنت ستفعل يا ولدي، بالتأكيد هي المخدرات التي أثرت على عقلك الذي يزن بلذا.

لكن حمو لم يسمع، وقفز عليه يعميه الغضب وهو يرفع المطواة عاليًا نحو رقبة عم جبريل، تسمرت في مكاني وأنا أصرخ فكلانا يعلم أن مصير تلك الضربة هي الهدف بالتأكيد، ولكن برغم ضخامة جبريل رفع يده بسرعة وأمسك كف حمو التي تحمل المطواة مما أثر على الأخير فأرتج عليه لثانية استغلها عم جبريل كأفضل ما يكون. بكل ما في جسده من قوة وطوله من عزم أطلق جبهته في أنف حمو فتفجرت منها الدماء وفقد اتزانه، التفت عم جبريل وأمسكني من كتفي لنخرج بعيدًا عن هذا المكان الملعون، لكن حمو أفاق من صدمته سريعًا -ربما ما تعاطاه قلل إحساسه بالألم- وقفز متعلقًا برقبة عم جبريل من الخلف بكل ثقله؛ ما أدى إلى اختلال توازنهما مع فسقطا أرضًا.

واشتبك كلاهما في صراع متوحش من خمش وعض ولكم وركل، صراع كلاب مسعورة بلا قواعد. بدأت الكفة تميل لحمو بخفته ورشاقته على عكس جبريل الذي تثاقلت أنفاسه وبدأ يفقد القدرة على المواصلة، أحس حمو بذلك فاعتلي بطن جبريل المدلاة ورفع مطواته لينهي هذا القتال إلى الأبد، لكن جبريل في لطمة أخيرة تفادى الطعنة فأصابت كتفه بدلًا عن قلبه، فصرخ بصوته الأجش متألمًا.

صوت الصراخ أفاقني من ثباتي، تلفتُ حولي في ذعر فلمحت سكين تقطيع الحشيش ملقاة على الأرض، أمسكتها وبكل حقدي طعنت حمو في كتفه، حاولت سحبها لأطعنه مرة أخرى، لكن السكين المشرشر انغرس في اللحم ورفض أن يخرج، تراجعت للوراء مع تفجر نافورة دم مختلطة بين الغريمين ملوثة كفوفي.

مع فقدان حمو لتركيزه عاجله جبريل بلطمة في نفس موضع سكين الحشيش فانغرست

أكثر وتلطخ الرجل بالدماء كأنه كان يستحم أسفل أضحية العيد؛ لكن ذلك لم يمنعه من دفع حمو من فوقه الذي سقط على جانبه منهكًا غير قادر على مواصلة القتال، تحامل بعدها عم جبريل على ركبتيه وعلى كتفي ونحن نغادر هذا المكان النجس لا نعلم إلى أين.

وأنا أدعو بأن تكون هذه آخر مرة أرى فيها وجه حمو المقيت.

لكن على ما يبدو كانت أبواب السماء مغلقة!

## سِفر التوبة

مرت الأيام متوترة في البداية ثم هادئة نسبيًا، تعافى كتف جبريل وأخذ في الالتئام حتى قارب على الشفاء بسبب بنيته الضخمة التي ساعدته بالتأكيد إلى جانب شراهته للطعام، أقامت معه مريم في منزله تداوي جراحه كأقل ما يكون عن رد الجميل؛ فوقفته إلى جوارها لن تنساها مهما حيت.

إضافة إلى أنها لا تجد منزلًا آخر يؤويها!

فتولّت كافة أمور البيت، مثل نحلة نشيطة مسحت آثار حياة الرجل العزباء، تجلت بصمتها الأنثوية من كل ركن، رائحة المنظفات غزت هواء الغرفة الذي كان أقرب لريح المقابر بسبب عدم التهوية، زارت الشمس المراتب والوسائد فهربت منها الحشرات-والبق تولي الأدبار، أطلقت يدها بحرية في مختلف الأشياء التي يتناساها الأعزب بطبيعته الفردية، نفثت الحياة في أواني الطبخ القديمة فصلصلت فيها الأطعمة الساخنة، تخلصت من الأطباق المكسورة والعلب الفارغة أو الزجاجات المهشمة فبقي منها ما يصلح فقط للاستخدام الآدمي، هربت روائح العطن من النوافذ المفتوحة، حل مكانها عبق البخور المحبب لأنف الشيخ إكرامًا ليوم الجمعة، بل تكرر التبخير يوميًا بعد صلاة العصر، حتى دولاب غرفته الصغير تراصّت فيه جلابيبه المعدودة مغسولة ومكوية، البهجة والشباب هزما جحافل البرودة والشيخوخة، الغرفة تحولت لبيت متكامل بُعث من أسفل التراب، حولت الدار إلى بستان وتحولت مريم مع الوقت إلى زهرة البستان.

حاوت تغذيته بقدر الإمكان لتساعد الجرح على الالتئام، طلبت منه على استحياء بعض المال من أجل متطلبات المنزل فلبى على الفور بكل ما كان في محفظته الجلدية العملاقة، ولم يبقَ معه إلا جنيهات معدودة، وبالفعل كان جزاء الإحسان هو الإحسان، عاد يومها من صلاة العصر متألقًا يمشي ببطء، لكن ما إن اقترب من شارع البيت حتى أسرع الخطى، فالرائحة الفائحة من النوافذ لا تقاوم، التهم يومها حمامة كاملة محشوة بالأرز البني المبهّر، مصحوبة بطبق عملاق من البسلة الخضراء بالجزر الغارقة فيها قطع اللحم الدسمة مع رغيفين كبيرين.

ثم أتبع كل ذلك بكوب ضخم من الشاي الأسود بالنعناع يحتسيه على مهل وهو يتجشأ في خفوت داخل كف يده المضمومة، كنتيجة طبيعية تراخت جفناه في كسل لكن في سعادة؛ فقد عاش طويلًا على الطعام الجاهز والمعلبات حتى جفت معدته كما أخبرها، بعد أن

قال:

- تسلم يديك يا ست البنات.

برغم أنه تعمد معاملتها لا كضيفة بل كصاحبة بيت، لكن مرت عليها أوائل الأيام في أرق نسبي؛ تستيقظ صباحًا تشعر ببعض من الصداع مصحوبًا بالضياع، لا تدري أين هي؛ تأخذ بضع دقائق لتتجاوز شعور الهلع وتستعيد توازنها، يصفو عقلها ببطء كأنها خرجت من شبورة ما بعد الفجر الشهيرة في الإسكندرية، تسرح قليلًا مفكرة في أنه كم من المدهش ارتباطها بالموجودات حولها حتى في تفاصيل الأشياء البسيطة مثل سريرها، السقف الذي تراه ما إن تفتح عيناها فتألف تشققات دهانه، حتى مقبس الكهرباء الذي تتذكر مكانه في الظلمة بلا مجهود، صرير السرير في نقاط محددة خلال الليل مع تقلب بدنها عليه، تلك التفاصيل هي ما يربطها بالمكان.

يذكّرها هذا كم هي هشة وحيدة، فتغرورق عيناها بدموع بسيطة تكفكفها حين تجد الشيخ نائمًا على الأريكة التي بالكاد تتسع طوله الفارع أسفل النافذة.

الحق أن جبريل رغم ضخامته وصوته الأجش وملامحه الغليظة رقيق الحاشية ليّن الطباع. تعامل معها بأبوة واضحة بلا أي أغراض أو مطامع، يومه سهل بسيط، فلا عمل له إلا إمامة الناس في الزاوية. والعجيب في الأمر أنه لم يتلقَّ أي تعليم ديني خاص يؤهله لشغل مهمة الخطيب بل هي المصادفة البحتة، منذ كان شابًا في مقتبل العمر مع أواخر السبعينات أوائل الثمانينيات انتشرت موجة من التدين والتزام الشباب من الجنسين؛ مظاهر الملبس الإسلامي من حجاب نسائي وجلباب ذكوري مقصّر مع السروال الأبيض، أضاف إليها جبريل لحية شعثاء رغم صغر سنه وقتها، اندمج في التدين وساعده على ذلك شغفه بكتب التفاسير الموجهة لتغذي فيه إحساس التفوق رغم عدم إجادته أي شيء، تخبره بأنه الأفضل بين أهل الأرض لمجرد أنه ولد مسلمًا، فأدمنها، ولم يأخذ منها إلا القشور، وعكسها على شخصيته، فأصبح مطرقًا من باب غض البصر، ومتحفظًا لا يميل إلى الدعابات، بل أقرب إلى التجهم.

التزم بالصلاة في الزاوية وتعوّد الناس على رؤيته، وسبقوا اسمه بكلمة (الشيخ) كعادة البسطاء مع كل ملتحٍ، في يوم جمعة ما تغيّب الإمام المعيّن من الوزارة فلم يكن هناك حيلة للمصلين غير الدفع بجبريل دفعًا لاعتلاء المنبر وإلقاء الخطبة، صعد الدرجات القليلة وكأنه ولد للتحدث أمام الجموع، فلم يتعرقل إلا قليلًا، ولم يتعرّق إلا كثيرًا، لكن الإلهام تملّكه فأسهب وأجاد وصال وجال في وصف جنات النعيم وعذابات الجحيم، حتى انفعل المصلون واندمجوا، بل دمعت بعض العيون تأثرًا.

وكأنما كان قدره أن يصعد المنبر ولا يهبط أبدًا، فلم يعد الإمام الراحل قط، وتناقلت الألسن أنه هرب خوفًا من بطش بلطجية المنطقة وتهديداتهم المستمرة، فقد كان حادًا في انتقاده لتجارة المخدرات التي انتشرت حتى أصبح لكل صنف بائع محدد يُعرف بالاسم والمكان، ثارت حمية الدين في عروق الإمام الهارب. أخذ يجلد الناس بسياط الكلمات والحديث عن الإثم والعذاب المنتظر؛ ما أثر سلبًا على مبيعات التجار فتحرشوا به ذهابًا وغدوة؛ ما حتَّم هروبه والبعض قال إنه ربما قُتِل.

لكن جبريل ابن المنطقة الأكثر فطنة تشرَّب القواعد منذ الصغر، وزادته هداية رأس الذئب التي طارت، فلم يقرب في خطبه إلا من الترغيب بالجنة والأحاديث العامة التي تبتعد عن الموضوع الشائك، فلم يثر حفيظة التجار فطال به الأمد في منصبه، لم يتحدث عن السياسة فتغاضت عنه الحكومة هي الأخرى، مرت عليه السنين عاشها هانئًا مطمئنًا وهو يقنع نفسه بأن ما يفعله حلال، فهو لن يغير الكون، ويجب عليه ألا يلقي بنفسه إلى التهلكة.

وكان لخطبه المائعة تأثير السحر، فعادت التجارة الآثمة للانتعاش، ما أكد للباعة تأثير من يقف على المنبر في نفس الصياد والبائع والرجل البسيط، فقد يكون الشاب منحرفًا، لا يصلي إلا الجمع، يرتكب كل الموبقات، يضرب زوجته كل مساء، إلا أنه متدين بطبعه، وكلام الشيخ صاحب الذقن مقدس لا يؤخذ أو يرد عليه، هنا اجتمعت الرابطة غير المعلنة لتجار (الصنف) وقررت تقريب جبريل منها لتحقيق هدفين، فيصبح يدهم التي تبطش وأداتهم لرفع مستوى المبيعات من ناحية، ومن الأخرى أن يسيطروا عليه أو لنقل (يكسروا عينه) فلا يفكر في العودة إلى سيرة الأقدمين.

وقد كان، فاختاروا شبابًا منهم مقاربين لسن الشيخ الغرير، فتقربوا منه، وبدأ عرض الحشيش عليه، الحق أنه رفض في أول الأمر، لكن البعض منهم كان مقنعًا كما يجب أن يكون تاجر المخدرات، فهو مندوب مبيعات في المقام الأول، وشيئًا فشيئًا جرب الحشيش، وبدأ في التعود على حالة الاسترخاء الذهني التي يسببها، فهو لا يسكر ولا يذهب العقل. للإنصاف، دعني أقول إن ضميره أخذ في تأنيبه أولًا، فكيف لشيخ يخطب في الناس ويدعوهم للصلاح أن يتعاطى الحشيش!

لكن نفسه سوَّلت له أن الحشيش نبات على الفطرة، وكل ما هو على الفطرة حلال، وليس بخمر حاشا لله، إلى جانب أن رئيس الدولة في ذلك الوقت أشيع عنه تدخين الحشيش في الغليون، فأين هو من الرئيس المؤمن؟

ما إن هدأت خواطره حتى أقبل فأصبح متعاطيًا دائمًا للحشيش المجاني، من وجهة نظره

هي هدية منهم مقابل دعوته لهم بالهداية، نعم فالأصدقاء يحضرون المعلوم يوميًا لضمان استمرار احتياج الشيخ لهم؛ فيتمنّع رافضًا كما هي التقاليد في البداية، يلحُّ المعطي أكثر، في النهاية يقبل جبريل على مضض فيتظاهر الآخر بمحاولة تقبيل يده ويطلب دعوة حلوة بالهداية والبركة في الرزق!

أما من وجهة نظرهم فهي أتعابه عن غض الطرف وعدم الخوض في المحظور، والكل راضٍ بحاله.

رغم تكتُّم وسرية عمليات التسليم والتسلُّم لكن الخبر تسرَّب على هيئة شائعة تحتمل الصواب والخطأ، ولأن آفة المنطقة هي الكلام، فمن وجهة نظر الناس أن لكل إنسان زلة ولا بشر كامل؛ ومن كان منكم بلا خطيئة فليرمه بحجر، تغاضى الجميع عن الكلام في الموضوع وتناسوه مع تبدُّل المجريات وشظف الحياة، إضافة إلى السعي اليومي على لقمة العيش.

أما من علم بسره الدفين فقد استحى ولم يجهر بما يعلم؛ حتى لا يطعن العالم الجليل في ظهره ولا يأكل لحمه، البعض الآخر منهم كان له مع نفسه وقفة وتقبل الأمر من وجهة نظر غير مطروقة؛ ألا وهي الشيخ الورع له زلته، فأين هو ممن أعطي من العلم الكثير؟

وإن كان رب البيت بالدف...

كل هذا الكتمان المستباح ساهم في حفاظ جبريل على صورة العابد المتنسك، لم ينقص من الهالة المحيطة به، ولما ذاع صيته قرَّبته الدولة متمثلة في ضابط المباحث الموكل بقسم المنطقة، الذي بدوره أصبح الموجِّه لخطبة الجمعة التالية فلا تخرج عن النبراس وإلا...

كعادته في عقد الصفقات التي تساعد في استمرار الأمن مستتبًا؛ غض الطرف عن أن جبريل لا يحمل ما يؤهله للوعظ الديني مقابل الصمت والطاعة، ما أدى إلى تحوله لأداة في يد الضابط للتحكم في اتجاه الخراف، توزعت الأدوار هو يأمر والشيخ يبلغ والناس تنفذ، حرِّم عليهم التفكير، حرِّم عليهم التشكيك حتى الاعتراض، المفكر كافر والمشكك كافر والمعترض كافر، وهو يملك مفتاح النار، وكلهم إليها وفيها مخلدون.

ولكن رغم ذلك عرف عن جبريل عدم المغالة في التشدد بعكس ما كان متبعًا في تلك الفترة من عمر مصر؛ فدخل قلوب الناس، وأصبح قبلة البسطاء في الفتوى، إما للحصول على البركة وشأن الآخرة أو تيسير أمور الدنيا، هذا طلق زوجته ثلاثًا وهو غضبان فلا تحسب، تلك سرقت من جارتها بيضتين لتطعم أولادها في حين أن جارتها جائعة أصلًا هي الأخرى فلا جناح عليها، كل يأتي بسؤال ويعود بفتوى تلقى هوى في نفسه، أما الشيخ جبريل فيتلقى عطية بسيطة على قدر ما تجود به الأنفس، فأصبحت تلك العطايا مع صندوق نذور

وتبرعات الزاوية مصدر رزقه، إلى جانب مجموعات بسيطة لتفسير نصوص الدين والحديث للأطفال بمقابل رمزي لم يكن الإقبال عليها كبيرًا.

تراه بعد صلاة العصر يجلس متربعًا في الزاوية تحيط به دائرة من الصغار لا تتعدى أصابع اليد الواحدة، يشرح لهم ما يقولب عقولهم من الفقه ويساعدهم في حفظ قصارى السور، يندمج ويخيل إليه أنه ناصح الأمة ومجدد الدين ومربي النشء. فيندمج ويتمايل في التلاوة التي لم يدرسها كما يجب فيخطئ في المد والسكون دومًا، لكن من يراجع وراءه؟ بعد نهاية الدرس قبل صلاة المغرب يلملم القروش الضئيلة منهم قبل إقامة الصلاة.

أحيانًا كان يقدم خدماته الأخرى متمثلة في إدارة دار المناسبات الملحقة بالزاوية، الحقيقة أنها لم تكن يومًا دارًا للمناسبات بأي حال من الأحوال؛ بل صوانًا مزركشًا بالنقوش الرمضانية الحمراء المألوفة، يقيمها منتصبة بجوار الزاوية فتزيدها اتساعًا، يضع بداخلها ثلاث أرائك خشبية ونصف دستة من الكراسي المعدنية يخزنها في غير أوقات العزاء خلف مصنع الألعاب النارية البدائي في طرف الحارة، بعدها تصبح الزاوية بمعجزة ما دارًا للمناسبات، يتولى هو فيها القراءة بصوته غير المستحب الضليع في أخطاء التلاوة يتبعها بالدعاء للمتوفى، في حين يتولى مكرم صبي القهوة المشروبات المعتادة كعمل إضافي بمكسب معقول والقليل من البن المسروق، في نهاية اليوم يساعده في إعادة تجميع السرادق المرتجل ويتسلم أجرته من جبريل الذي استلمها بدوره من أهل المتوفى الثكالى.

ذلك لأنه لم يسمح لنفسه يومًا بأن يأخذ مالًا من تجار الصنف، ربما ليحافظ على صورته أمام نفسه أو ربما خوفًا من أن يلمح له أحدهم بسره، فيقبل عطايا الفقراء ويسهل لهم دنياهم، لكنه يرفض عطايا الآخرين؛ فمالهم حرام لتجارتهم في أنواع مخدرات مضرة ليست على الفطرة، أما لو اكتفوا بتجارة الحشيش فهي حلال في شرعه، وقتها لقبل منهم ما لم يقبله سابقًا.

وها قد دارت الأيام وأثبتت ان دوام الأحوال من المنال، تشهد المنطقة جبريل المتعافي بشكل شبه كامل يمشي عائدًا من صلاة العصر في هذا اليوم الغائم المنذر بالويلات، بعد أن صرف الأطفال وألغى الدرس اليومي بسبب الإصابة التي تؤلمه من وقت لآخر وتؤثر في ركوعه وسجوده.

يمشي كعادته متباعد الساقين قليلًا في خطوات واسعة تدعم قامته المديدة، بطنه المتدلي يتأرجح بفخار أمامه في رجرجة خفيفة، صدره العريض إلى الأمام؛ منكّس الرأس بزاوية بسيطة إمعانًا في غض البصر حتى لا تقع عينه على الحرمات. يتلو الأذكار متمتمًا بصوت خافت وهو يسبّح بمسبحة فيروزية بلاستيكية بهت لونها لكنه يحبها بشدة، أهداها

له أحد المعارف عندما كان عائدًا من الأراضي الحجازية فاكتسبت تقديسًا خاصًا في نظره.

يرد تحية القاصي والداني بحركة تلقائية معتادة، فلا يقطع التسبيح الخفيض، بل يرفع كفه ذات الأصابع الغليظة بحذو وجهه الدائري ليصل إلى جبهته العريضة في حركة أقرب إلى التحية العسكرية، ولا ينسى وهو عائد أن يمسح على الوجه كله في تدبُّر من أول زبيبة الصلاة البنية العملاقة حتى نهاية اللحية الكثة غير المقصَّرة التي صار يعتني بها حدَّ الهوس.

يلاحظ المدقق أن كتفه الأيسر أصبح متهدِّلًا بعض الشيء عن أخيه الأيمن جرَّاء إصابة معركة حمو، لكن ذلك لم يُقعِده عن صلاة الجماعة وإمامة الناس، إلا أنه أصبح ينهيها بسرعة باستخدام قِصار السور؛ ولا يصلي النوافل إلا لمامًا ثم يقفل عائدًا إلى منزله المتواضع بسرعة؛ فهو مصاب وليس على المريض حرج كما أقنعته نفسه، أما الخفي من النية فهو أمر آخر، ألا وهو وجود مريم في المنزل الذي أضفى بهجة غير عادية على المكان ورفع عنه الكآبة والحزن.

يتذكرها فترتسم على محياه بسمة مضمومة، حضورها ظهر بشكل تلقائي في التفاصيل؛ في بيت نظيف تدخله الشمس بشكل منتظم، في طعام شهي رائحته تنطلق في الأرجاء قبل حدود المنزل بمسافة غير هينة، كل هذا غير مريم نفسها؛ فهي هادئة، مسالمة، مستكينة، طيبة الفؤاد، مرهفة المشاعر، جمالها مريح، بشوشة، ريحها خفيف كما يقول بينه وبين نفسه.

لكن نفسه تلك ما تلبث أن تراوده عنها وتزكيها في عينه فيضبط نفسه يراقبها خلسة في ذهابها وعودتها في أثناء جولاتها التي لا تهمد لتنظيف المنزل، صحيح أنها دائمًا ترتدي جلبابها المنزلي المحتشم في وجوده... لا تفتح زرًا أو تكشف فخذًا، غير أن انحناءة جسدها البض تخونها خلال تنظيف أسفل السرير، تترجرج تضاريسها في القيام والقعود وهي تشبُّ على مشط قدمها لتصل إلى الغبار المتراكم فوق الدولاب، يختلس النظرات لها وهي تطبخ، تنظف، تغسل ملابسه في الحوض الأبيض المتقشر، وبعد أن تعصره تثبِّت كل قطعة بمشبك وحيد فوق الحبل، تضع باقي مشابك الغسيل في فمها وفي ياقة الجلبات الوردي -الذي لم تخلعه منذ حضورها إلى غرفته إلا لغسله عندما لا يكون موجودًا- يصاحب روتينها صوت أم كلثوم في الخلفية يؤنس وحدتها ويشعل جذوته، يتفصَّد العرق من منابت شعره وتحمر وجنتاه مع جحوظ بسيط في عينيه، كل حركة منها تثير في قلبه الرجفة، بل وتهرب منه دقة، يسرح بالخيال وهو يمسكها، يضمها، يقبلها، ويفعل بها الأفاعيل، فيشعر بنصفه السفلي يكاد يمزق الجلباب.

يفيق بعد برهة فيستعيذ بصوت مرتفع ويحول بصره، لكن الصورة تكون قد انطبعت في مخيلته، وما كان قد كان.

ما زاد همه وأرّق منامه أن الجميع يتهامسون ويتساءلون: ما هو مبرر وجود فتاة شابة مثل مريم في داره دون رباط بينهم؟

الكل علم بما حدث، لكنهم وضعوا رؤوسهم في الطين، من يستطيع ملامة حمو على زلاته، ما من رجل إلا لديه نوع من المزاج يمتلكه الأخير، فإن لم يكن خوفًا من انقطاع الكيف، فرعبًا من مطواته الغادرة.

لكن الشيخ لا ظهر له إلا هيبته الدينية، فما الضرر من أن نغتابه قليلًا أو نضربه على بطنه مثل قول المثل الشعبي القديم، الكلمات المسمومة تصل إلى أذنيه فتدميهما لكن ما باليد حيلة؛ فلا يستطيع إلقاء الفتاة لكلاب الأزقّة فيمزق منها الرائح والغادي قطعة، ولا يقوى على إبقائها بلا مبرر.

ما زاد الأمر صعوبة هو مريم نفسها، فبدون مقدمات اعتبرت نفسها ابنته، آنست وحدته واهتمت لأمره، أفاضت عليه من مشاعر البنوة التي لم تعشها في طفولتها، أما هو فكثيرًا ما بادلها نفس الشعور لكن إلى حين!

في الأحيان الأخرى تزين له أبخرة الحشيش جسدها، فتشعل حواسه بنار الرغبة؛ يقاوم ويحاول إطفاءها، فإن لم تفلح الاستعاذة فلا مبرّد أكثر من ماء الصنبور في شتاء الإسكندرية، يهرع إليه قائمًا من فوره يتوضأ ويسبغ الوضوء دامع العينين من الندم، حتى تهدأ جوانحه فيئد الرغبة تمامًا بركعتين في جنح الليل، يلملم الكليم المهترئ الذي يصلي عليه وهو يتنهد تنهيدة صادقة ينهيها بـ(الحمد لله) عميقة من قلبه الذي استعاد جلاء إيمانه.

لكن الأمر يتفاقم والمسكنات الروحية تأثيرها يقل، وإقباله على الحشيش يزيد؛ كأنما يعاقب نفسه بالاستمرار في حالة اللا سلم واللا حرب!

أخذته الخواطر، فلم يدرك أنه يمر الآن بالمقهى المعتاد لعاطلي المنطقة إلا مع نداء إدريس عليه بصوته قوي النبرات.

إدريس الحاضر الغائب، الوحيد الذي يعتبره جبريل صديقه، بل أخاه، فكثيرًا ما يشعر بأنهما من أب واحد، أو على الأقل من جد مشترك.

يتشاحنان كثيرًا ويتفاهمان أكثر، إدريس بعكسه تمامًا، فاحش اللسان سليطه، مسرف ينفق ببزخ من مكاسبه في التجارة التي لا يعلم عنها أي شخص أي شيء، بعض سكان المنطقة يقولون إنه يذهب لمتابعة تجارته في دمياط، لأنه يمتلك محل حلوى ومشبك عملاقًا ذا بابين، يدر عليه من الرزق الوفير، آخرون يقولون إنه يتاجر في كل الممنوعات بداية من

الحشيش بأنواعه مروزًا بالسلاح ونهاية بتجارة البشر وأعمال النخاسة.

لكنها بالكامل مجرد أقاويل ونميمة سهر الليالي ليس أكثر؛ فلم يثبت عليه أي من ذلك، كل ما هنالك أنه يختفي بالأسابيع، يدور في بقاع الأرض -كما يقول- يتاجر في كل ما يخطر ولا يخطر على بال بشر، وعندما يعود يعلم الجميع أن وقت الاحتفال قد حان، كل من يحب نوعًا معينًا من الخمور أو الحشيش يطلب ما تشتهيه نفسه وحسابه عند إدريس.

ويتعجب سكان المكان كيف لجبريل أن يصادق من هو على شاكلة إدريس! أيمتزج الماء والزيت؟ لكنهم ينسون أن أصل الاثنين سوائل، كثيرًا ما يسأل جبريل نفسه هذا السؤال ولا يجد إجابة، فيخدع نفسه بأن الهداية ليست بيده، وما عليه إلا الدعاء لصديقه الوحيد.

رغم اختلافهما الواضح، لكن إدريس دائمًا ما يقرأ جبريل بمجرد النظر في عينيه، وهذا ما يفتقده جبريل في الآخرين بشدة، فكل دائرة المحيطين به تخطب وده وتبجله لهالته الدينية أو طمعًا في صك الغفران، حياته مزدحمة نسبيًا. الناس يشغلون نهاره في الذهاب والإياب، فذلك يوقفه ليسأله الفتوى وتلك تقبل يده راغبة في دعوة مجانية.

لكن ما إن يجنُّ الليل ويغلق عليه باب غرفته البائسة مثله حتى يعاني أشد مرارات الوحدة العقلية، مريم الآن تؤنس الوحدة المكانية، لكن الوحدة النفسية، الخواء الذاتي، التمزُّق بين ما يراه الناس وما هو عليه بالفعل، كل ما يعتمل في نفسه من وجع، لا يشعر به ولا يقرأه إلا إدريس صنو روحه.

لأجل ذلك كان إدريس هو الوسيط المثالي!

فما إن سمع نداء إدريس عليه حتى تهلل وجهه وأقبل عليه ممنيًا نفسه بفضفضة طال غيابها، وجده يجلس بكتفيه العريضين وقامته القصيرة قبالة رجل آخر من أبناء المنطقة يلعبان الدومينو، تركا ما في أيديهما ورحبا بالمقبل عليهما في حبور، قام الرجل يحاول تقبيل يد جبريل الممسكة بالسبحة في تبجيل لكن الأخير سحبها متباطئًا كما هي عادته مظهرًا الخشوع طالبًا الغفران، تحلق الثلاثة حول المائدة المستطيلة وأكمل المتحاربان دور الدومينو حامي الوطيس.

تأمَّل جبريل اللعبة التي شارفت على الانتهاء متسائلًا في قرارة نفسه: لماذا لا يتعلم الناس؟ لماذا يصرون على ملاعبة إدريس؟

هو حرفيًا لا يُهزم؛ لم يره يومًا يُقهر، طالما كان مسيطرًا في هذا المجال، فمهما كانت اللعبة؛ طاولة، ورق أو حتى دومينو فهو المنتصر، وهي قاعدة لا تنكسر على الإطلاق.

في لحظة صفاء بينهما سأله جبريل عما يعتمل في نفسه، كيف لشخص مهما كان احترافه أن يبقى بلا هزيمة واحدة، وكان رد إدريس أن أسفاره المتعددة وعمله في التجارة مع كافة صنوف البشر مكنته من قراءة الوجوه، فلا يخفى عليه ملامح اقتراب هزيمة الخصم حتى مع أشد الرجال كتمانًا، يستطيع رؤية أوراقه تنطبع على عينيه ويستشف حركته القادمة ويعكسها قبل حتى أن تحدث، طالما اعتبر جبريل أن هذا الكلام من قبيل المبالغة أو المواربة، لكن الأيام أثبتت أن إدريس خبير لا يشق له غبار في فن قراءة الملامح واستنباط مكنون النفوس.

والدليل يتكرر أمام جبريل الآن، إدريس يجلس في راحة يتأمل بعينيه الشبيهتين بالصقر تفاصيل الملعب في جمود كأنما قُدَّ من حجر، لا دليل على أنه ما زال حيًا سوى الأبخرة المتصاعدة بكثافة من نارجيلة أمامه تحمل رائحة معسل القص الصافي، فإدريس لا يغمّسه بأي نوع من المكيفات، يده اليسرى ذات الخاتم الضخم تحمل عدد من بلطات اللعب الخزفية، يمسكها عرضيًا في استهتار ظاهري على طاولة، يده الأخرى تضع المبسم في فمه يسحب منه بانتظام.

على العكس، يجلس الرجل المنافس لإدريس مرتبك النقلات، تتسع فتحتا منخاره، متصبب العرق من كل مكان.

ساعدت الأجواء والروائح الغنية المصحوبة بصوت أم كلثوم وهي تبكي على الأطلال من مذياع الراديو المخروش جبريل على الاسترخاء النسبي، أسند ظهره إلى الكرسي الخشبي وتسلى بالتسبيح الخفيض ينتظر فراغ المتصارعان من المعركة المحسومة.

بقي المشهد على جموده للحظات طالت. الغريم يتأمل والحيرة ترتسم على عينيه المتراقصتين مصحوبة بالمزيد من العرق الكثيف المتفصد عن جبينه رغم برد الشتاء، وعلى العكس إدريس هادئ وثابت، الطرقات من الموائد المجاورة لا تفقده تركيزه، ثم أخيرًا أطلق الخصم قذيفته واضعًا إحدى بلاطاته على أرضية اللعبة الخشبية المبطنة بالقطيفة الخضراء وهو يرفع عينيه إلى إدريس في تردد، هنا تحرك الصنم وتشققت ملامحه الصلبة عن بسمة منتصرة تراقصت أسفل شاربه الكث.

قال وهو يضع بدوره قطعته ببطء متعمد صائحًا بصوت أقرب إلى رصاصة الرحمة للغريم المسكين:

- قفلت.

وأكمل دون أن يرفع عينيه عن عيني خصمه المهزوم إمعانًا في إذلاله، مخاطبًا صبي

القهوة:

- الزنجبيل بالعسل لعمك الشيخ جبريل يا مكرم، ولا تنس محاسبة الأفندي على المشاريب يا ولد... واتوصّى.

ارتسمت أعتى معالم الضيق على الخاسر وهو يعلم فداحة ما سيدفعه، فصبي القهوة الملعون يستغل تلك المباريات ليغالط المهزوم ويغالي في حجم المشاريب ويدس الفارق خفية في جيبه، همّ بالقيام يركبه الهم، لكن إدريس أمسك به بذراع حديدية قائلًا بصوت تعمّد أن يكون مسموعًا لكل رواد المقهى وهو يدس في يده لفافة صغيرة:

- انتظر. لا يخلّصني أن ترحل مكسور الخاطر، ضع قطعة مثل رأس الدبوس أسفل لسانك مع كوب شاي أسود ثقيل قبل أن تعود إلى الجماعة بالمساء.

غمز بعينه في فحش مكملًا: صدقني ستعدل المائل وتحيي الميت.

ترددت الصيحات والضحكات في جنبات المقهى تجلد الخسران بسياط السخرية فانسحب ممتقع الوجه، إلا أنه لم ينس اللفافة فدسها في جيبه رغم ما جرى.

التفت إدريس لجبريل بكامل جسده وربت على فخده؛ منتظرًا حتى هدأت الضحكات والدعابات التي لاحقت المنسحب وتشاغل الجميع بشئونهم ونميمتهم، ثم قال بصوت آمر:

- أريدك في أمر مهم، وأعلم أنك لن تخيب وساطتي.

تعجّب جبريل، فدائمًا ما كان إدريس يتبع ذلك الأسلوب في الكلام، تسمعه فتظنه يطلب، تنظر إليه فتراه يأمر!

ما الخطب الذي يتوسط فيه الذي لا حبيب له ولا قريب؟

سحب نفسًا عميقًا من النارجيلة احمرّ معه الفحم، انعكس اللهب على عينيه السوداوين فاكتسبتا حمرة بسيطة، وارتسمت أمارات الاستمتاع على محياه، أعاد رأسه إلى الوراء مريحًا ظهره على الكرسي الخشبي، أطلق سحابة من الدخان الأبيض لأعلى في الفضاء، فاندمج مع باقي أدخنة الآخرين من رواد المقهى، وصار بالسقف المعدني معلقًا ينتظر، مثله مثل جبريل المتسائل بعينين حيرانتين عن الأمر المنشود، لكنه تعلّم بمرور الزمن أن يصمت ولا يتخذ المبادرة مع إدريس، يتركه دائمًا يبدأ الحوار وينهيه، فذلك ما يحبه ويرضاه.

استمرت مباراة الأعصاب بينهما، إدريس غير قابل للقراءة، ويجيد فن إغلاق وجهه عن الآخرين، يُبقي ملامحه مبهمة التفاصيل مثل أعماقه ودوافعه.

لا تعلم ما لون بشرته الأصلي، فالشمس تتلون على جلده طوال الوقت، شعر رأسه مسترسل ناعم وشاربه مشذب بعناية، قسماته الرائقة وحيويته المتدفقة تساهمان في إخفاء عمره الحقيقي فيبدو صغير السن عما يفترض أن يكونه، لا أحد يعلم سنه الحقيقي، فما هي إلا تكهنات، إضافة إلى شخصيته الصلبة ولسانه الباتر بلا رحمة، فهو غير متوقع لا أفعال ولا أقوال، لذا كان من المستحيل على جبريل التكهن بأصل الموضوع المنتظر من فم صديقه اللدود، فبقي يغلي من التساؤلات.

لعبة إدريس المفضلة التحكم في الآخرين، لذا ظل على صمته المسترخي يدخن أنفاسًا عميقة ويطلق سهامًا أعمق من عينيه تسبر أغوار نفس مجالسه، تعريه، تزيح التبجيل والتقديس، وترى القذارة المخبأة، أو هكذا خُيّل لجبريل فزاد توتره، كأنما كشفه يتلصص على الفتاة بين الفينة والأخرى، أو المصيبة الأدهى عندما يحتلم وهو يضاجعها حتى تصرخ فيصحو متأوهًا من النشوة مبللًا من الشهوة منكسًا من الخزي.

رعشة بسيطة في القدم، حكة في الأنف، احمرار في الأذن، فالانتظار قاتل محطم للأعصاب، يوشك جبريل على الانفجار، طفا القلق على وجهه، قرر كسر الصمت والبدء بالهجوم، ففتح فاه وهم بالسؤال في عصبية، إلا أن إدريس كالعادة كان هو المبادر في اللحظة الحاسمة، قائلًا في لهجة أمر مغلفة بالسؤال:

- أخوك وتلميذك السابق حمو أتى وتحدث معي يرجوني أن أتوسط له في عودة المياه لمجاريها بينكما، فهو لم يكن واعيًا بما يفعل.

صمت لبرهة وهو يسحب المزيد من الدخان ثم أكمل بلهجة ذات مغزى وهو يضغط على الحروف:

- ملعونة المخدرات التي أطارت عقله... وبالأخص الحشيش.

وأطلق ضحكة قصيرة بعدها أكمل: هو لا يريد أن يغضبك... فأنت كما يقول (بتاع ربنا).

أنهى كلامه وهو ينظر لجبريل بنظرة من حسم المباراة قبل أن تبدأ، زاد توتر الأخير وبدأ العرق البارد في النزول من أعلى جبهته، إدريس ملك الغمز واللمز يحصل على ما يريد دومًا، ألقى قنبلته كرجاء لكنه مبطن بتهديد خفي عبر تذكيره بالحشيش والصورة الدينية.

نصب الفخ ثم قبع ينتظر على مهل سقوط الضحية بقدميها راغبة.

وبالفعل تكلم جبريل متلجلجًا بعد لحظة صمت: لكنه ضربني...

- وضربته

- لكنه طعنني في كتفي...

- وطعنته واقتحمت بابه وحطمت بيته فوق رأسه.

- لكن...

- لا يوجد لكن، قضي الأمر. الرجل وشطني وبشّرته بالقبول المسبق، سيأتي الآن ليقبل رأسك وتتصافيان وانتهينا.

مال للأمام قليلًا واستأنف بنفس النبرة ذات المغزى وهو يتنهد متصنّعًا: لعن من أدخلوا بينهم النساء ... فهنّ مفسدة.

وقطع جملته مقهقهًا في صراحة هذه المرة، وله كل الحق، فنظرة واحدة إلى ملامح جبريل تؤكد أن النصر تم لا محالة، هربت الدماء من صفحة وجهه، ارتعشت شفته السفلى، احتقنت عيناه. حتى عندما حاول مداراة ارتباكه برشف القليل من الزنجبيل لم يتنبه إلى أن البخار لا زال يتصاعد من الكوب، فجرع منه كمية كبيرة أحرقت لسانه، فسكب جزءًا ليس بيسير على جلبابه، إلا أنها كانت فرصة جيدة ليرتاح، فتباطأ في تنظيف ملابسه وعقله يعمل بلا هوادة، كيف يخرج من هذا المأزق دون اهتزاز هيبته.

إدريس خيّبه الله تعمد التحدث بصوت مسموع كفاية للمجاورين من رواد المقهى، صحيح أن بعض الناس لا تعلم موضوع الخلاف ولا الفتاة المختفية في حصنه الورقي، لكن البعض يعلم. ولو رفض فسيبدو خائفًا، ويستطيع إدريس وقتها أن يلقي خطبة عصماء عن رفض الصلح وأخلاقيات التسامح.

هنا هبط الإلهام على رأسه، فتفتق ذهنه عن فكرة ممتازة تحفظ ماء الوجه وتسمح له بالانسحاب السريع، هدأت نفسه فاستعاد سيماء الورع، ورسم على محياه صفات المغلوب على أمره قائلًا:

- صديقي، أنت تعلم أني لا أرفض لك طلبًا، ولن أكون من رفض سلفًا أو أشعل جزوة خلاف، فلا هي من أخلاقي ولا من سمات المسلم الحق، لكنك تعلم أن حمو -هداه الله- سمعته ليست على ما يرام، يقولون إنه يتاجر في المخدرات والعياذ بالله، لا يصح أن يجلس معي وترانا الناس فتنتشر الشبهات، لذا يجب أن استأذنك في الـ...

بلهجة قاطعة أعاد الضغط على فخذ جبريل وأجلسه بقليل من الغلظة:

- لا يصح يا شيخ جبريل، لا يصح خذلان واسطة الخير، ولا يصح رد السائل... فما بالك بمن كان في صغره يجالسك في الزاوية فتقرأ عليه وتعلمه، هل يصح غلق باب التوبة في

وجه العائد؟

استطرد من بين أنفاس الدخان مكررًا وهو يضغط على الحروف: قُضي الأمر، سيأتي الآن وقد بشرته بالقبول مسبقًا فلا مجال للتراجع.

بالفعل فور انتهاء إدريس من جملته ظهر حمو يمشي حثيثًا من أول الحارة صوب مجلسهما، أسقط في يد جبريل، قُطعت كل سبل الهرب أمامه. توترت جلسته مصحوبة برعشة لا إرادية في ساقه اليسرى.

يبدو أن حمو رغم ضآلة جسده قوي التحمُّل؛ فذراعه غير مضمدة ويتحرك بشكل طبيعي، تعمَّد التأكيد على تلك الملحوظة برفع كرسي خشبي من المائدة المجاورة فوق رأسه باليد المصابة وهو يلقي السلام بلهجة مداهنة قليلًا؛ وجلس في صمت مركزًا بصره صوب إدريس.

الذي أعاد فتح الموضوع موجهًا الكلام لحمو: أبشر يا صديقنا المتهور، أباك جبريل تقبل وساطتي وصفح عنك، قبِّل يده واطلب السماح.

انحنى حمو وهو يتمتم بغمغمة غير مفهومة ولهجة منكسرة يقبِّل يد جبريل في تخاذل وقد انمحت من نفسه أي كبرياء كان يشتهر به، غير أن الأخير سحب يده وهو يستغفر في حيرة من تقلبت عليه الأحوال، كيف لحمو أسطورة المنطقة الذي يهابه الجميع ولا يهاب مخلوقًا -حتى الشرطة تعجز عن الإمساك به أما لرشوة أو سطوة- أن يصبح بهذا الخنوع؟!

تكلم حمو وهو يتلافى عيني جبريل الحيرانتين:

- كنت مغيب الوعي؛ لا أدري ما الذي أصابني فارتكبت بدل الخطأ اثنين؛ تطاولت عليك يا مولانا، واعتديت على حرمة فتاة مسكينة يتيمة، سامحني وادعُ لي بالهداية.

حانت من جبريل نظرة ناحية إدريس الصامت، فوجده يدخن مغمض العينين بملامح جامدة؛ فلم يجد منه لا العون ولا المشورة، ولو أنه استشفَّ الرضا من صمته.

أكمل حمو وقد تهدَّج صوته:

- مولانا، ساعدني في التوبة عن غلطاتي، توبة نصوحة... أنا أطلب منك الصفح، ولك أن تطلب الكفارة التي تشاء، حتى لو طلبت مني تقبيل نعليك أمام المقهى بأكمله، سأفعل. حمو رجل فعل وليس كلامًا.

لم يحر جبريل جوابًا، لكنه شعر بهزة في أعماقه مخلوطة بنعرة كبرياء، دائمًا ما يكسب الدين، قد يصل بك الفجر لتحدي أي قوة في الأرض، الشرطة، الحكومة، أصحاب النفوذ، لكن عند من يستمد قوته من السماء عليك مراجعة نفسك ألف مرة ومرة، فها هي منزلته

كرجل دين يحمل مفاتيح الخلود في الآخرة قد أسعفته مرة أخرى، أعادت له كرامته، حتى وإن كانت بينه وبين نفسه، فهو لن يقوى على إلزام حمو بكلمته وإن رغب بها بشدة، فكم سيرضيه سقوط بلطجي المكس الأول ومورد المخدرات المرهوب الجانب أمام الجميع على ركبتيه يستعطف ويطلب المغفرة، مجرد تخيل الصورة أزال الكثير من توتره واستعاد معه بعضًا من ثقته المهتزة في الآونة الأخيرة.

استغل حمو صمت الشيخ فعاجله مستدركًا:

- أنا أعلم أن مريم لا أهل لها الآن، وأنت كبيرها وكبيرنا، فللتأكيد على رغبتي في التوبة اسمح لي يا مولانا، أنا أطمع في كرمك...

تزايدت سرعة تسبيح جبريل وارتسم التساؤل على وجهه، الذي سرعان ما تحول إلى أقصى ملامح الذهول عندما ألقى حمو سنارته أخيرًا، في تردد مصطنع بين البوح والكتمان:

- هل تعقد قرآني على مريم يا مولانا؟

ساد بعده الصمت إلا من ضحكة إدريس المجلجلة.

## - 15 -

# سِفر جبريل

فاتتني صلاة المغرب!

للمرة الأولى منذ سنين تفوتني الصلاة ولا أقوم بإمامه الناس في الزاوية، في الغالب ستفوتني صلاة العشاء أيضًا!

أجلس على أول المحمودية في بقعة مقفرة تغلفها العتمة والصمت، اعتدت الذهاب إلى هناك عندما أرغب في تدخين سيجارة ملغومة على مبعدة من أعين المراقبين، اليوم مختلف؛ قدمي أتت بي إلى هنا دون تفكير، فأبراج رأسي تكاد تطير كلما تذكرت ما حدث منذ قليل على المقهى.

حمو طلب يد مريم مني! أنا بالتحديد... لا بل واعطاني رشوة مقابل الموافقة، أو كما قال (عربون المحبة).

تلفّت حمو حوله بحذر، نظر فوق كتفه الأيسر ثم الأيمن وراقب إن كان هناك من يصغي إلينا -مع أن كل منهم في شأن يغنيه- ودسّ يده في جيبه وأعطاني علبة سجائر محلية منبعجة بعض الشيء. رغم إدركي لمحتوياتها على الفور لكني لم أقدر على الرفض أو الجدال، بل حتى لم أقدر على رفع عيني من بين ساقي حيث استقرت العلبة مضمومة بين كفوفي.

توقف تفكيري وعجزت عن التفكير فالأمر، طالما كان هذا أحد أهم عيوبي، لا أستطيع الرد بشكل سريع على أي موقف أو إهانة، بطرف عيني لمحت إدريس يهز رأسه مستحسنًا، الملعون...

من الواضح علمه بهذه المصيبة ولا أستبعد أنها فكرته من الأساس، نصب لي الشبك وترك اللعين الآخر يصطادني بمنتهى السهولة.

أجلس على الصخور الزلقة بسبب الطحالب، أسند ظهري لجذع الشجرة العتيقة، أحب الجلوس هنا؛ أتأمل صفحة المالح التي اقتربت من السواد لتشبه الليل الداخل بالتدريج في السماء، ليل أسود بلا نجوم، تلطم الأمواج الصخور فيتناثر الرذاذ البارد على وجهي وملابسي ليبرد من حرارة وجهي وأذني التي تلتهب بالاحمرار.

لا أستطيع التفكير بشكل طبيعي؛ كيف لي أن أرفض الزيجة الآن وقد قبلت منه التوبة، ما

المبرر الذي أقوله لهم؟

يمكنني استخدام حيلة المخدرات، لكن كيف أفعلها وأنا أحمل في جيب جلبابي ما أدخنه من أشباه تجارة الرجل، وهو يعلم أني أدخن الحشيش ويستطيع فضحي أمام الناس فتهتز صورة مولانا الأمام.

لكن من سيصدق تاجر المخدرات البلطجي ويكذب كلام الرجل الذي يقود الناس في الصلاة ويستفتونه في حاجاتهم، كلمتي مقابل كلمته وأنا أصدق أمام الناس.

الآن أفكر في تلك الحجج بعد قيامي من أمامهم دون الاعتراض، فاستغل إدريس صمتي ليعلن لشريكه أن السكوت علامة الرضا وأني لن أجد رجلًا أفضل من حمو لابنتي!

مريم ابنتي... أنا... كيف؟

صحيح أن عمرها يقارب عمر ابنتي لو كنت تزوجت في سن مناسب، لكني أشعر ناحيتها بمشاعر أخرى، مشاعر ملتهبة حارة. حركاتها ولفتاتها الفاتنة، براءتها التي لا تتناسب مع انحناءات جسمها الفائر.

جسد مومس ووجه شيخة!

وهل هذا وقتك أو وقت انتصابك غير المبرر أنت الآخر؟! لماذا يحدث لي كل شيء في وقت غير مناسب؟!

عشت عمري بكامله لا أفكر في نصفي السفلي على الإطلاق، ولا يأخذ من حياتي إلا النزر اليسير، فقط عندما أنام فأحلم فأحتلم بعدما يستثيرني فيستثيرني هذا أو ذاك في حكم مجامعة زوجته من الخلف أو تغيير الوضع المعتاد!

عليهم اللعنة جميعًا، هل انتهت أمور دينكم ودنياكم؟

كل أموركم ميسَّرة ولم يتبقَّ غير استشارة رجل الدين في شرعية مضاجعة زوجتك نائمة على ظهرها أم وجهها، أو طلبات زوجك التي تستحين منها وتقبلها المومسات؟!

الآن بعد فقدان الرغبة في الزواج وعدم اشتهاء ملامسة امرأة، دون أي مقدمات تنشق الأرض عن مريم فتاة الفتنة البريئة، بطهر غزال وجاذبية لبؤة الأسد.

تظهر من العدم لتضخ الدم في عروقي التي تيبست، وتُشعرني بأني رجل من جديد.

أفقت من شرودي على حفيف خفيف عن يساري، فالتفتُّ لأجد إدريس يمشي بخطواته غير المسموعة إلا من احتكاك جلبابه بالأرض، ودون كلمات جلس إلى جواري، تنعكس على

وجهه حاد القسمات فتات الضوء الراحل.

نظرت إليه في عجب، وقبل أن أفتح فمي متسائلًا عن سبب مجيئه هنا ومن أين عرف مكان خلوتي، أجاب ما لم يُسأل وهو ينظر إلى التقاء نقطة الأفق:

- ما الجديد؟ لماذا أنت متعجب؟ ألم أكن دائمًا قريبًا منك؟ أعرف مكنون نفسك قبل أن تقوله يا صاحبي؟ أقرأ صفحة وجهك بلا عناء؟

قبل أن أجيبه بصحة كلامه -فإدريس أقرب إليّ من حبل الوريد- استطرد بعد أن التفت تجاهي وقد ركز عينيه الثاقبة في عيني:

- دعك من ذلك الهراء، أريدك في موضوع مهم، صحيح أني توسّطت لديك بالنيابة عن حمو ليسترضيك ويتقرب منك بعد فعلته القذرة.

صمت قليلًا ثم زفر بحرارة وألقى الصدمة في وجهي:

- ولكني مستاء من مجرد عرضه الزواج بفتاتك.

أرتج على وتعدى تعجبي مرحلة تغير الملامح إلى نخير مستهزئ، ولم يفتني تشديده على نطق كلمة فتاتك تلك، فتحت فمي كي أرد له الصاع صاعين.

لكنه استأنف دون أن يترك لي المجال:

- صحيح أني ضحكت بملئ شدقي عندما ألقى عرضه علينا، ولكن من الإعجاب وليس الإيجاب! نعم الإعجاب... أنا يا صديقي لاعب دومينو محترف، تعجبني النقلات الذكية التي تضع الخصم في وضع صعب، وذلك ما فعله بنا الفتى.

استحسنت صيغة الجمع في كلامه، كأنه يشاركني حيرتي ومشكلتي، مال إلى الأمام مقربًا شفتيه من أذني، لأسمع صوته مثل الحفيف الناعم، خافت يكاد لا يظهر وقعه لكن في ذات الوقت يطن في نفسي كأنه صادر من داخلي:

- من هذا الصعلوك، تاجر السموم، البلطجي. حتى يظفر بزهرة يانعة مثل مريم؟ حورية عذراء لم يمسسها بشر من قبل، فيها من الجمال والدلال ما تعجز عنه النساء الخبيرات، ومن الحياء ما تتوارى منه الشمس خجلًا خلف السحب...

اقترب أكثر حتى شعرت بحرارة أنفاسه ملتهبة صادقة تدب في جنباتي وتزيد من انتصابي وتلقى هوى في نفسي، تخدرني كلماته كالمسحور فيتوقف عقلي وأستمع بقلبي:

- فتاة تستحق من يحميها، من يحفظها من الأذى، يكمم أنوثتها الفائرة، فتصبح ملكه

وحده، لا يشاركه فيها مخلوق، يستمتع بها وحده.

رنّت جملته الأخيرة في داخلي (يستمتع بها وحده)، رنّت بلا توقف حتى أني لم أشعر بإدريس ينهض من جواري ويرحل، التفت فوجدته قارب على الاختفاء من مرمى البصر، ومع ذلك سمعته عندما قال:

- الشجاع فقط هو من ينتصر في النهاية!

ارتعد جسدي وتشتت تفكيري، لم أعد أشعر إلا بغرائزي فقط، لا إراديًا أمد يدي اليمنى المحملة بالمسبحة أجذب العلبة الصغيرة من الجلباب وأفتحها، كما توقعت، خمس سجائر ضخمة بشكل أكبر من المعتاد حتى بالمقارنة مع مثيلاتها الملفومة، يبدو أن حمو متحمس لمريم بشدة، فيغازل رضائي بأفضل ما استطاع، حتى أنه لم ينسَ القدّاحة داخل العلبة.

أثارت الخاطرة البسمة المريرة على شفتي، وهداني عقلي إلى تدخين واحدة حتى تهدأ أعصابي وأستطيع العودة للبيت ولمريم.

مممم... غريب مذاق تلك السجائر.

***

«أفزعتني يا عم جبريل!»

دوى صوت مريم يحمل دلالها الفطري غير المقصود إلى أذني -لكن يخالطه خوف غريب- كأنه يأتي من أعماق بعيدة متكرر النهايات كأنها ألف مريم، وليتها كانت! يغطي على صوتها اندفاع الدم في أذني هادرًا كشلال مندفع يبث دفئًا خفيفًا متزايدًا في أطرافي.

أشعر بأني شخص آخر مختلف، كأن الشعور والهياج الذي يراودني ليس في جسدي، بل في جسد غريب عني، لا هو أنا أيضًا... جبريل مثلي، لكنه جبار منطلق لا يقف أمامه العوائق ولا الصعاب، نسخة محسنة مني أكثر شبابًا وجرأة.

جبريل يحصل على ما يريد، وهي كل ما أريد، وكيف لرجل مثلي ليس مخصيًا ولا مختثًا ألا يريدها وهو يرى ما أراه؟

تقف أمامي أقرب إلى خلطة من كل فاتنات الشاشة اللاتي خلبن لبي وأنا مراهق، متضادة متناغمة مثل الحياة، كيف لفاتن حمامة وهند رستم أن تجتمعا في أنثى واحدة، أميرة تمسح أرضية الغرفة الحقيرة التي لا تليق بها، مقامها القصور يحيط بها الإماء والعبيد من كل جانب، لأنها حتى بجلباب المنزل البسيط تشع بالإغواء الطبيعي، عقصت جلبابها المحظوظ حولها بعد أن قصّرته حتى لا يبتل فظهرت ساقاها المرمريتان بيضاء تسر الناظرين، غير أن

الجلباب لم يستسلم، فامتصّ الماء بشراهة حتى التصق بها وأبرز تقاسيمها، ولأني عدت في موعد غير معتاد فكانت تجلس على راحتها تاركة أزرار الجلباب الأولى مفتوحة كاشفة عن صدر بض رجراج، سارعت تداريه بخجلها المدمر لأعصابي، لكن هيهات، فالطعم اصطاد شهوتي فانطلق الحوت الساكن في الأعماق، كاسرًا مفترسًا لا يتوقف.

جسدي يرتعد، منخاري يتسع، أذني تحمر في سخونة تلهب وجهي، تعميني الشهوة، تنطلق من جلدي مع العرق لتستقبلها مريم بغريزتها الفطرية كامرأة، تقرأ في عيني ما عجز لساني الجاف عن قوله، تحمر وجنتاها أكثر وتتراجع للخلف كأنها ترى الشيطان، عقلها لا يصدق!

إن كنت أنا لا أصدق ولا أفهم ولا أتحكم في جسدي، جبريل الشهواني أو للدقة الشيطاني كسر القيود، لم أعد حاكمًا عليه بعد اليوم، فالآن جسدي هو رب نفسه!

تتراجع إلى الخلف، لكن إلى أين؟

لا فرار مني اليوم، المرة الأولى التي أحب فيها صغر حجم غرفتي، لا مهرب أمامها إلا الباب الوحيد الذي قدمت منه لتوّي وأسده بجسدي، أقترب منها -أم يقترب هو؟- بالأحرى يقترب كلانا يقودنا اليوم الحب، لا الحب الطاهر بل المفترس، حب الفهد للغزال.

تدوي في أذني أغنية أم كلثوم المنبعثة من الراديو العتيق في أقصى الغرفة.

«هو العمر إيه غير ليلة زي الليلة؟!»

تستمر في التراجع وأنا في الاقتراب، حتى يلامس ظهرها قائم السرير المعدني الصدئ، تدرك أنها حوصرت، ترتسم على وجهها الجميل أقسى آيات الفزع، تغطي فمها بكفها الأيمن وتمد ذراعها الآخر على أقصى امتداده محاولة حجزي بعيدًا، تتلألأ الدمعات في مقلتيها لتزيدها جمالًا على جمال.

تتلاقى الأعين فيرتج عليّ ما أفعله، تلجم أحزانها همتي، لكن جبريل الجديد يرفض القيود، اليوم لا أملك عليه سلطانًا، الآن هو الآمر الناهي وأنا التابع، أحاول المقاومة بصدق... لكن عقلي مشوش أقرب إلى الغياب؛ موجود وغير موجود، لا أشعر بيدي- أم هي يده؟- وهي تزيح ذراعها الممدود وتمسك ثوبها من الصدر وفي حركة سريعة تشقه نصفين فيتجلى نورها يغشي عيني.

«إزاي، إزاي، إزاي أوصف لك يا حبيبي إزاي؟!»

بياض جسدها الشاهق لا شية فيه، حمالة صدرها تكشف أكثر مما تخفي، طار ما بقي من سيطرة عقلي على جسدي أمام ما رأيت، لم يتبقَّ إلا الرغبة.

فقط.

حاولت مريم أن تلم ثوبها، تغطي عريها، تدفن جسدها، لكن هيهات اليوم قيامتها وقيامتي شاءت أم أبت؛ فجسدي تدب فيه قوة خارقة لم أشعر بها من قبل، أمنعها، أحتضنها بعنفوان شاب لم أعد أحمل منه إلا عذريته، أكاد أكسر عظامها في صدري، أعتصر ثديها في يدي بقوة تؤلمها، صرخاتها تأتي من بعيد لا تؤثر حتى في جبريل المحبوس المتقلص داخلي الذي ما عاد يملك من أمره شيئًا.

أحملها إلى السرير وألقيها، ارفع جلبابي عني لأحرر المارد المحبوس في قمقمه منذ مئات السنين، أنقض عليها، أتفادى خمش أظافرها، عض أسنانها، سبابها الذي لم يفلح في أن يكون مقذعًا.

أثبت ذراعيها بقوة بيد واحدة بعد ربطهما بالمسبحة الفيروزية الطويلة، وبالأخرى أمزق ما بقي من ملابسها الداخلية.

رفست، ركلت، حاولت التملص من القيد لكن بلا جدوى؛ فلم أعد أشعر بأي ألم جسدي ولا مشاعر ولا شفقة، لا بنوة ولا رحمة، الشهوة أعمت عيوني وأطلقت شيطاني يحاول فتح فخذيها بقوة لا تقدر على مقاومتها الجيوش.

«خدتني بالحب في غمضة عين وربتني حلاوة الأيام فين»

دموعها تبلل ملامحها، أنفها يسيل، نشيجها يتعالى، مقاومتها تزداد مع اقترابي من الهدف، تقاوم.

تقاوم بشراسة.

تقاوم باستماتة.

تقاوم بتشنج، بكل ما أوتيت من قوة، بصقًا وسبًا، ركلًا وعضًا.

دافعت هي، هاجمت أنا.

ناورت هي، اقتحمت أنا.

تحررت يداها وتمزقت المسبحة، انفرط عقدها على السرير والأرض.

لكن بعد أن تهاوت دفاعاتها، وأخيرًا اقتحمت حصونها...

ارتفعت وتيرة ضرباتي، ارتجَّ جسدي من نشوة الظفر وراح كل تحكمي في أعضائي، فتحولت إلى ماكينة تتحرك، تحطم، تدمر أسوار قلعتها وتهزم فلول جيوشها بعد أن انهارت

أوتار جسدها كأنها لعبة انتهت بطاريتها، لا تبدي حراكًا أو ملامح للحياة إلا يدها المتمسكة بحبات المسبحة في تشنج و ...

«تنفس عالٍ»

أفرغ غضبي فيها، أستمتع بأنينها المكتوم.

«شهقات متتالية»

أصب نقمتي على الناس المخادعة، دموعها ترد أن لا ذنب لها.

«أنين مصدوم»

أضرب مداهنتي لتجار المخدرات، توسلاتها تقول إنها لم تكن منهم.

«تأوهات غاضبة مكتومة»

أثور على نفسي وعلى ما أطلقت من فتاوى كاذبة.

أخيرًا...

تنطلق مني حمم اللهفة والحيرة، يخرج من جسدي كل ما حملته سنيني من أسي وألم... يخترقها.

لا تقابله إلا بنهنه ونشيج مكتوم، فقد وقعت الواقعة.

الآن فقط رضيت عن نفسي!

قمت بأسمى ما في العشق من معاني.

وضعت جزءًا من نفسي وجسدي في أعماق محبوبتي.

ولن ينجح أي كائن من كان في انتزاع هذا النصر مني.

«دي ليلة حب حلوة بألف ليلة وليلة»

***

صفاء ما بعد الوصول وخواء ما بعد النشوة.

اختلط الشعوران داخلي مصحوبان بتصاعد نبرة ندم ولوم كسكين مغروز ينزف منه الجسد بلا توقف، جبريل الشيطاني يتراجع وقد أنجز مهمته القذرة، مقابله العقلاني يستعيد السيطرة ويجلي الضباب عن رأسي تدريجيًا فأدرك الفاجعة التي ارتكبت.

ولو أن فرحة الانتصار ما زالت عابثة بمشاعري، كم حلمت بامتلاكها بأي صورة كانت. ألم تقلق نومي أحلام اليقظة التي أتخيل فيها مريم أسفلي يتصاعد أنينها من فرط اللذة، فلم الحزن والشعور بالذنب؟

جسدي ما زال منهكًا، مسجى على أرض الغرفة التي تشع برودة تتنافر مع الحرارة المنبعثة من أطرافي بسبب المجهود، لا أقوى على الحركة مع انسحاب الإثارة من جسدي بالتدريج، إلا أن حواسي بدأت تسمو.

أراقب بعين منهكة الرطوبة التي تشع من السقف المتهالك على هيئة قطرات ندى بسيطة، تهرب منه فتختلط بشباك عناكب تكسو زوايا الحوائط مع الجدران البعيدة، ربما كانت مريم أقصر من اللازم فلم تظلها، غدًا أساعدها فيها.

غدًا؟!

أشم خلطة من الروائح الفريدة التي لم تعبر أنفي من قبل، عود البخور الأثير احترق حتى آخره فترك أثرًا ملتهبًا في الهواء المشبع بنسيم ما بعد المطر، رائحة المني الممتزج بعرقي المنفّر يطغى عليه رائحة معدنية بسيطة أظن أن أصلها براءة مريم المهدرة على الملاءة التي ما عادت بيضاء.

أسمع الأصوات ترتفع وتقترب كأني أصحو من نوم عميق، الست أم كلثوم تسترسل في وصف لذّاتي في الليلة التي تعادل ألف ليلة وليلة، نشيج مريم المتكومة حول نفسها على السرير في وضع جنين مجهض.

وصوت غطيط!

لا بد أن بعضي ما زال منفصلًا عن جسدي، فصوت الغطيط الخفيض ينبعث عن صدري المتحرك صعودًا وهبوطًا من أثر الإنهاك والانتهاك، يصاحبه صوت الرعد بالخارج مع ارتطام القطرات من السقف بأرض الغرفة.

أحاول تحريك أناملي، لا أقدر، كأنما المارد الذي تلبسني خرج ولم يعد، يمزقني من ناحيته شعوران: الاشمئزاز من فعلته الشنعاء، والانبهار بما أطلق في ضلوعي من قدرات لم أتخيل وجودها، ما هو السر الذي خذر جبريل المتخاذل وأطلق الوحش من عقاله.

جلدي مقشعر وشعر يدي منتصب، ربما من تأثير النصل على رقبتي، النصل!

نصل بارد صغير رأيته من قبل تحمله يد رفيعة بلا جسد، لأن حاملها خارج نطاق رؤيتي وأنا ملقى على أرض الغرفة، يدخل مجال عيني تدريجيًا متمهلًا.

أخيرًا يظهر الوجه القبيح الأعور...

حمو اللعين.

على وجهه أكبر ابتسامة تشفٍّ رأيتها في حياتي، في حين أن عينه ترسم غضبًا كاسحًا، غضب حيوان مفترس، انتزعتْ منه فريسته، ملامحه مكفهرّة تجسّد أعتى آيات المقت والغل!

متى تحولتْ إلى هذا الشيطان المريد يا تلميذي العزيز؟

يعتلي جسدي بين ساقيه دون أن ينزع مطواته عن عنقي، وبيده الأخرى يحمل زجاجة خمر عملاقة انتهى من نصفها، فعبقت أنفاسه وعوجت لسانه وهو ينفث المقت من فمه قائلًا بكل حقد الدنيا:

- نزعتْ مني مرادي، كيف؟ لم يكن من المفروض أن يحدث هذا! كان يجب أن تفقد الوعي، تتخدر في غيبوبة من الحشيش المخلوط بالكيتامين، تفقد السيطرة على نفسك وتنام كالأسماك، ريثما أحصل أنا على مرادي، كيف؟ أي قوة حركت جسدك بعد تلك الجرعة لترتكب فعلتك؟

يهدر صوته حتى يطغى على نهنهة مريم وضربات المطر مكملًا:

- كيف تجرؤ أيها العجوز الخرف؟

يزيد ضغط النصل على رقبتي فيدميها؛ أشعر بلزوجة الدم الدافئ ينساب على صدري، أحاول تحريك يدي للدفاع عن نفسي، أو تحرير لساني مستجديًا عطفه وهو أضعف الأيمان.

لكن ما من مجيب؛ كل أعضائي تفضل الاستكانة على الاستجابة، حتى صوتي لا يخرج منه إلا غمغمة ملغزة، يضع الزجاجة على الأرض، يثبت رأسي المتشنج بيده اليسرى مرفوعة الكم فتبرز عضلات ذراعه الفتية، ويمرر اليمنى بالنصل من اليسار لليمين، من الأذن إلى الأذن على عروق رقبتي النافرة من الانفعال، أشعر بالمزيد من الدم يتدفق على عنقي وصدري مدرارًا.

أشعر بالبرودة في أطرافي، كأن الروح تنسحب من أول ساقي المرتجفة مثل خروف مذبوح، تنحشر في حلقي فأسمع حشرجة متشنجة من حنجرتي، تتشوش الموجودات أمام ناظري مثل تلفاز معطوب الهوائي في عاصفة هوجاء، بسمته الصفراء تنزُّ حقدًا، وعيناه غير المستقرتين تحتلان المشهد.

آخر ما رأيته كان الزجاجة ترتفع من وراء رأسه وتهوي عليها بمنتهى القوة فتتحطم مع

صوت آهة مدوية.

آخر ما سمعته كان صوت الشيخ فرحات يصرخ بهمسٍ بالٍ: الله حي!

آخر ما شعرت به، البرد... الكثير منه.

ثم انقطع البث.

هذه المرة إلى الأبد.

## سفر العودة

الدموع تغرق عيني مريم، الرؤية غير مستقرة، الحارات الضيقة نفسها غير مستقرة مهتزة أم أنها هي من تهتز خلال الركض غير المنتظم، الأفكار تجلد دماغها بالسياط، عم جبريل الطيب، من أعطاها الحنان والدفء الأبوي المفقود في طفولتها، يفعل بها ذلك! شيخ المسجد اغتصب الفتاة العذراء، من سيصدقها؟!

كان الطيبة مجسدة، لم يرفع عينه في عينيها قط، حتى أنها عندما كانت تضمد له جرح كتفه يوميًا لاحظت أن ملامح وجهه تتورد بحمرة الخجل، أم لعلها كانت الشهوة وسذاجتها أوهمتها بالعكس، أوهمتها أن جبريل كان أباها الذي لم ينجبها من صلبه؟

كان!

نعم كان، فجبريل أصبح من الماضي، ذُبح مثل الخراف على مرمى خطوات منها، وما زاد من تخبطها هوية قاتله؟

أبوها الثاني قتله رفيق طفولتها حمو، الفتى الصغير الذي طالما كان لها الظهر والسند، كم تبادلا من نظرات الإعجاب الطفولية في الصغر، كم هربت من عينيه الجريئتين، كم خفق قلبها من أفعاله التي بدت وقتها جنونية، من اندفاعه البطولي ليبدو بمظهر الرجل، تمر السنين ويتحول إلى مدمن، مغتصب و ... قاتل!

ما الذي يحدث لدنياها؟

هل تحول الناس لذئاب تريد التهامها ويقتلون بعضهم من أجلها؟

من تكون هي أصلًا؟

بائسة وحيدة بلا أهل أو سند، مشردة، مغتصبة، منتهكة و ... قاتلة!

نعم قاتلة، ولكن بعد فوات الآوان، صحيح أنها رفعت الزجاجة وهوت بها على رأس حمو، وشاهدت بعين جاحظة سقوطه على جسد جبريل والدماء تنبثق من رأسه مثل شلال لزج، لم تدرِ بنفسها كيف فعلت ذلك، لكنها كانت متأخرة، لو كانت أبكر بقليل لكان جبريل حيًا الآن.

لعنت نفسها، تتمنى الحياة لمغتصبها!، الثور الذي دخل محل الخزف فحطم كل ما في حياتها من مستقبل وهرس كبرياءها المشروخ من البداية، لعنت نفسها مرة ثانية وأقسمت

إن كان جبريل حيًا لقتلته هي، لكن من تخدع؟

إنها أضعف من ذلك، عصفور مبتل في أقسى عواصف الشتاء، إنها حتى لا تعلم أين تذهب بملابسها الممزقة التي تلتحف بها لتحمل بقايا عذريتها.

من بين نوبات البكاء عادت إليها الحادثة التي سبقت عودة جبريل في غير ميعاده، كانت تنزل السلم الخشبي مقشر الحواف على مهل، ساق تجاور الأخرى لتجنب السقوط بحملها الكبير، وعاء عملاق من البلاستيك الأزرق الباهت، يحتوي كل ما يملك جبريل من ملابس انتهت من جمعها للتوّ من فوق حبل الغسيل المفرود فوق سطح الغرفة، تتخلل أنفها روائح الملابس النظيفة المتبلة بالكلور والزهرة المنعشين.

تدخل بظهرها أولًا لتدفع الباب به ثم تلتفت ببطء محاذرة أن تسقط منها أي قطعة على الأرض التي لم تجف بعد من ماء المسح المخلوط بالفنيك المطهّر، فور اكتمال دورتها شهقت وسقط منه الوعاء بالكامل وتناثرت منه قطع الملابس في كل مكان، فأمامها كان يجلس ضياء صديق حمو المقرب يشبك ذراعيه أمام صدره، مرتخي الملامح، يثبت عينيه على وجهها المذهول!

استغرقت ثوانٍ حتى تفيق من آثار الصدمة، وفتحت فمها لتصرخ ولكن صوتها احتبس ولم يخرج منها، حاولت مرة أخرى لكنها لم تستطع. شيئا ما في عيني ضياء الثاقبتين يخترقها، يلجم لسانها، يمنع صوتها من مغادرة حنجرتها.

لما تيقّن ضياء من تأثيره الكاسح عليها، قام من مجلسه على السرير الأوحد في المكان، ودار حوله يتلمس بأصابعه قوائمه المتأكلة برفق ثم قال وهو يوليها ظهره:

- سرير جميل، أعطاه لك جبريل وفضّل النوم على الأريكة متأرّقًا، أعطى بلا مقابل!

ثم التفت على مهل، وأكمل بنظرة متفحصة وبسمة مقيتة:

- هل فكرت يومًا يا مريم؛ ما هو المقابل؟

دون أن تشعر وجدته إلى جوارها فجفلت ولكنها أيضًا للعجب لم تصرخ، كرر بصوت خفيض له وقع موسيقي منوّم:

- ما هو المقابل يا مريم؟ الإيواء، الحماية، الطعام والشراب والمسكن، كل ذلك يتحمله الشيخ المسكين، كتفه فقدت قوتها وألسنة الناس تلوك سيرته، كل ذلك بلا مقابل؟ هل هذا عدل يا صغيرتي؟ أنت فتاة طيبة يا مريم، لا أظنك تريدين ترك الأمور هكذا. سيأتي عليك وقت ستطالبين فيه بالدفع! عندها لا تترددي... واعتبريه ردًا للجميل، ربما غدًا. اليوم. أو ربما

الآن!

مع نهاية كلمته التي همس بها أفاقت من شللها المؤقت أو غيبوبتها الواعية أيًا كان مسماها، لتجد جبريل يفتح باب الغرفة ويدخل في غير موعده!

انتابها خوف غريزي للحظة، لكنه غير حقيقي. بالتأكيد غير حقيقي، شعورها يقول إن هذا الرجل لا يمكن أن يؤذيها.

لكنه كان شعورًا كاذبًا.

نفضت عن رأسها الأمر واعتبرت أن ما حدث كان حلمًا تم بعيون مفتوحة، حاولت أن تهش في وجه القادم وقالت بوجهه ممتقع:

- أفزعتني يا عم جبريل!

وهنا وقعت الواقعة...

عادت إلى واقعها مع انقطاع سيل المطر في الصباح ما سهَّل عليها الحركة نسبيًا، تستند إلى الجدران التي تشع بردًا يثير القشعريرة في جسدها، إلا أن رحيل المطر حل بعده ضباب أبيض غريب، شوَّش رؤيتها للمنازل المموَّجة أصلًا في عينيها من تأثير البكاء، كانت في حالة يرثى لها، تغطي وجهها وجسدها السحجات، الشعر فوق عينيها متهدل مبلل، وجهها رطب بالدمع، لا تعلم أين تأخذها قدماها، تسير بلا هدى، لمجرد الابتعاد عن الدماء والقتل، الابتعاد عن براءتها التي ذُبحت على يد عجوز قدمه في القبر يشتهي العذارى!

تعجبت من قسوتها عليه وهو الذي عاملها بمنتهى الحنان ثم تعجبت من تعجبها!

أيقنت من دخولها في طريق اللا عودة، مخها تحطم وأصبحت تؤمن بكل شيء وعكسه في ذات الوقت.

جبريل ملاك... جبريل مغتصب.

حمو بطل... حمو قاتل.

السماء رحمة... السماء نقمة.

هي بريئة... بل بالتأكيد ملعونة.

قادتها قدماها دون وعي إلى أكثر الأماكن ألفة، البيت الذي شهد الجانب الأكبر من عمرها.

بيت نور.

لم تفكر في نوران، لم تفكر في رد فعل نور عندما تراها منتهكة محطمة، للدقة هي لم تفكر بالأساس.

عانت بقسوة حتى وصلت إلى الملاذ الأخير، سقطت وقامت، زلت قدمها والتوت، كشطت ركبتها اليسرى وراحة يدها اليمنى من شظايا الزجاجة، أحست بالالم من الجروح، ولو أنها علمت أن جروح نفسها ألمها مضاعف، شعرت بقطرات طفيفة من سائل لزج تسيل على فخذها لم تهتم حتى بمعرفة كنهه، كل ما تريده الآن هو أن تنام.

تنام فقط.

تساءلت... أين ذهب الناس في هذه البلدة الملعونة؟ لا يوجد من ينقذها أو يلتفت لمظهرها الغريب، تجاهلت واستمرت تقودها الغريزة حتى برزت من ناصية الحارة التي تسكن فيها نور، بيتها متفرد في آخر الطريق غير الممهد، يطل على الماء مثل كل البيوت، لكنه مبتعد عنها جميعًا، كأن البيت يشعر باختلاف ساكنته فينفر من ساكني البيوت الأخرى العاديين.

رأتها فأفلتت من قلبها دقة، انهمرت من عينيها الدموع، تتشنج وتحاول النداء عليها لكن الصوت لا يخرج، يختنق في حلقها الجاف من البكاء، تتقدم ببطء، تسقط، تقوم، تستند، تحاول النداء مرة أخرى بلا فائدة.

نور في جلستها الأزلية تشاهد الشروق وتحسو الشاي المخصوص، لم تمر عليها الأيام على الإطلاق كأن الفراق مر عليه يوم أو بعض يوم، تتأمل شاردة فرخ دجاجة صغير تاه من عش أمه، لونه أصفر زاهٍ يتألق في نور الشمس المستيقظة، لاهٍ عن الحياة، ينقر الأرض ليقتات، يتمشّى في حركات بسيطة غافلًا عن الثعبان الذي يتلوّى زاحفًا من خلفه، مثبتًا نظره عليه لا يحيد، يخرج لسانه في جشع يتلمس الهواء، يحفر خلفه أثرًا متعرجًا على الأرض الطينية المبتلة، بلا مقدمات ينقضُّ فاغرًا فاه مثل هوة سوداء بلا قرار على أقصى اتساعها، يبتلع الفرخ الذي برزت رأسه من الفك، مذهولًا من المفاجأة، يصيح ويقاوم بلا جدوى، لكن الثعبان يبتلعه بمنتهى البطء.

تكافح مريم لتصل بالقرب من نور، تلتفت الأخيرة من شرودها في مشاهدة دورة الحياة، لترى سقوط مريم على الأرض.

صوت الفرخ ينقطع.

نور ببطء الجبال تنهض.

النور في عيني مريم ينطفئ.

***

فزعت مريم من نومها متوجعة ممزقة الأوصال، لا تدري أي سرير يحتويها، أدركت تدريجيًا الموجودات حولها، تعرفت على عناصر الغرفة البسيطة التي شاهدت فترات مراهقتها وشبابها، فزعت حين أدركت أنه نفس السرير الذي شهد محاولة نوران التعدي عليها، فهبّت متكومة في طرف السرير بعيون زائغة تستر جسدها بالبطانية النمر الشهيرة فوق ملابس البيت الخفيفة، تتصارع في مقلتيها العبرات، تشعر بالضعف بل بالتعرّي وفقدان الحماية.

ببطء فُتح باب الغرفة بصرير خافت، وقر الرعب في قلبها، وضعت يدها اليسرى على فمها تكتم صرخة كادت أن تفلت، زادت إحكام الغطاء حولها متمنية أن يتحول إلى سد يقيها هجمات القادم الطامع فيها!

طبعًا فالكل الآن يهاجم جسدها برغبة الافتراس، لا تعلم من أين تأتيها الطعنة القادمة الغادرة، حالها هنا ليس أفضل، فقد أتت بقدميها إلى منطقة نفوذ نوران، بالتأكيد قادمة الآن لتكمل ما بدأته من فترة فقدت القدرة على حسابها.

هدأت نفسها قليلًا وارتخت ذراعها عن الغطاء عندما رأت نور تدخل حاملة صينية بسيطة عليها أصناف مختلفة من الطعام لم تحدده وكوب كبير مملوء باللبن، وضعتها على مقربة من السرير وتحركت بخفة لا تناسب عمرها بلا صوت وهي تثبت عينيها في عيني مريم، ثم جلست بهدوء على طرف السرير ومدت يدها ببطء تمسد قدم الفتاة أسفل الغطاء قائلة بصوت دافئ لم تسمعه منها أبدًا:

- اهدئي إنه أنا... نور، أعلم أنك قاسيتِ الكثير، ولو كنت لا أعلم التفاصيل، فقد سقطتِ أمام البيت فاقدة الوعي ممزقة الثياب، حملتك للداخل وحمّمتك لأزيل عندك الوحل، هالني ما رأيت؛ جسدك مغطى بالجروح والسحجات في كل مكان.

ثم صمتت لحظة وأكملت بصوت ذي مغزى وقع على قلب مريم كالصاعقة: والدماء.

انتفضت الأخيرة بعد أن أدركت ما تقصده نور، عجزت عن الرد، وكان أقصى ما فعلت أن عادت للانكماش في أقصى زاوية السرير، اقتربت منها نور حثيثًا، وللمرة الأولى في حياتهما معًا أمسكت كفها بيد باردة لا نبض فيها، لكن اللمسة طمأنت مريم للحظات، وسمحت للعجوز أن تكمل كلامها بنفس نبرة الصوت:

- أخبريني بما حدث؛ فأنت تهلوسين بلا توقف منذ ثلاث ليالٍ! تستيقظين إمامًا، أدس الطعام في فمك قسرًا، تقولين كلامًا غير متماسك عن قاتل وسبحة ممزقة، إضافة إلى كم من الألغاز لا أعلم أصلها عن الأعور!

صمتت هنيهة وأكملت بوجه جامد وصوت يعاكسه:

- قلقتُ عليكِ عندما عدت فوجدت المنزل مهجورًا! أخبريني بكل ما حدث، ولماذا تركتِ منزلك؟ ولا تخشي شيئًا، لن تستطيع قوة أيًا كانت أن تؤذيك في حضرتي.

زادت طمأنينة مريم عندما تكلمت نور للمرة الأولى عن المنزل ونسبته لها قائلة (منزلك)، فحاولت الكلام لكنها شعرت بحلقها جاف، فتشققت شفتاها ببطء متألم قائلة:

ماء!

ناولتها نور كوب اللبن فرشفت منه قليلًا، شعرت به بارذا لكنه نار تؤلم معدتها التي فقدت القدرة على التعامل مع المدخلات، اعتدلت في جلستها وسحبت نفسًا مرتعشًا تحاول به تهدئة انفعالاتها المتوترة، ثم سألت بصوت مرتجف:

- لماذا وجدت البيت مهجورًا؟ أين قريبتك نوران التي كانت تسكن معي في أثناء غيابك؟

الرد دمّر البقية الباقية من ذهن مريم المحطم عندما قالت نور بنفس الثبات: طفلتي... منذ بدء الزمان ولم يطأ هذا البيت أي أنثى سوانا، لا نوران ولا غيرها... لا توجد لديّ قريبة اسمها نوران أصلًا!

***

مرّت على مريم الليالي باضطراب بالغ، تصحو بين الحين والآخر متعرّقة تصرخ، ثم تغوص ثانية في النوم دون يقين أين تنتهي اليقظة ومتى يبدأ الحلم، سقطات متتالية أقرب إلى الغيبوبة، أما سويعات يقظتها المحدودة فكانت شاردة أو باكية وأحيانًا ضاحكة بلا سبب محدد، تتسلل إلى تلك اليقظة أشباح أمها وأبيها الذي لم تره، بعض الأوقات تتخيله ضخمًا وطيبًا بعيون حزينة، أوقات أخرى تراه محنيّ الهامة، نذل الملامح. فهي لم تره يومًا ولا تعرف له شكلًا فأمها لم تعرض عليها أي صورة له قط!

أمها... تلك طامة أكبر، مع مصائب مريم المتتالية وخساراتها المستمرة، بدأت في تقليب دفاتر ذكرياتها عن حياتها المشتركة مع أمها، فتكونت أمامها مشاهد تقع في الخط الفاصل بين الواقع والهلوسة، ها هي أمها تقف في ركن غرفتهما القديمة بجلبابها البنفسجي الذي فقد لونه جراء الغسيل -ترجّتها مريم كثيرًا أن تشتري غيره أو حتى تبدله، وكانت الحجة

الجاهزة دومًا أنه مريح- تقف مولية ظهرها لمريم الصغيرة ابنة الطفولة الغضة، تطبخ الطعام في إناء مصفر الباطن على الموقد النحاسي ذي العين الواحدة، تقلب شيئًا ما وتضيف آخر، ترفع ملعقة الطهو الخشبية كل بضع حركات لتتذوق مصدرة همهمات الاستحسان. رأسها معقوص بمنديل عملاق يتلاءم مع لون الثوب بسبب الصداع المزمن، تقترب مريم الصغيرة تحاول الكلام مع الأم لكن الأخيرة لا تلتفت وتظل منهمكة فيما تفعل، بعدما تيأس الطفلة من عدم الرد تحتضن ساقها من الخلف، تقتحم رائحة أمها أنفها وتشبع حواسها، خليط من روائح المنظفات والعرق الخفيف المحبب وعبق التوابل بالتحديد الحبهان، تلتفت حنين أخيرًا لمريم الصغيرة، تركع على ركبة واحدة تحتضن وجهها الصغير بين كفيها المرهقين وتقبل جبهتها.

هنا تفيق مريم فلا تجد أيًا من ذلك حقيقة، فتنهمر السيول من عينيها، وتغيب في أزمنة النسيان مرة أخرى، تجترها الأحزان حتى تعتصرها، ترى نفسها مع نوران في جلسة السمر المعتادة بجوار النافذة على ضوء القمر، تجلس نوران وساقها مربعة أسفلها مفرودة الظهر كعادتها، ملقية خلف ظهرها شعرها الأحمر الناري -أم كان ذهبيًا!- تضع مريم رأسها على فخذ الأخيرة التي ما انفكت تمسد منابت شعرها فتقرقر مثل قطة هانئة، تفعم أنفها رائحة العطر الغامض الفائح من نوران.

كيف لكل تلك الحواس أن تكون خيالًا؟

وماذا كان من تلك الليلة المشؤومة التي هربت بعدها من بيت نور؟

لا مجيب.

حتى جبريل كان يزور نومها المتيقِّظ، مرة بصورته الأبوية كصاحب الجلباب الأبيض والجبين الوضَّاء عليه سيماء الصلاة، يبتسم ويفتح لها ذراعيه على أقصى اتساع، فتلقي نفسها بين أحضانه لتشم رائحة البخور والمسك. ودون سابق إنذار ينطفئ النور في وجهه، يمزق ثيابها وهو يشنقها بمسبحته الطويلة الفيروزية، تختنق، تصرخ بلا صوت حتى تشرخ حنجرتها.

ثم تفيق.

تخاطبهم فيردون تارة ويصمتون طورًا، تلوم عليهم، تقرّعهم حتى يبكوا وتبكي معهم، تستعطفهم أن يعودوا ليلمسوها، يحتضنوها وحين تيأس من عدم الإجابة تحتضن هي نفسها وتبكي حتى تنام.

يتحرك الوقت من حولها ببطء مخملي، تشعر بسريانه كأنه كائن ملموس ثقيل في زنزانتها

الاختيارية، لا ترى أحدًا ولا يراها أحد. إلا نور، تدخل عليها في اليوم ثلاث مرات، تضع الطعام في فمها قسرًا، تستغل أي فرصة تحاول تسليتها والتسرية عنها، تكلمها في الكثير من الموضوعات، لكنها للأسف دائمًا محادثة من طرف واحد ولا مجيب لها.

من ينظر لحال البيت الآن يتعجب إلى حد الذهول، فها هي نور التي تنفر من الناس وينفرون منها بسبب سلاطة لسانها وعدم اكتراثها بحيوات الآخرين؛ تعمل بدأب مثل النحلة على راحة مريم، وتلك الأخيرة التي كانت شعلة من النشاط أمست منعزلة منكسرة في غرفتها، لا تخرج منها إلا للحمام، إما وحدها أو بصحبة نور حين تجرها جرًا لتحمّمها بالقوة كل بضعة أيام.

نور ألزمت نفسها بروتين يومي لا تحيد عنه، يتمحور حول الاهتمام الكامل بالفتاة وكل ما دونها لا يهم، تلك العناية المكثفة بمريم أظهرت بارقة أمل في التحرر التدريجي للأخيرة وتقبلها للأمر الواقع، فبدأت تتحرك في أرجاء المنزل حركات طفيفة، تذهب للحمام بمفردها دون مساعدة، تجلس قليلًا في مكان نوران المتخيلة بجوار النافذة. لكنها تبدو كمن زاد عمرها عشرات الأعوام في ضربة واحدة، تمشي محنيّة قليلة، ذراعاها متهدلان إلى جوارها، شعرها متنافر الخصلات، تحت جفونها سواد، عيناها نفسها حمراء ملتهبة لا بياض فيها من أثر البكاء.

قادتها قدماها يومًا إلى مطبخ المنزل فأرتج عليها منظر نور تحضر الطعام!

للمرة الأولى مع طول عشرتهما تراها في هذا المكان!

أدركت بداهة فكرة أن العجوز كانت تحضر الطعام، وإلا فكيف يأكلان، لكن اندماجها خلال تحضيره هو ما استوقفها. فذلك مشهد يستحق التخليد، أقرب إلى طقوس دينية معقدة ترتسم فيها على ملامح نور أقصى آيات الانهماك.

بيد واحدة كسرت البيض في وعاء عميق، وبالأخرى أضافت بعض من الخضروات المقطعة، ثم ألقت قطعة من الزبد في المقلاة، وتركتها حتى راحت تطقطق وتتضاءل ذائبة في دوائر، بينما نور تستكمل تقطيع باقي البقدونس والبصل، ثم قلبت كل المكونات معًا، وبعد ذلك صبّت الخليط على الزبدة والدقيق، تصاعدت من المقلاة رائحة تسيل اللعاب، لم تهتم لها وأكملت بتركيز شديد ما تفعله كأنها تحدد مصير الأكوان، وضعت الطبق الشهي على صينية مصحوبًا بكوب عملاق يحتوي سائلًا أبيض مثلجًا، تكاثفت قطرات برودته على جداره الخارجي، من الممكن الاعتقاد أنه لبن، ولكن في الحقيقة هو اللبن كما يجب أن يكون لا كما يوجد في المعلبات أقرب للاصفرار.

كل هذا التحضير وهي مندمجة بالكلية فلم تشعر بمريم خلفها إلا عندما استدارت ورأتها، فابتسمت لها وقدمت الطعام، لكن مريم نظرت إليها بعينين خاويتين وتركتها عائدة إلى زنزانتها الأثيرة.

لحقت بها فوجدتها متكورة مرة أخرى على السرير، وضعت أمامها الطعام واخذت تستحثها لتناول أي شيء، تقبل مريم مرة وترفض عشرة، بدأت نور تفتح معها موضوعات مختلفة للحديث لعل سدها المنيع ينهار وتنفتح أبواب الأسرار لكن بلا فائدة.

غير أن كل هذا تغير يوم تحدثت نور بأخبار المنطقة كنوع من النميمة، وقالت إن حمو قُبض عليه ويحاكم بتهمة قتل جبريل. هنا بدا الاهتمام على وجه مريم، وتشققت شفتاها عن صوت مشروخ بسبب انعدام الحديث سائلة:

- حمو حي؟

تهلّلت ملامح نور واسترسلت في الحديث لتحث مريم على التجاوب:

- نعم حي، الأخبار متضاربة لكن بعض من جيران جبريل وجدوا باب الغرفة محطمًا والفوضى في كل مكان، دخلوا، شاهدوا جبريل مذبوحًا والدم بركة تغطي المكان، جواره حمو يبدأ في الاستفاقة من إغماءة أصابته نتيجة ضربة قوية على الرأس، فانقضوا عليه، كبلوه وأبلغوا الشرطة فأتي ضابط المباحث صديق جبريل أو رئيسه للدقة.

قالتها ومصصت شفتيها ثم أكملت:

- جاء متوعدًا حمو، يسبه بأقذع الالفاظ؛ ألقى القبض عليه بتهمة قتل جبريل متعمدًا، وأخذ يبحث عنك في كل مكان عندما دلّته تحرياته من الجيران على إقامتك لفترة في بيت القتيل.

ولما شحب وجه مريم خوفًا، أكملت نور بسرعة لطمأنتها:

- لا تخافي، طالما عدت إليّ بنفسك طواعية، سأحميك بكل ما أملك من قوة، أنت في أمان، لن يجدك هنا بشرا

هنا ترغرغ الدمع في عين مريم وانطلقت تحكي.

تحكي بلا توقف بصوت متهدج وهي تهتز للأمام والخلف محتضنة نفسها بكل قوة.

الحضن الذي افتقدته، الحضن الذي لم تحصل على مثله منذ ماتت أمها.

***

مرت عليهما الساعات بلا حساب، انتهى الليل ودلف الفجر بلا أذان، فالمؤذن مذبوح ولم يحل محله أحد؛ فقد غفلت عن الزاوية الحكومة كما غفل عنها الناس، عبر بعد الفجر صبح شتوي بارد لم تقاطع فيه نور الحديث مرة واحدة، تركت مريم ترسل في الكلام بضع من الوقت وتبكي الكثير من الأوقات، وهي تهدهد نفسها وتتمايل بوتيرة متسارعة حتى انتهت واحتل الصمت المكان إلا من نشيج معروف المصدر.

لم ترتسم أمرات الصدمة على نور، بل بقي وجهها متخشبًا لا حياة فيه، وإن كانت عيناها مهتمة بالتفاصيل لأقصى حد؛ ترتشف الكلمات من شفتي مريم كأنها رحيق الحياة، مع نهاية الحكاية لم تقل أي كلمة، بل نهضت وذهبت للنافذة الوحيدة في الغرفة، واربت الشيش بقدر ضئيل سامحة للهواء البارد بأن ينعش جو الغرفة الخانق، فدخل مصحوب بصوت بومة بعيدة ذاهبة للنوم.

بعد قليل من الصمت قالت بلا إسهاب:

- لم يجد جديد، يبقى الحال على ما هو عليه، مجرد عرقلة بسيطة وتستمر حياتك كما هو مخطط لها!

وقد كان.

تساقطت أيام النتيجة الورقية متتابعة في روتين لا حياد عنه، نور تساعد مريم على الاستشفاء من جراحها، وإن كانت لم تشر إلى الحادث المشؤوم ولا توابعه من قريب أو بعيد.

مع الوقت تحسنت صحة مريم قليلًا وزادت حركتها مرونة في المنزل، أصبحت تتناول طعامها خارج الغرفة، وإن بقي كلامها قليلًا وردود أفعالها بطيئة، فاقدة الروح، كسيرة النفس.

في يوم ما بعد شهرين من عودة مريم إلى قواعدها، انقلبت حياتها مرة أخرى، كأنما لم تلقَ ما يكفيها بعد من لطمات!

على المائدة الوطيئة وضعت لها نور إفطارًا فاخرًا بمقاييس الفقراء، فول وبيض مسلوق مقطع إلى شرائح وأقراص من الطعمية الذهبية الغارقة بالسمسم مع أرغفة الخبز الأسمر الكبيرة، يتوسط المائدة قالب كبير من الجبن الأبيض يجاوره كوب اللبن اليومي.

لكن الطعام له متعة؛ ومتعته في اشتهائه، ومريم فقدت غريزة اشتهاء أي شيء؛ لذا تحول الطعام عندها إلى متعة متيبسة فاقدة لنصف رونقها، لكنها عادت للأكل بغريزة البقاء المزروعة فيها أو على الأقل من باب التعود.

نور تجلس بجوار النافذة المطلة على الشارع تتأمل حركات الماء الراكدة بسبب قلة زوارق الرزق، ومريم بدأت تجلس ببطء غريب ظهر عليها مؤخرًا، تمسك ظهرها متوعكة، وما إن جلست أمام الطعام وبدأت في وضع أول لقمة من فمها حتى اصفرَّ وجهها وقامت تعدو، التفتت نور إلى تلك الحركة المباغتة لتسمع صوت القيء العنيف قادم من جهة الحمام.

***

نور تجفف يديها في خرقة وتضعها على خزانة الأدراج الصغيرة بجوار سرير مريم، ثم تجلس على طرف السرير بمنتهى التروي، على ملامحها التركيز والتوتر مجتمعين وهي تحسب كل كلمة قبل نطقها، رفعت عينيها إلى عيني مريم الممددة على ملاءة خفيفة تعيد تغطية نفسها وتنتظر الخبر اليقين بأنفاس متوترة قلقة، أخيرًا قالت نور في حنوٍّ لم يُعرف عنها يومًا:

- بنيَّتي أريدك أن تهدئي، ما حدث قد حدث وأنا معك حتى نهاية الخط، علينا الآن التعامل مع الموقف بهدوء، أستطيع مساعدتك في أي قرار تأخذينه، فكري وأنا معك.

سكتت هنيهة وأخذت نفسًا عميقًا، ومريم أمامها ممتقعة الوجه، التوتر يجعلها غير مستقرة في نومتها، ثم أمسكت بيدها الباردة وأكملت نور بعيون جامدة:

- حامل في شهرين!

## -17-

# سِفر الأوَّلين

(كفي غرقًا في الماضي التعس، ولنشاهد المستقبل، أو ما كان يمكن أن يكون مستقبلك لو كنت بنتًا مطيعة!)

تردد الصوت قائل العبارة مثل الصدى في جنبات عقل مريم وهي مستمرة في سقوطها من أعلى قلعة قايتباي، صوت مألوف بشكل غريب لا تستطيع تحديد هويته لكنها تذكره.

مع نهاية جملة الصدى المتكلم تغير كل ما حولها.

لا تدري هل تسقط أم تسبح في الفراغ الكئيب الخالي من اللون، لا شيء فيه إلا التراب والنسيان، تركيبة دفعت القشعريرة إلى ظهرها.

تباطأ الوقت حولها ثم توقف على مهل، تستطيع تحريك جسدها ولكن كل ما حولها ثابت حتى قطرات المطر جلية، ظاهرة للعين، نورس بعيد كان يحلق جناحاه مفرودان لكنه الآن متوقف في منتصف الفضاء، الأصوات نفسها توقفت، فلا ريح ولا رعد، لا شيء، وإن كان ضوء البرق الأخير ما زال ينير عتمة الليل، كأن الكون ذاته قد سكن متوقفًا في لحظة بعينها.

جربت أن تحرك نفسها فانساب جسدها كأنها تسبح في هلام أو مخمل، بدأت في تعديل جسدها لتستقيم بدلًا عن وضع السقوط.

وقفت بالفعل، لكن على ماذا؟

عندما نظرت إلى أسفل رأت الشاطئ الصخري أسفلها بعيدًا وهي متوقفة على الهواء وليس فيه بل عليه!

كأنها -إن صح القول- تقف على ضباب أو سحاب خفي، خفيف لكن متماسك.

رأت أمامها ظلًا أبيض يتكاثف من اللا شيء، كأنه بخار ماء يتجمع على هيئة رجل منتصب القامة بلا أي ملامح أو تفاصيل، فقط هيئة رجل، لا ليس ظلًا بل أقرب إلى الطيف غير الملموس لكنه موجود، رغم بياض لونه لكنه يدفع ناحيتها بشعور غريب أشد سوادًا من الليل البهيم المحيط بها من كل جانب، شعور خليط من التوجس والريبة والقلق!

صدر عنه نفس الصوت الرخيم المألوف إياه، عقلها مشتت بين الوضع الغريب المحيط بها وبين محاولة ذهنها المستمرة تحديد هوية الصوت، إحساس في غاية الإزعاج، مثل أغنية أو موسيقى سمعتها وقرعت جرس ما في ذاكرتها لا تعلم ما هو، والخاطر الملح لا يغادر رأسها،

تريد أن تعرف كنه ذلك اللحن أو الصوت.

قال الطيف:

- عبرت بك رحلة في مآسي الماضي، لنذهب معًا إلى مستقبل لن تعيشيه أو من الممكن أن تعيشيه، الأمر خاضع لاختيارك!

مع نهاية عبارته أشار بيده اليسرى إلى الفراغ فتكون فيه من نفس البخار المتكاثف باب خشبي يبدو قديمًا للغاية متأكل الأطراف، فور اكتماله تملكت مريم رغبة عارمة في فتحه، وبالفعل تقدمت بخطى مترددة تجاه المجهول، مدت يدًا مرتعشة مترددة نحو الباب لترتد عندما انتبهت إلى أن أسمالها الممزقة اختفت، تبدلت بملابس شفافة هفهافة حريرية مثل غلالة رقيقة للغاية ملائكية خفيفة، مع ذلك لا تنقل لها أي شعور بالبرد، التفتت للوراء لتجد الرجل الطيف ما زال واقفًا مثل الطود لا يتحدث ويشير إلى الباب بكف مفتوحة محركًا رأسه بحركة بسيطة لا تُرى.

انفتح الباب على رواق معتم ثقيل الهواء لا ترى فيه أي لمحة للضوء، تمشت بتردد ناحية آخره وهي لا ترى له نهاية، مع تعود عينها على الظلمة لمحت كيانًا مبهمًا على شكل رجل في آخر الطريق، يظهر النور من خلفه، بل هو نفسه مصدر للضوء المتزايد باطراد، دون أن تشعر انتهى النفق، وجدت نفسها في مكان غريب لم تره من قبل لكنها للعجب... غير خائفة.

لم تشعر بوجل أو رهبة، بل تآلف عجيب مع ملامح الرجل النورانية البسيطة، تزايدت تلك الراحة النفسية مع بسمته المطمئنة وذراعيه المفتوحين لها وهو جالس على كرسيه الضخم الذي يشبه شيئًا ما رأته من قبل لكن لا تذكره الآن.

دون أي تفكير وجدت شعورها يخبرها بأن الرجل هو أبوها عمران الذي مات قبل أن تولد ولم تر له حتى صورة.

ألقت نفسها بين ذراعيه الحانيتين تبكي بدموع الفرح تخترق رائحته أنفها، مسد شعرها بخفة وهو يبتسم، رفع ذقنها إليه وأومأ إليها برقة بعين تلمع فيها بوادر الدمع، أمسكها من يدها وخرجا من باب آخر غير الذي دخلت منه.

أخذها إلى غرفة أخرى في نفس المكان الذي لا يقرع أي أجراس في ذاكرتها، عرفها أنه بيتهم الحقيقي لا تلك الغرفة المشؤومة إياها، مع انتهاء قوله ولدت في عقلها ذكريات فورية لا تعلم عنها شيئًا، لكنها مرتبطة بالمكان، فرأت خيالًا لها صغيرة تلعب حول أثاث يحوي لمسات من رائحة غريبة، خليط من الخشب المعتق مع لمحة من معطر جو ما برائحة الخوخ، رأت نفسها أيضًا تخفي ورقة ما خلف الصورة المرسومة للطفل الدامع العينين -أيقونة

البيوت القديمة- على الحائط، تجاورها صورة زفاف قديمة بالأبيض والأسود لأشخاص لا تعرفهم (ظنت أنهما -ربما- جداها لأبيها وكانت محقة).

ذهبت فانتزعت الورقة المصفرة بخفة وفتحتها بحذر خشية تهتكها، لتجد جملة واحدة من كلمتين بخط طفولي مرتعش:

«ليكن النور!»

التفتت إلى أبيها بغية السؤال لتجده يجلس إلى المنضدة الخشبية بأقدامها المذهبة المنحوتة على هيئة مخالب أسد، يعد كنكة القهوة على موقد صغير مخصوص يعمل بالكيروسين، لتشع الحرارة في الغرفة ممتزجة برائحة البن المخلوط بالحبهان لتذيب في نفسها ثلوج القلق والريبة، يخبرها أنه ورث احتراف فنجان القهوة عن أمه.

استطرد مبتسمًا:

كم كانت تقدس قهوة العصاري، ترشفها على مهل ثم تقلب الفنجان في الطبق ذي الحافة الذهبية.

قرع الكلام في ذاكرتها أجراسًا لم تكن موجودة من قبل، فجلست القرفصاء بجوار قدمه بعد أن نسيت الورقة، بل واختفت من يدها كأن لم تكن!

احتضنت كفه المعروقة المتغضنة قليلًا تقبلها بالدموع، تشبع صدرها من رائحته وتمسد خدها بظهر يده لتتشرب ملمس جلده.

أقامها من جلستها وقال لها ألا تبكي، ووعدها بعدم الفراق، أنهى كل منهما فنجان القهوة زكية الرائحة ثم أخذ بيدها عابرين الغرفة تجاه باب ثالث، في طريقهما عبرا أمام مرآة ضخمة مذهبة الإطار تحتل حائطًا بأكمله، فوقفت تتأمل صورتها الجديدة.

بهية، موفورة الصحة، بخدود متوردة، ترتدي فستانًا بسيطًا أزرق غير مبهرج لكنه يبرز براءتها وحيويتها الجديدة كأنه فُصِّل خصيصًا لها، مع حذاء بسيط من نفس اللون بكعب مرتفع زاد من طولها سنتيمترات قليلة لتقارب بها كتف أبيها الواقف جوارها.

وسيم الطلعة أبيض البشرة مشوب بحمرة كأنما له أصول أجنبية!

وذلك بالمنطق مستحيل، لكن من يبالي ومن يفكر أصلًا؟ فعقلها متوقف وقلبها فقط يعمل.

شعر ولحية دائرية مصفوفان بعناية خالط سوادهما بياضهما، عينان مثل بحر أبي قير

البيوت القديمة- على الحائط، تجاورها صورة زفاف قديمة بالأبيض والأسود لأشخاص لا تعرفهم (ظنت أنهما -ربما- جدّاها لأبيها وكانت محقة).

ذهبت فانتزعت الورقة المصفرة بخفة وفتحتها بحذر خشية تهتكها، لتجد جملة واحدة من كلمتين بخط طفولي مرتعش:

«ليكن النور!»

التفتت إلى أبيها بغية السؤال لتجده يجلس إلى المنضدة الخشبية بأقدامها المذهبة المنحوتة على هيئة مخالب أسد، يعد كنكة القهوة على موقد صغير مخصوص يعمل بالكيروسين، لتشع الحرارة في الغرفة ممتزجة برائحة البن المخلوط بالحبهان لتذيب في نفسها ثلوج القلق والريبة، يخبرها أنه ورث احتراف فنجان القهوة عن أمه.

استطرد مبتسمًا:

كم كانت تقدس قهوة العصاري، ترشفها على مهل ثم تقلب الفنجان في الطبق ذي الحافة الذهبية.

قرع الكلام في ذاكرتها أجراسًا لم تكن موجودة من قبل، فجلست القرفصاء بجوار قدمه بعد أن نسيت الورقة، بل واختفت من يدها كأن لم تكن!

احتضنت كفه المعروقة المتغضنة قليلًا تقبلها بالدموع، تشبع صدرها من رائحته وتمسد خدها بظهر يده لتتشرب ملمس جلده.

أقامها من جلستها وقال لها ألا تبكي، ووعدها بعدم الفراق، أنهى كل منهما فنجان القهوة زكية الرائحة ثم أخذ بيدها عابرين الغرفة تجاه باب ثالث، في طريقهما عبرا أمام مرآة ضخمة مذهبة الإطار تحتل حائطًا بأكمله، فوقفت تتأمل صورتها الجديدة.

بهية، موفورة الصحة، بخدود متوردة، ترتدي فستانًا بسيطًا أزرق غير مبهرج لكنه يبرز براءتها وحيويتها الجديدة كأنه فُصِّل خصيصًا لها، مع حذاء بسيط من نفس اللون بكعب مرتفع زاد من طولها سنتيمترات قليلة لتقارب بها كتف أبيها الواقف جوارها.

وسيم الطلعة أبيض البشرة مشوب بحمرة كأنما له أصول أجنبية!

وذلك بالمنطق مستحيل، لكن من يبالي ومن يفكر أصلًا؟ فعقلها متوقف وقلبها فقط يعمل.

شعر ولحية دائرية مصفوفان بعناية خالط سوادهما بياضهما، عينان مثل بحر أبي قير

الرائق في نهار صيفي، يرتدي ملابس بسيطة لكنها قمة في الذوق، ينبعث منه لأنفها عطر رجولي خفيف.

أب وابنته من أسرة متوسطة الحال أقرب إلى ميسورة -وهذا أيضا مستحيل، لكن بالمثل من يبالي؟-متفاهمان كما يجب أن يكونا، في طريقهما لقضاء وقت ممتع معا، وقد كان... فبمجرد عبورها الباب الأخير انقطعت أنفاسها من الانبهار.

وجدت نفسها في قصر المنتزه، أشهر حدائق الإسكندرية، تحول الطقس من فوره إلى جو ربيعي مشمس، أجبرها بلطف على فتح عينيها وغلقها أكثر من مرة في الضوء البهي، شعرت بنفسها نسمة رقيقة تمشي بين الأزهار، كأن الأشجار والبساتين خلقت لها وحدها، فالمكان رغم اتساعه العملاق مقصور عليها وأبيها فقط، تمشت تنثر البتلات تحت قدميها على الأرض، لا تعلم أسماء الورود لكن يكفيها شذاها الربيعي المنتشر. ما جدوى الأسماء فهي تذكر اسمها نفسه بوهن في وضعها الحالي.

خلال سيرها مع أبيها تأبطت ذراعه، كم تمنت هذا الإحساس طوال عمرها ولم تنله، فتأثرت قليلًا لكنها تجاوزت الشعور، يتحركان بين البساتين الخاوية في خفة مرحة، من بين فروع الأشجار يترقرق ضوء ذهبي له بصمة ورائحة يضمد جروح روحها، لا كضوء الشتاء الماسخ الذي لا يسمن ولا يغني من جوع، السماء زرقاء إلى حد لا تصدقه، لا تعبر فيها غيمة رمادية واحدة بل سحب بيضاء مبهجة لا تحجب الرحمات النورانية كأن شهور الشتاء ولت بلا رجعة.

تتأمل الزهور الصغيرة التي تتفتح بلا أشواك، تتبادل مع أبيها النظرات الباسمة، تفلت ذراعه لتنطلق وتعدو، يلاحقها بضحكة مجلجلة رائقة، تراوغه في شقاوة طفولية، تتعمد التعثر ليمسك بها ويحتضن كتفيها بين ذراعيه العملاقتين، تشم رائحته العطرية فتتذكر أن تلك الرائحة كانت في جنبات بيتها القديم الجديد، كأنما هما في حلم، لم يتعب أي منهم أو تضيق أنفاسه أو حتى يلهث، رغم حرارة الشمس المنعشة لم يخرج أي عرق من مسامهما، خفة روحهما تملأ المكان شغبًا لطيفًا.

كانا فقط يضحكان.

جلس كل منهما مسندًا ظهره إلى جذع شجرة عملاق، صدراهما يصعدان ويهبطان على سبيل التعود لا من الإنهاك، يتبادلان النظرات الضاحكة من أعماق القلب، بلا مقدمات منطقية أتت أمها من وراء الشجرة وأمسكت بيدها تسحبها برفق قائلة في مرح:

- أحتاج إلى بعض الوقت مع ابنتي أنا الأخرى.

ضيقت عيناها في شقاوة لتتماثل مع عيني مريم مكملة:

- مشاوير نسائية.

التفتت مريم إلى أبيها الذي ربت على كفها وهو يهز رأسه بالموافقة، ما أن قامت مع أمها حتى ذاب المشهد من حولها لتجد نفسها في مكان وزمان آخر.

محطة الرمل، أشهر ميادين الإسكندرية تمسكًا بعراقة الماضي، في نهار شتوي بارد بشكل محبب يثير قشعريرة بسيطة غير مؤذية، مريم تتراقص بين الوسن والاستيقاظ مع رجرجة خفيفة، يلفح وجهها نسيم البحر الخفيف المصحوب برائحة اليود المنعشة، فتنتبه لنفسها في عربة حنطور يجرها حصان شاهق البياض عائدًا من جهة قلعة قايتباي يتهادى.

انتبهت لأمها تجلس إلى جوارها تمسك كوبين من الآيس كريم يحمل كل منهم كلمة عزة بألوان زاهية، تمد يدها بأحدهما مبتسمة مشرقة كما لم تكن أبدًا في حياتها وقالت:

- طالما كانت رحلة الحنطور متؤمة لكِ يا (مريومة).

هربت دقة من قلب مريم عندما سمعت اسم التدليل (مريومة)، لطالما كان الاسم خاص بها وحدها لم يستعمله مخلوق يومًا سوى أمها، لكن الحال تبدل! في السابق كانت مريم طفلة أما الآن فهي تجاور أمها طولًا وتقاربها حجمًا.

حتى أمها كانت في أفضل رونقها متوردة الخدود، مصففة الشعر بشكل بسيط، عيناها تلمعان بأقصى آيات السعادة، ترتدي ملابس مهندمة جميلة تشي بذوق عال مع توسط في الحال، تتدثر بمعطف شتوي خفيف يقيها غدر الشتاء.

ردت عليها الابتسامة بتلقائية وتناولت منها الكوب، على الفور اختلطت في أنفها رائحة يود البحر مع المانجو المتصاعدة بقوة من الآيس كريم شبه الذائب، تضع ملعقة منه في فمها ليذوب أكثر وتذوب هي في البرودة الممزوجة بطعم المانجو المنتشر على حلمات التذوق في لسانها، تستحلبها في فمها ببطء لترتشف الرحيق حتى أقصاه.

مع نهاية الكوب تصل رحلتهم إلى منتهاها، بجوار تمثال سعد باشا زغلول المهيب تترجلان، تسحبها أمها ناحية محطة الترام الكهربائي العتيقة حيث باعة الكتب القديمة، ما إن تراهم مريم حتى تنفصل عن كف أمها وتجلس القرفصاء بجوار أحد الباعة تتأمل رائحة الكتب المعتقة بغبار القِدم، وخزها شيء ما في مؤخرة رأسها مثل همس خفيض يخبرها بأن الصورة ليست واقعية، لم يحدث يومًا أن عشقت الكتب أو جذبت اهتمامها، ولا يمر بذهنها ذكرى تمسك فيها كتابًا قط.

لكنها تجاهلت الصوت، واندمجت في التنقل بين الباعة متناسية الوقت ومتغافلة عن أمها التي وقفت تضع يدها في وسطها متذمرة، حملت كنزها من الكتب في كيس بلاستيكي أسود، تأبطت ذراع الأم ضاحكة تشاكسها معتذرة عن التأخير بأن رائحة الكتب وملمسها أصاباها بالخبال، انطلقتا بسرعة متوسطة تتأملان واجهات المحال التجارية في شارع فؤاد بلا نية حقيقة للشراء، يتناقشان ويتباحثان في موديلات الملابس، تخالفها مريم لمجرد الاختلاف فقط لتستمتع معها بحديث لم تحظَ به في ماضيها أبدًا.

تقودهما الأقدام والمحال حتى وجدا نفسيهما يواجهان سينما ريو العتيقة بسلالمها المرتفعة وأعمدتها الرخامية المصقولة، اقترحت مريم أن يشاهدا فيلمًا رومانسيًا معينًا لمطرب شاب معشوق البنات وافقتها الأم بلا تردد، مع نهايته خرجت كلتاهما دامعة العينين من التأثر، أخذتا تناقشان تفاصيل الأحداث وردود أفعال البطلة على البطل الخائن، اختلفتا واتفقتا، ضحكتا ثم التهمهما شعور الجوع فاقترحت الأم وجبة تقليدية من الفول الإسكندراني لدى مطعم (محمد أحمد)، عادتا بطول شارع فؤاد على الرصيف الآخر لا تتوقفان عن النميمة على خلق الله الغادي والرائح.

شاب على قدر من الوسامة يأتي من الاتجاه المعاكس مشغول بتدخين سيجارة سارح في الأبنية اليونانية والإيطالية الطراز، انتبه إليهما فارتسمت نظرات الإعجاب على عينيه، لكزتها أمها في جانبها لتنتبه إليه وهي تضع كفها على فمها لتغطي شفتيها، وتهمس بتفاصيل الشاب من منابت شعره لأخمص قدميه.

الموقف أخرج أمها من دائرة السلطة الأمومية إلى حيز الصديقة المتفهمة متقاربة السن؛ ما أثار الدفء المخلوط بشجن غريب في باطن مريم، لكنها أيضًا تجاوزت ذلك الإحساس مع وصولهما إلى المطعم الكلاسيكي الشهير.

تأملتا طويلًا في القائمة المذيّلة بتوقيعات المشاهير بداية من فؤاد المهندس حتى الملكة صوفيا!

ثم طلبتا مائدة عامرة بما لذ وطاب من الفول والفلافل المحشية بالخلطة السرية، والبيض المقلي وأخيرًا الشكشوكة المبهّرة مع السلطات والمخللات اللازمة لفتح شهية منفرجة على مصراعيها منذ البداية، فأكلتا حتى شبعتا ثم عادا إلى السيرة الأولى من التمشية الخفيفة طامعتين في هضم الوجبة الثقيلة، سالكتين الشوارع الجانبية حيث المحال المتخصصة في مصنوعات الجلود من أحذية وحقائب نسائية على أعلى مستوى حميمية الصنع.

توقفت مريم مشدوهة أمام عظمة الكاتدرائية العملاقة في شارع بطريركية اليونان الأرثوذكس.

كيف تتواجد كل هذه المتع البصرية والحسية في مكان واحد، بل كل تلك الطرازات المعمارية المختلفة بتناغم وتجانس لا معقول ولا يصدقه عاقل؟

أفاقت من خواطرها على صوت أمها يقترح:

- جوارنا هنا دار الأوبرا ومسرح سيد درويش، هناك حفلة لفرقة الموسيقى العربية يعزفون مقطوعات للسيدة أم كلثوم، ما رأيك في سهرة حالمة؟

دمعت عينا مريم من زخم المشاعر وهي تهز رأسها موافقة، انطلقتا في سرعة قبل بدء الحفل عبر القوس المهيب المزدان بالأعمدة الجميلة ليقابلهما في نهايته جالسًا تمثال نوبار باشا بانفراجة شفاه غامضة.

لكن ما إن عبرت الأقدام القوس حتى انقلب العالم من النقيض إلى النقيض، ارتجَّ كل ما حولها كأن زلزالًا كاسحًا ضرب كل شيء، تتساقط الموجودات من حولها، بل تذوب تمامًا بلا أي مقدمات كأنها ورقة مكتوبة بحبر سائل سقطت عليها قطرة ماء.

بفرقعة خفيفة ظهر نفس الباب المبهم الذي قادها إلى هذا العالم ثم فتح بفرقعة أعلى مطلًا على نفس الممر المظلم، ما إن رأته حتى وقر في قلبها انتهاء الحلم، من مكان ما أحست بنشيج حزن ينبع داخلها، تماسكت وكبحته قبل أن يخرج ويفسد بواقي لحظاتها في الجنة، والتقطت نفسًا عميقًا وتركته يخرج ومعه يمر الأسى.

عندها مدَّت أمها يدًا باردة تتشبث بها، فاعتصرتها بشدة وهي تنسحب بقوة تجاه الظلمة قائلة بنبرة صوت كسيرة للغاية تستحلفها ألا تخذلها:

لا تتركينا... بيدك أن نحيا معًا للأبد... لا تتركينا منسيين في الظلام! وافقي يا بنيتي، وافقي!

تشبثت مريم بذراع أمها مستميتة وقد تأكدت في قرارة نفسها أنها لو أفلتتها الآن فلن تلقاها مجددًا قط.

دموعها تنساب.

الجاذبية تشتد.

مقاومتها تضعف.

ذراعها ينهار.

لا تقوى على مزيد من الجذب.

دون مقدمات ينتهي كل شيء.

يرتد وعي مريم إلى مريم نفسها!

تكتشف وجود ذاتها منقسمة إلى نصفين، إحداهما عاشت حياة مؤقتة مع أبيها وأمها لم تعشها من قبل، خليط من الذكريات المزيفة والواقع البديل، خليط له لون ورائحة ومذاق.

تشاهدها مريم الأخرى البائسة، العالقة في الفضاء بين السماء والأرض ماديًا ومعنويًا، تطفو أمامها الصورة وتعيشها في ذات اللحظة، لا تدري هل هذا حقيقي أم هلوسة سمعية بصرية، ما كل هذا الجنون؟

تطفو في الهواء، تشاهد نفسها وتعيشها في ذات اللحظة.

تنهار على ركبتيها في الفراغ!

صارخة بكل حرقة الدنيا الممزوجة بكل وجع الافتراق:

- لماذا تعذبني؟ ما جريرتي؟

تكوَّن الظل المبهم من الفراغ بجوارها.

ورد بنفس الصوت الغامض المألوف: أعذبك؟ بل أريكِ حياة مختلفة عن التي عرفتِ مآسيها ولم تذوقي مباهجها، أعطيك الفرصة الأخيرة... أعيدي التفكير... الآن لنعود إلى سيرتنا الأولى، علَّ الذكرى تنفع.

بمجرد انتهاء جملته عادت مريم لسقوطها البطيء صوب الأرض وعادت الأفكار تتدفق من ذاكرتها وتسبح حولها في كل مكان.

## - 18 -

# سِفر الخلاص

## مريم

تساقطت شهور السنة مثل أوراق صفراء ذابلة في الخريف، الخريف نفسه تسابق مع باقي أشقائه من الفصول فلم أشعر لا بحرّ الصيف وبهجة الربيع ولا حتى حزن الخريف، جرجرت الأيام خلفها الشهور وبطني تكبر أمامي، لا أخرج ولا أرى بشرًا، يأتيني طعامي وشرابي بمجرد استيقاظي، فنور تعتني بي كما لم يحدث من قبل.

تتولى كافة أموري كما لو كانت أمي التي وددت لو كانت بجانبي في أسود أيام حياتي، لكن عند إعادة التفكير أتخلى عن الحنين إليها، فربما قتلتني أو ماتت حزنًا مرة أخرى.

كل أم تتمنى رؤية ابنتها في ثوب الزفاف الأبيض، تنظر إليها العيون وتشهق في انبهار، تبخّرها وتقرأ المعوذتين، تذهب معها إلى طبيبة النساء لتبشرها بالمولود، تتابع معها تطورات الحمل أولًا بأول متذمرة من دلع بنات هذه الأيام، تسب أدوية الطبيبة وتنصح بوصفات طبيعية من العطارة تقوي الأم على أوجاع المخاض، فلا يُسمع لقولها، تتحسر على خبرتها وشيبة السنين التي لا تعتد بها بنات هذه الأيام.

كل هذا سحب من أسفل قدميها بضربة واحدة، ذبحت فرحتها مع بكارتي.

لا بالتأكيد، لا أريدها معي الآن في موقفي هذا، أستطيع تحمل أي شيء إلا نظراتها، سوف تقتلني بتلك النظرات اللائمة التي كانت تجيدها.

لماذا عندما تضيق بي الأمور أتذكر أمي؟

لا أنكر أن لي ذكريات جميلة مع أمي، إلا أني عندما أتحدث بها لنفسي تنتابني المرارة، لا أذكر ألعابًا أحضرتها أمي وملابس فصّلتها لي، لا أذكر إلا أقل القليل، ودائمًا ما تكون الذكرى على هيئة طعام!

طعام مختلف تحضره معها كل مرة عند العودة من عملها، كل يوم صنف جديد، أجزاء من دجاجة مشوية، سمك مقلي بزيت رخيص، القليل من خليط البقوليات المجهولة والخضار المشكّل، وأوقات أخرى كانت مبهجة، فتذوقت الجمبري المشوي، واللحوم الباردة، بل مرتين أو ثلاثة جربت طعم الكباب.

لكني لا أنسى ذلك اليوم أيضًا عندما كنت ألعب مع الأطفال في ظهيرة يوم شتوي في

ديسمبر، دفعني أحدهم عن عمد أو هزر في ترعة الخندق، فعدت إلى أمي مبتلة حتى أن معدتي من الداخل كانت ترتعش، أقطر الماء من كل مكان، وكانت تستعد لعملها بزبنتها وملابسها المكونة من طبقتين إحداهما لا أراها أبدًا وهي السفلى، وأخرى بالأعلى عبارة عن معطف وبري ناحل لا يُظهر إلا أطراف أقدامها، ما إن رأتني حتى انتفضت وخلعت عني ملابسي وأبدلتها بأخرى جافة، ولفّتني جيدًا ببعض الأغطية المهترئة ثم أسرعت لتعد مشروبًا ساخنًا يطرد البرد من عظامي، لكن الأوان كان قد فات، بدأت حرارتي في الارتفاع وجسدي في الارتعاش وذهبت في نوبات من النوم المخلوط بتخاريف الحمى، أفيق بعض الوقت لأجد أمي بجواري وقد ارتدت ملابس البيت تصارع النوم لتبقى متيقظة، تبدّل لي كمادات الماء البارد على جبهتي، وتقوم بفرك صدري بدهان أزرق عطري نفاذ الرائحة أقرب إلى النعناع الخام تأثيره سحري، ينشر الدفء في مكانه ويحرق أغشية أنفي، لكن تنطلق بواسطته دفقات الهواء تملأ صدري وتنعشني، ذكرى مريضة، لكنها كل ما بقي لي من طفولتي.

إذًا فلماذا الحنين؟ وإلى ماذا؟ ومن؟

أب هارب وأم ميتة.

لولا نور وعنايتها بي لكنت الآن في الأزقة أتسول أو أبيع لحمي لأكسب قوت يومي، صحيح أنها خشنة الطباع تنفر من التقارب بين الناس، غير أن كل ذلك لا ينكر فضلها ولا ينفي قوة موقفها معي، بعد ما اكتشفت فضيحتي التي تكبر يومًا بعد يوم.

كما تتقلب قلوب الناس بين يدي الخالق، تحولت نور من اللا مبالاة إلى الاهتمام، متتبعة لكل التفاصيل الدقيقة في حياتي والاهتمام بغذائي ودوائي الذي أجده جواري على المنضدة بعد الاستيقاظ في كيس صيدلية جورج راسم بالتحديد، إلى جانب استغلالها لخبرتها كقابلة محترفة في الانتباه لحالتي الصحية والتغيرات التي تحدث في جسدي!

بلغت بها دقة الاهتمام بحالي إلى ملاحظة تغيير حجمي مع تعاقب الشهور؛ لأنه مع الشهور التالية للحمل تبدل جسدي، تضخمت بطني وأصبحت ملابسي المعتادة تضيق على صدري ولا أستطيع التنفس.

فابتاعت لي نور سراويل واسعة مخصصة للحوامل، ألوانها قاتمة، بعضها كحلي والآخر رمادي داكن، حتى سراويلي الداخلية صغُرت فاستبدلت بأخرى سوداء كأيامي.

كانت الملابس أيضًا مناسبة لحالة الطقس المميز لبيت نور، فليست ثقيلة جدًا لكنها تدفئ بالقدر المطلوب، ذلك ما لاحظته طوال إقامتي هنا، فبرغم قرب المنزل من الماء مثل باقي

بيوت المنطقة، إلا أني لم أشعر يومًا بالبرد القارس، بالطبع أدرك تقلب الفصول، لكن دون تجاوز، فقط مرحلة وسيطة من كل إحساس، في الشتاء الجو بارد إنما محتمل؛ ألمسه في برودة الأواني والحوائط دون أن أرتعش بعكس برد الإسكندرية المعتاد، أما الصيف فهو حار رطب لكنه أيضًا مقبول، فلا يتفصّد مني العرق طوال الوقت والرطوبة لطيفة!

جربت قياسات الملابس فوجدتها تلائمني بالضبط كما هي العادة مع عين نور الحساسة.

لم أستطيع شكرها بشكل كافٍ فاكتفيت بالبكاء، وهذا أيضًا لازمني مؤخرًا كأن حزني ليس كافيًا فأصبح مزاجي متقلبًا بلا توقف، أبكي بلا حساب ودون أي مقدمات.

فأكثر من الشكوى بلا ترتيب، بلا بداية أو نهاية؛ وكانت تلك أهم ظنوني، صحيح أني مقيمة إقامة كاملة في البيت لا أغادره ولا يعلم أحد عن خطيئتي شيئًا، لكن ما العمل بعد الولادة، وما العمل في طفل بلا أب؟

مهما اشتدت تقلباتي المزاجية فنور هنا، دومًا إلى جواري، لم تتذمر مني يومًا؛ بل تجلس أمامي على طرف السرير تسمع مني في إنصات مهتم، تطمئني بأنها لن تتركني، والطفل القادم ستربّيه هي بطريقتها كما ربّتني، قالت بغموض لم أفهمه:

- طالما عدتِ إلى النور، فأنا معك.

وبالفعل لم تكن تتركني أتحرك أو أساهم في أعمال المنزل اليومية، لكني أتمرد من وقت لآخر فأستغل الوقت المقدس الخاص بنور عند شروق الشمس لأمارس بعض أعمال التنظيف البسيطة غير المجهدة، أتحمل بعدها وصلة من التقريع، لكن ضميري يرتاح قليلًا عندما أشعر بأني أفعل أي شيء.

ويشرق صباح جديد تتكرر فيه نفس الترتيبات، لا أملُّ من إعادة فعلتي ولا تمل هي من تقريعي، لكنها لا تتخلى عن جلستها اليومية ولا أنا أتخلى عن استغلالها، حتى انقلب الحال رأسًا على عقب.

يومها خلال تنظيفي بالمقشة لغرفة المعيشة التي هي أيضًا غرفة الطعام، انفتح باب المنزل بمنتهى العنف حتى كادت تنخلع مفاصله، وظهر من فتحته آخر شخص أتمنى رؤيته الآن.

حمو!

وضعت يدي المفتوحة على فمي أكتم صرخة كادت تفلت عندما رأيته يرتدي بنطالًا ممزقًا في أكثر من مكان، وقميصًا كان في يوم ما أبيض لكنه الآن أقرب إلى الرمادي، يحمل في

يده مطواة تلمع ببريق أخاذ يدل على أنها جديدة لم تستخدم بعد.

ذقنه طويلة، تحت عينيه أسود، فقد من وزنه ما لا يقل عن عشرة كيلوجرامات، يبدو أقرب إلى الهزال منه إلى الصحة، يتقدم مني في خطوات بطيئة، عينه معلقة بـ... ببطني!

لم يعلم بعد... ملامح الذهول ترتسم على وجهه، غائب العقل، فاقد القدرة على النطق كأنما أصابه الخرس، تتنقل عيناه بين وجهي وبطني بلا توقف، أرد أنا على سؤال لم يُطرح بهزة رأس لا إرادية.

تنفرج شفتاه عن صوت مشروخ جاف كأنه لم يتحدث من أيام طويلة:

- حامل يا مريم؟! حامل من الشيخ الهائج الميت؟!

لا أقوى إلا على هز رأسي مرة أخرى بعينين متسعتين من الرعب.

يكمل وقد بدأ الغضب يكسو ملامحه:

- أخذ مني كل شيء، امتلكك حتى بعد أن مات، امتلك كل ما تمنيته بضربة واحدة، امتلكك أنت بعدما منيتُ نفسي بأن أنال جسدك عمرًا بأكمله، فكرت حتى في الزواج منك والإنجاب، لكنه أفسد كل شيء، أفسده وهرب حيث لا أملك مطاردته!

لو كان على الأرض ولو في جحر لأمسكته، ولقتلته مرة أخرى بل مرات ومرات، ثم أخصيت جثته جزاء فعلته القذرة.

شهق بعنف في محاولة لتمالك غضبه مكملًا:

- لم تفارقي خيالي طوال فترة التحقيقات معي، حتى هربت خلال نقلي بعد المحاكمة إلى سجن الحضرة، بعدما أقرّ القاضي بعقوبة خمسة وعشرين عامًا، لم تكن تلك مشكلتي، مشكلتي كانت دومًا هي أنت، فلن أراك طوال تلك المدة!

طوى نصل المطواة، واقترب مني وأنا أرتعش حتى فقدت التحكم في مثانتي وانسال البول يغرق فخذي، وكل ما يرتسم أمامي صورته المخيفة وهو يذبح جبريل بلا ذرة تردد واحدة.

الوقت يتحرك لكن في بطء مميت، الخوف أثقل ظهري وجمّد ساقي في مكانها فعجزت عن الحراك، الحجرة تضيق وأنفاسي اصبحت شديدة اللزوجة ترفض الدخول إلى صدري، روحي نفسها تختنق قبل حتى أن يمسّني.

انتفضتُ حين أمسك كتفي وقربني منه كأنه يضمني إليه، بالفعل ألصقني بصدره الناحل

بالقوة، يتشمم شعري بعمق وأنا مشلولة لا أقدر على أي رد فعل غير قشعريرة تسللت إلى جلد ظهري ومنه لبدني بأكمله.

سحب نفسًا آخر من شعري وهو يعصرني بين ذراعيه ثم يخرجني بعنف محدقًا في عيني وأكمل:

- بحثت عنك في كل مكان، قلبت المكس من أعلاها لأسفلها، لا يعلم عنك أي شخص أي شيء من يوم الحادثة! نعم لا تتعجبي، سألت الجميع ولم يجرؤ شخص واحد على إبلاغ الشرطة، الناس ما زالت تخاف مطواتي...

لم أفقد الامل...

إلى أن نمتُ يومًا منهكًا من التعب في الخرائب القريبة فقادني إليك حلم؛ كأن الحجاب كُشف عني مثل سيدي المرسي أبو العباس، رأيت ضياء الذي طالما كان في ظهري يحضر في المنام، يشير بامتداد ذراعه اليسرى إلى الفراغ فتتجسد صورة باهتة كأنها شبورة الصبح، رأيت فيها الحقيقة التي كانت تائهة عني بطريقة غريبة كأنها مُسحت من رأسي، أن لا مأوى لك إلا دار العجوز نور، وها قد أتيت... لتكمل ما بدأناه!

اتسعت عيناي عندما أدركت ما يريده، لا لن يحدث، ليس مرة أخرى.

استطرد وعيناه تتسعان في جنون:

- نعم نكمل...

تعودين لي، أمتلكك وحدي.

أعلم...

أعلم يا حبيبتي، لا تقلقي بشأن الحمل فحله بسيط!

كما مسحتُ جبريل من الدنيا، سأعيد الكرّة وأمنع أوساخه من الظهور.

وأعاد إشهار مطواته هو يضحك بأقصى ما لديه، حتى دمعت عيناه وسعل من صدره المخشخش، الجنون يرقص في عينيه المتقافزتين بلا توقف، يقترب مني وأنا أبتعد عنه حتى تعثرت وسقطت على ظهري متأوهة.

هنا...

وهنا فقط عاد لي صوتي، فأفلتت مني صرخة طويلة حملت كل خوفي، قابلها هو بضحكة مجلجلة تعبر عن ذهاب عقله، صرخ بعدها بمقت:

- لا تخافي... فأنا أحبك.

لن أوذيك.

أنت حبي الوحيد.

منذ كنت طفلة بضفيرة طويلة وشريطة حمراء وأنا أحبك.

عشقت حركاتك، ووجهك البريء.

مشيتك المتقافزة، عينيك الواسعتين سريعتي الدمع.

تنهد بزفير حار وأكمل:

- دموعك التي ما إن رأيتها في طفولتنا حتى أحببتك فوزا، أجمل لحظاتك كانت دائما وأنت باكية، مع أول قطرة سقطت على خدك تذوقتها في قلبي.

يومها أقسمت على حمايتك، وأقسمت أن أمتلكك، وإلى الأبد.

لي وحدي.

ولن يشاركني فيك أي كائن حي كان... أو ميت.

أمسك شعري بغلظة فصرخت بقوة أكبر.

تابع بعينين مغرورقتين بدمع القهر وشفتين تضحكان في تشفٍّ:

- لا تخافي...

لن تتألمي، سأطهرك من قذارة ذلك ...

ذلك الـ... ذلك الكافر!

سأشق بطنك وأخرج الحرام ابن الحرام من داخلك، عندها تعودين لي، تعودين سليمة، طفلة!

نعم طفلة بريئة من جديد و ...

قطع كلامه عندما ظهرت نور من اللا مكان، وانقضت عليه من الخلف فأفلتني واستدار يواجها، عندها انزلقت من بين يديه وتربّعتُ في ركن المكان أرتجف وأشاهد الرعب بعيني، نور تمسك حمو من شعره الخشن بمنتهى الغل تسبه صارخة:

- يتكرر تدخلك في كل شيء فتفسده أيها اللعين، دورك انتهى، اتركها لحالها، هي الآن

عندي...

اختارت أن تكون عندي...

كف يدك القذرة عنها، لن تنتزعها مني...

لقد عادت إلى الصواب ولن أتركها!

أخذ حمو يحاول الإمساك بها بأي طريقة، يحاول التملص من قبضتها الحديدية التي لا تتناسب مع سنها على الإطلاق، لكن بلا جدوى، فقد أضافت أسنانها في أذنه تعضه بكل ما فيها من عزم و ... غل!

ينجح بصعوبة في إلقائها بعيدًا عنه، فتصطدم بمقعدها الخشبي المفضل محطمة إياه بمنتهى العنف، تعتدل في شراسة مثل لبؤة تدافع عن أشبالها، تبصق دمه من فمها مثبتة عينها في عينه الدامعة وهو يضع يده اليسرى على أذنه الدامية، يتحول وجهه بالتدريج من الذهول والألم إلى الغضب، ليس غضبًا عاديًا بل كغضبة كلب مسعور فقد فريسته للمرة الثانية!

للمرة الثانية يتدخل القدر ليمنع حمو مني، فور انتباهي لذلك دبت القوة في أطرافي فبدأت أتحرك بمنتهى البطء، ظهري ملتصق بالجدار، ساقي اليسرى ترتعش دون تدخل مني، تملأ أنفي رائحة بولي المخلوطة بدماء حمو وغضب نور، أتابع بعيني الوحشان المتصارعان، كل منهما يزن قوة الآخر بالنظرات فلا يتقدم أحدهما ليهاجم، بل كلاهما أقرب إلى الجمود، لا يكسره إلا حركة عصبية من حمو يغلق ويفتح فيها مطواته الجديدة.

قلبي يدب في صدري من الرعب وعقلي متوقف عن التفكير، رغم غرابة الخصمان المتصارعان بين القوة والضعف، الشباب والشيخوخة، فالكفتان متساويتان!

كل من وضع قدمه على أرض المكس يعلم من هو حمو، كما أني رايته يذبح شيخه هو نفسه بلا شفقة أو لحظة تردد واحدة، إن أراد حمو شيئًا لا ينتظره ولا يطلبه، بل ينتزعه انتزاعًا من أسنان الوحوش.

غير أني عشت مع نور أغلب حياتي، وأعلم كم هي صلبة خشنة لا تتراجع ولا تهتز أمام خطر، لكن مع ذلك معظم قوتها في كلامها، صوتها، سلطتها وهيبتها لا جسدها، لكن مما أشاهده الآن يبدو أنها خصم لا يستهان به، فحمو متأرجح بين الهجوم والدفاع ولا يأخذ المبادرة الأولى.

إلى جانب كل مشاعر الرعب بداخلي انتابني شعور آخر غير مبرر في هذا التوقيت وهو...

الحرا!

ارتفاع غريب في حرارة المكان، حتى إن عرقي السائل من جبهتي على حاجبي يمنعني من الرؤية السليمة وجلبابي المنزلي ملتصق بظهري تمامًا من الرطوبة الخانقة!

أثبت عيني عليهما وأنا أتجنب الخشب وقطع الأثاث المحطمة في كل مكان، أحاول الوصول إلى باب المنزل الذي يسده حمو بجسده، أشاهد بطرف عيني نور تعتدل من سقطتها وتمسك بأحد أرجل الكرسي الخشبي التالفة كسلاح، يبدو أن حركتها أخبرت حمو بنيتها في الهجوم فبادر هو قافزًا عليها يشهر مطواته فوق رأسه.

الآن...

الآن فرصتي!

لا أفكر مرتين وأركض بكل خوفي صوب مكان الباب الخاوي، ممسكة ببطني المتكورة أمامي وأنا أصرخ صرخات متقطعة دون الالتفات إلى مصير نور أو نتائج المعركة.

نفسي.

نفسي.

## - 19 -

# سِفر الاختيار

صوت أنفاسها المتلاحقة يطن في أذنها، يغمرها العرق البارد ويبلل ظهرها، الدموع تغمر وجهها وتسيل كحل عينيها، يتصاعد البخار من فمها بلهيب أعماقها لا يبرده ولا حتى هواء الإسكندرية، ألم ممض يتصاعد من بطنها كأن طفلها يشاركها الرعب، تستمع لوقع طرق حبات المطر على ملابسها الخفيفة، فالسيل يجلد الإسكندرية في موجة عشق سادية.

تتلفت وراءها مرارًا في فزع، تنطلق في الخرائب الملاصقة لبيت نور تناور وتحاور وتحاول ألا تسقط بسبب المطر والوحل.

ابتعدت كثيرًا عن العمران، لكن حتى إن كانت في وسط المدينة لن تجد من ينقذها، الطقس في أسوأ حالاته كما لم يحدث من سنين، كأن السماء نفسها تشاركها الرعب، من يخرج في هذه الأجواء إلا هارب مثلها؟

وجدت نفسها دون قصد بجوار الفنار القديم، استندت إلى جداره المهشم تحاول التماسك وتجميع شتات نفسها، قلبها يكاد يقفز من ضلوعها، الألم من أسفل حوضها أصبح كاسحًا، لم تقوَ على الوقوف فجلست على الأرض الموحلة منفرجة الساقين قليلًا، تنهمر من عيونها أمطار تنافس دموع السماء التي بللتها حتى النخاع.

احتضنت نفسها، حاوت القيام أكثر من مرة لكن بلا فائدة، رعبها يتصاعد بلا توقف بسبب كلاب المنطقة التي كانت مألوفة قديمًا، الآن تزوم عليها من بعيد في تهديد وتقترب كما هو واضح من صوتها، لا تعلم ما العمل ولا أين المفر؟

الخطر يطاردها في كل مكان، حتى نور ملاذها الآمن وقلعتها الحصينة لم تعد كذلك.

ما إن تذكرت نور حتى تضاعفت حدة نحيبها، وأدركت أنها تؤذي كل من حولها، بل هي لعنة تمشي على قدمين. أبوها اختفي قبل أن تولد ولم تره، أمها هي الأخرى ماتت، ماتت ولم تدرك لماذا ولا كيف ماتت.

فقط ماتت، كم تفتقدها الآن! كم تحتاج إلى حنوّها وحضنها! لكنه المستحيل.

جبريل الطيب التقي، من رأت فيه سمات الأب الضائع تحول إلى وحش كاسر التهمها، حمو البطل تحور إلى خائن وقاتل، حتى نور الجبارة، أسطورة المكس، السيدة التي يهابها الجميع مصيرها مجهول!

العامل المشترك بينهم جميعًا وبين مصيرهم الأسود هو مريم، كل من تحبه يموت أو يتبدل كأنها ممسوسة، تصيب كل من حولها بلعنة التدمير، لماذا هي بالتحديد؟

أي قدر كتب عليها هذا الشقاء؟

بل أي إله يقبل لها كل هذا الأسى؟

لم يرافقها في كل محطة من حياتها الموت والدمار؟

أي اختبار ملعون كتب عليها في السجلات المحفوظة؟

لماذا تدفع دفعًا إلى الكفر بكل ما هو جيد ونقي وطاهر؟

لماذا يتحول كل جمال وعطف وحب بين يديها إلى قبح وقسوة وكراهية سوداء؟

الانفعال بلغ بها أقصى مبالغه فارتعدت غضبًا كما لم تفعل من قبل، ورفعت رأسها تخاطب السماء وهي تصرخ بكل ما في كيانها من ألم ونقمة:

- يكفي...

أستحلفك بكل المقدسات؛ يكفي.

لم أعد أحتمل.

أخذت تصرخ بآخر كلمة بأقصى طاقتها كما لم تصرخ من قبل، صرخت حتى صمتت الموجودات من حولها، لم تعد تشعر بالريح أو المطر، لم تعد تشعر بآلام في بطنها ولا جنينها، لم تعد تشعر بالرهبة أو الخوف من أي شيء أو على أي شيء.

صرخت حتى نفدت طاقتها وانهد جسدها، فسقطت أرضًا بلا حراك فاقدة الوعي.

***

الليل يسدل أستاره فوق جسد مريم المسجى على الأرض الترابية المبتلة بالأمطار، الظلام والوحشة مع صوت الريح صنعت مشهدًا مهيبًا جعلها تنتفض في نومتها كأنها تحلم بكوابيس ثقيلة، كأنما لا يكفيها ما في يقظتها من عذاب لتتعذب في نومها بالمثل.

رأت فيما يرى النائم؛ نفسها صغيرة في سريرها بغرفة أمها القديمة المفعمة برائحة الحبهان الذكية، يدور حولها طيفان؛ أحدهما بالتأكيد أمها، تستطيع تعرُّفها بلا مجهود، رغم أن الطيف مبهم نسبيًا لكنه يحمل من عبق أمها الكثير.

إحساس غريب يشبه رؤية شخص ما من ظهره أو من بعيد فتعلم في نفسك يقينًا من هو

رغم أنك لم تتأمل وجهه بعد، أما الظل الآخر فبنفس الإحساس الغامض علمت أنه أبوها عمران، يدوران حولها في حركات منتظمة بلا انقطاع أقلقتها فانكمشت حول نفسها في رهبة.

الحركة ثابتة وطقسية بشكل ما، ما رشّح إحساسها ذلك هو همهمة غير مفهومة تصدر عن الأطياف، مع التركيز استطاعت تمييز رتم ثابت منغم لتلك الهمهمة، فانقبض قلبها أكثر واحتضنت رأسها المكدود من الألم الذي يكاد يفلقه نصفين، تزايدت سرعة الدوران بشكل متصاعد منتظم حتى اقتربت من العدو، معها تصاعد صوت الهمهمة المنغمة فتحولت إلى ما يقارب الأوركسترا الأوبرالي.

ودون مقدمات توقف الدوران وتغيرت مكونات المشهد، رأت نفسها تتحول لبالغة ترقد في بيت نور على سريرها الأثير، أكثر نضرة وشبابًا ولكنها ما زالت نائمة.

يحيط بها الضباب المتزايد من كل جانب، ينظر إليها في نومتها طيفان جديدان مكان أبيها وأمها، الأول هو حمو بقامته النحيلة ومطواته المفتوحة على الدوام ونظرة عينه الواحدة التي تخترق ضبابية المشهد مثبتة عليها، والآخر هو جبريل بسمنته وحجمه الضخم، ومثل سابقيهم انطلق كل منهما في الدوران حولها وتصاعدت نفس الهمهمة المنغمة بلا توقف، ثم تصاعدت سرعة الدوران ولكن الجديد أن الدوران يضيق مع كل دورة كاملة.

فكل دورة تقرّب الطيفين منها تدريجيًا.

الهمهمة تزيد.

الدائرة تضيق.

وأنفاسها تضيق معها فتتقلب في نومتها، تقلق، تتحرك بعصبية، عيناها تتراقصان أسفل جفنيها المغلقين، معدل تنفسها يرتفع، صدرها يعلو ويهبط، تحرك رأسها يمنة ويسرى بلا توقف.

الأطياف تكاد تلامسها، بل تحتك بأطراف جسدها بالفعل، فتنتفض من منطقة الملامسة وتبعدها، تحاول الانكماش في منتصف السرير لا إراديًا كأنها تدرك الخطر المحيط بها.

ويتكرر الأمر مرة أخرى بلا مقدمات، تتوقف الهمهمة ويتصلب الطيفان هنيهة في ثبات مرعب، ثم ينقض ظل حمو عليها فيخترق جسدها بملمس ثلجي غريب ترتفع معه معدلات انتفاضاتها، يليه ظل جبريل بدوره فيرزق وجهها كأنها تختنق، ترفع يديها لرقبتها كمن يفك حبل مشنقة تسحب الروح من الجسد.

الظلان يتصارعان بداخلها، تكاد تتمزق.

فجأة يظهر نور مبهم يبدد الظلام من حولها والأطياف من داخلها.

بصوت حشرجة أقرب إلى الاحتضار تفيق من نومتها أو غيبوبتها أيهما أدق.

تفتح عينيها في إعياء لترى من خلف رموشها المرهقة المبللة بالدمع نور تتقدم نحوها بثبات، صورتها أوضح من كل الأطياف، تمد لمريم يدها اليمنى فتمسكها مترددة.

تطبق نور عليها، تشعر براحة فورية مع لمستها وتتركها تسحبها من كل ما حولها، ينسحب من داخلها كل الغم والخوف، تتكسّر أبراج القلق وتهوي كأن لم تكن، وتتكون بدلًا منها مروج من الطمأنينة.

لكن على حين غرة تضربها أعاصير الرعب من جديد مع تعرض مريم لجذب من ذراعها اليسرى بقوة مفاجئة، تلتفت لترى ضياء صديق حمو، يجذبها بقوة في الاتجاه العكسي، تعاود النظر إلى الجانب الأيمن في رجاء، لتجد أن صورة نور تتضاءل، كأنما لا يصح أن يمسّها كلاهما معًا!

أخذ جسدها في الانتفاض فبدأ عقلها في الاستيقاظ، بالتدريج ذابت الموجودات من حولها، ثم تكون مشهد جديد، لترى نفسها على وضعها الحالي بجوار الفنار.

كل شيء متطابق، جسدها المنهك، بطنها العملاق، الأطلال من حولها، الوحشة والظلام...

كل شيء!

إلا تفصيلة واحدة.

ضياء!

ما زالت تمسك بيده وهو الآن يجثو على ركبته جوارها، بكل تفاصيله وملابسه المعتادة غير أنه أقرب إلى الكمال بصورة ما.

متألق بشكل معين يرهق عينيها المكدودتين.

أكثر رونقًا وبهاء.

و... يبتسم.

ابتسامة الواثق، ابتسامة من ينتصر في النهاية وقال:

- كل ما حدث يمكن إصلاحه!

سكت برهة وأشار إلى بطنها المنتفخة وأكمل بنفس الابتسامة العابثة المتسعة:

- فقط عليك دفع الثمن، بإرادتك الحرة، فقط عليك الاختيار!

ومد يده يمسّد بطنها برفق، حاولت التراجع لكن ظهرها كان للحائط بالفعل، راقبته برهبة.

استمر يمسّدها برقة، ومن عينيه تنطلق لعينيها وبطنها نظرة عجيبة خليط من الحنان والغضب، ارتاحت قليلًا مع لمساته وإن شابها شعور بالغربة.

بلا مقدمات اختلفت حركة يده وانتقل إلى الضغط!

الضغط على بطنها برفق لكن بقليل من الألم.

ألم بسيط في البداية ثم زاد.

تصاعد بعنف حتى شعرت كأن يده تخترق أحشاءها فصرخت...

بلا توقف...

***

استمرت في الصراخ.

حتى أفاقت من غيبوبتها على صراخها من الألم، شعرت بأن يد ضياء ما زالت تعبث داخلها، لكن الوهم زال مع الألم الممض الكاسح كأنها تنشق من الداخل ومن الأسفل في آن واحد، أدركت بعد فترة وجيزة شل فيها الألم عقلها أنها تلد!

تلد!

الآن وهنا؟

ماذا تفعل؟ أين المفر أو المنقذ في هذا الخراب؟

عيناها تحتقنان، الحزن يجتمع مع الألم، يضاف إليهما رائحة التراب والعطن فتضيق على صدرها الأنفاس، فرجت ما بين ساقيها بشكل غريزي، تحاول استجماع شتات نفسها بلا فائدة.

تشعر بجسدها ينفلق نصفين، إحساس لا يضاهيه أي ألم في الدنيا، مستمر قاطع ليس كما رأت في طفولتها على هيئة قبضات وانقباضات يتخللها صراخ، تزيد الاتساع بين ساقيها، تغرس قدميها الحافيتين المدممتين في الأرض، تحاول الدفع بكل قوة عضلات بطنها لأسفل، تأخذ شهيقًا تحاول أن يكون عميقًا لكن يتخلله دموع وسعال ومخاط.

تدفع أكثر.

المزيد من الشهيق المبلل بالدمع الصارخ.

تدفع أكثر.

تشعر بسوائل لزجة لا تعلم ماهيتها تسيل على فخذيها، لا تفهم ولا تدرك ما عليها فعله، لا زالت ترى نفسها طفلة، زهرة قُطفت قبل الآوان.

ينتابها خليط من رثاء النفس واليأس مع الألم الجسدي فتبكي أكثر وتدفع أكثر بكل ما فيها من غريزة بقاء.

بعد صراع مع ما لا تفهمه طال وقتًا لا تعلمه، شعرت به يخرج منها وتخرج معه روحها من جسدها.

طفلها!

تمد يدها المرتجفة تحتضنه، لزجًا ملطخًا بدماء وسوائل مجهولة لكنها أحبته من فورها، فرغم كل ذلك يبدو كما لو أنه يشع نورًا.

احتضنته وبكت، لكنه دمع مختلف فيه من الراحة الكثير، انتبهت إلى الحبل السري، تذكرت رحلاتها مع أمها ونور إلى حالات الولادة المختلفة في أرجاء المنطقة، وإصرار نور غير المفهوم على إحضار طفلة صغيرة مثل مريم إلى ولادات منزلية!

بل وتجبرها على التركيز في التفاصيل، رغم معارضة أمها فهي مثل الجميع لم تقدر على معارضة شخصية نور الكاسحة ورضخت.

وبعد كل ولادة كانت نور تسأل مريم في التفاصيل والخطوات المتبعة لسلامة الأم والطفل، الآن فهمت جدوى كل ذلك، كأن نور كانت ترى المستقبل.

تلفتت حولها فوجدت زجاجة بيرة مهشمة أمسكتها، وبقسوة ممزوجة بقوة لم تعهدها في نفسها قطعت الحبل، بعدها تنفست الصعداء.

من فرط الإجهاد راحت فيما هو مرحلة بين الوسن والنوم، لكنه لم يكن أبدًا نومًا بل إلى اليقظة أقرب، فيه رأت ضياء من جديد، وتذكرت تلميحات نور لها على مر الزمان، ومنه قامت منتفضة وقد تجمعت الصورة الضخمة في ذهنها.

ترتب كل شيء منذ البداية.

بل من قبل حتى أن تتصور.

تدفع أكثر.

المزيد من الشهيق المبلل بالدمع الصارخ.

تدفع أكثر.

تشعر بسوائل لزجة لا تعلم ماهيتها تسيل على فخذيها، لا تفهم ولا تدرك ما عليها فعله، لا زالت ترى نفسها طفلة، زهرة قُطفت قبل الآوان.

ينتابها خليط من رثاء النفس واليأس مع الألم الجسدي فتبكي أكثر وتدفع أكثر بكل ما فيها من غريزة بقاء.

بعد صراع مع ما لا تفهمه طال وقتًا لا تعلمه، شعرت به يخرج منها وتخرج معه روحها من جسدها.

طفلها!

تمد يدها المرتجفة تحتضنه، لزجًا ملطخًا بدماء وسوائل مجهولة لكنها أحبته من فورها، فرغم كل ذلك يبدو كما لو أنه يشع نورًا.

احتضنته وبكت، لكنه دمع مختلف فيه من الراحة الكثير، انتبهت إلى الحبل السري، تذكرت رحلاتها مع أمها ونور إلى حالات الولادة المختلفة في أرجاء المنطقة، وإصرار نور غير المفهوم على إحضار طفلة صغيرة مثل مريم إلى ولادات منزلية!

بل وتجبرها على التركيز في التفاصيل، رغم معارضة أمها فهي مثل الجميع لم تقدر على معارضة شخصية نور الكاسحة ورضخت.

وبعد كل ولادة كانت نور تسأل مريم في التفاصيل والخطوات المتبعة لسلامة الأم والطفل، الآن فهمت جدوى كل ذلك، كأن نور كانت ترى المستقبل.

تلفتت حولها فوجدت زجاجة بيرة مهشمة أمسكتها، وبقسوة ممزوجة بقوة لم تعهدها في نفسها قطعت الحبل، بعدها تنفست الصعداء.

من فرط الإجهاد راحت فيما هو مرحلة بين الوسن والنوم، لكنه لم يكن أبدًا نومًا بل إلى اليقظة أقرب، فيه رأت ضياء من جديد، وتذكرت تلميحات نور لها على مر الزمان، ومنه قامت منتفضة وقد تجمعت الصورة الضخمة في ذهنها.

ترتب كل شيء منذ البداية.

بل من قبل حتى أن تتصور.

كلما فكرت أكثر ترتبت الأحداث بصورة أدق، عينيها تتسعان ومعهما فمها، لا تستوعب حجم ذلك التخطيط.

نور...

ضياء...

جبريل...

حتى نوران الموجودة غير الموجودة!

كلها مجرد مقدمات تشير إلى نتيجة واحدة!

نتيجة تفرض نفسها على ذهنها مهما أبعدتها.

جحظت عيناها ونظرت إلى وليدها.

فهمت...

وصرخت بصوت مبحوح من الخوف:

- لقد كانت بالفعل ترى المستقبل!

فهمت كل شيء.

فهمت أن الجميع رسبوا في الاختبار، لكنها لن تكون له مثلهم، لن تسحق مثل قلعة من رمال شوّيت بالأرض مع أول موجة بحر عاتية.

برقت الومضة في ذهنها وتجسدت.

القلعة...

شردت في حل المعضلة، ربما هناك اختيار ثالث!

ربما كان الهرب هو الحل!

ومن خلفها بعيدًا دوى صدى صوت الشيخ فرحات بنهايات حروفه الممطوطة صائحًا: (الله حي).

## - 20 -

# سِفر الشتات

## مريم

**31 ديسمبر**

**قبيل منتصف الليل**

**المكان... الإسكندرية**

قلعة قايتباي العتيقة تقف كشبح عملاق يحرس مدخل الميناء من البحر، تبدو أكثر إظلامًا من الليل بشكل ما.

الزمان... ديسمبر.

آخر يوم في السنة، يموت فيه عام مليء بالإحباط والألم والموت.

الساعة... الحادية عشر مساء.

أتسلل متخفية بين الظلال السوداء والمنطقة غير المضيئة، أحمل لفافتي، ومصيبتي الأخيرة التي لم تكن الأولى.

أتحرك بحذر على الصخور المكعبة باتجاه المدخل الخفي للقلعة، بعيدًا عن أعين الحرس النائمين أصلًا، أتألم... فما زالت جروح جسدي مفتوحة وجروح نفسي تنزف.

أحفظ القلعة بأكملها عن ظهر قلب رغم أن ذاكرتي لم تظفر منها إلا برحلة وحيدة أيام الطفولة، عندما هربت من أمي أثناء نومها بعد عملها الليلي الغامض. أقنعني أصدقاء الطفولة بالذهاب في مغامرة لن تعوض، اقتنعت عندما أخبرني أكبرنا وقائدنا حمو أنه سيرعاني بنفسه.

ابتسمت في مرارة وأنا أتذكر تقلب البشر، فقد قالها لي وهو ينظر إلى عيني بل إلى روحي ذاتها عبر عيني.

الآن مع كل ما خبرته، مع كل ما رأيت وسمعت؛ نضجت... تغيرت حتى في كلامي مع نفسي، تحولت، كأنما شِخْتُ عمرًا فوق عمري، مع كل ذلك لم أكن أبدًا لأصدقه.

لكن وقتها كم كنت ساذجة وصدقته، كان يمثل كل معاني القوة والشهامة في مرحلة

الطفولة، الكل ينظر له كمثل أعلى، الأولاد يرون فيه رجلًا مصغّرًا، قوي الشكيمة، كلمته واحدة، لا يكذب أو يتراجع عن معركة حتى لو كانت أكبر من قدراته، مقدام يقود ولا يُقاد، خمشت الحياة وجهه بآثار مشاجرات يحملها كوسام شرف.

أما الفتيات فهو لهن فارس الأحلام! رغم قوته رقيق طيب يعاملهن باللين، لا يقسو عليهن يدافع عنهن ضد اعتداءات أولاد المناطق الأخرى، لم أكن بمبعدة عن ذلك، فسقطت أنا الأخرى في شباكه، مع الوقت تحول بشكل تلقائي بيننا كأطفال إلى قدوة، رئيسنا الذي يأمر فيطاع ولا يناقش؛ ولهذا ذهبت معهم إلى القلعة في أفضل مغامرة علقت في ذاكرتي أستعيدها لتحلية مرار الأيام، لكن كل ذلك كان قبل أن يتحول.

لا فائدة من الغرق الآن في الذكريات، الهدف المحدد الآن أكثر أهمية من أي شيء.

بل أكثر أهمية من حياتي ذاتها!

ابتعدت عن الباب الخشبي العملاق فالحراسة عليه مشددة، توجهت إلى المدخل الذي قادنا إليه حمو قديمًا من ناحية البحر، فوجدت نفسي خلف الباب العملاق نفسه، تسبقني صورة خيالية لي وأنا طفلة بضفائر وشريطة حمراء، أتقافز ضاحكة بين الأولاد في ضوء الغسق، في نفس المكان بجوار ذات الباب نقش حمو بخط طفولي باستخدام حجر حاد شيئًا ما لم يسمح لي برؤيته وقتها!

كيف نسيت ذلك الأمر؟

تلاهيت وقتها مع الأطفال في العبث والتنقل بين الأشجار ولم أنتبه إلى إصراره على الانفراد بنفسه وتأكيده على ألا أرى ما كتب!

أخذتني قدمي إلى هناك بلا شعور.

نعم أذكر بدقة... كان هنا بجوار الباب العملاق، ناحية اليسار إلى أسفل بأقصى ارتفاع استطاع الوصول إليه مع قصر قامته وقتها.

رغم الإضاءة الضعيفة وجدت النقش، لم تمسحه السنين ولا أمطار الإسكندرية الكثيفة، قلب محفور كبير مرتعش بداخله اسمانا بخط متعرج!

رجُ المشهد قلبي.

كل هذا العمر كنتَ تحمل لي تلك المشاعر يا حمو؟

لكنه حب طفولي بريء، متى تحول إلى شهوة تملُّك حقيرة؟

ما الذي قلب حالك من الملاك إلى الشيطان؟

ربما لهذا عندما اتخذت قراري لم أفكر إلا في القلعة، المكان الوحيد الذي ظل يحمل بداخلي مشاعر نظيفة، لم يغدر بي أحد هنا.

لم يتخلَّ عني أحد هنا.

مسحت دموعي ودفنت مشاعري المكسورة، فليس ذلك وقتها الآن.

تجاوزت الباب لأرى خلفه مساحة عملاقة خالية إلا من بضع نخلات ومدافع أثرية، مع الإضاءة الضعيفة الممزوجة بستر الليل تحولت إلى ساتر ممتاز لي، هنالك أيضًا حديقة بسيطة بها بعض الأزهار الأقرب إلى الذبول، إلا أني أترك كل هذا وأدور حول بناية القلعة الرئيسة المنتصبة في الظلام بأحجارها البيضاء كحارس لا ينام، أتحرك بتوجُّس متوجهة ناحية بُغْيتي.

البرج الرئيس.

أدخل متسللة إلى الطابق الأول من القلعة أحبس أنفاسي ممتثلة لقدمي الحافية، فأقل صوت في هذا الصمت يتحول إلى ما هو أقوى من صافرات السفن، أستمر في التحرك البطيء على البلاطات العريضة التي تطلق ثلجًا أسفل باطن قدمي، لكني حقًا لا أبالي، فلم يعد لديَّ ما أخسر، قطعت خلفي كل السبل.

أصعد إلى الطابق الثاني، الدهاليز والممرات تعوي مع هبوب الريح العاتية وتقذف جسدي بصقيع فوق الصقيع، مع ذلك أستمر سعيًا إلى هدفي.

أعلى نقطة في البرج.

كم خاف الأطفال عندما أتينا إلى المبنى الأثري بأبراجه وارتفاعه المرعب، لكني الآن أذهب إليه بنفسي فهو طريق الخلاص، أصل إلى السطح الممتد إلى ما لا نهاية ليلتحم بخط الأفق في الظلام؛ فلا أعرف أين ينتهي البحر وأين تبدأ السماء التي تلقي غضبها من المطر بلا رحمة، لم يكن من المطر الخفيف الممكن التعامل معه، بل المطر الآخر ذلك الشرس الذي يلقي نفسه من السماء إلقاء المنتحرين، وتتناثر قطراته عند التصادم مع الأرض الإسفلتية ليتجمَّع في مستنقعات، النوع الحانق الغاضب الذي لا يمزح ولا يثير الشجون بل يسحق قرى ويحول الجبال إلى فتات طينية، وابل حقيقي ووبال أحق.

تعجبت مرة أخرى من طريقة تفكيري التي نضجت فما هو أكبر من سني بمراحل، لكني تجاهلت الأمر.

مشيت تتقاذفني هبات الرياح، أثبت قدمًا تلو الأخرى كأني أحارب عاصفة لا مجرد ليلة شتوية من ليالي الإسكندرية، ما يحدث ليس بالطبيعي على الإطلاق!

الطقس نفسه يتآمر لدفعي عن قراري، لكني لن أتراجع، لا سبيل آخر للخلاص إلا الهرب، لن أخسر أكثر مما خسرت بالفعل.

يتضافر ذهني المكدود للتعاون مع عوامل الطبيعة، فتتجسد أمامي خيالات مرة لأمي باكية على ركبتيها تطلب التراجع، فأصم أذني واحتضن لفافتي أكثر وأتقدم.

أتقدم رغم صوتها الذي يمزق نياط قلبي... كم اشتقت لصوتها!

ومرة أخرى يخيل لي سماع صوت أبي يتردد ممتزجًا بدوي الريح، أدرك بشكل غريزي أنه أبي رغم أني لم أسمعه يومًا يناديني، صوته رخيم قوي آمر:

- تراجعي... كفى ما فعلتِ من مصائب، نفذي الأمر يا بنت الـ...

يقاطع سماعي لهدير صوته هبة ريح عاتية تزعزع قدمي وتطرحني على ركبتي المخلخلتين، أقوم بعد عناء.

أتجاهل وأستمر فيذوب صوته في برد الشتاء، كل ما حولي بارد إلا ما بين ذراعي يشع بالدفء، بل يشع بالنور، حتى أني أحكم الغطاء حوله خوفًا من أن يراه أي شخص فيلفت الانتباه لمكاني!

المسافة من المدخل إلى طرف السطح تُقطع في دقائق، قطعتها أنا فيما يقارب الساعة!

ساعة كاملة من محاربة الطبيعة بكل عنف، أخيرًا وصلت إلى بغيتي فتوقفت لبرهة ألتقط بعض الأنفاس الباردة أعبها في صدري المتعب.

أنظر إلى اللفافة التي بيدي، أسمال مهلهلة لُفَّت كيفما اتفق حول...

طفل رضيع!

طفلي...

أرفع عن وجهه الغطاء ليتنسَّم معي رائحة البحر للمرة الأخيرة...

فيعمُّ نوره وجهي، كيف مرَّ معي بكل ما مررت حتى أصل إلى هنا دون بكاء، منذ ولدته لم يفعلها ولو حتى مرة!

شككت أنه فارق الحياة، وضعت إصبعي أسفل أنفه لأطمئن على أنفاسه... سليم.

حي.

لكن صامت.

أسمع همس أمي الباكية خلف أذني بالضبط، كأنها تتطلع إليه معي:

- حرام عليك، ما ذنبه؟

أتجاهلها، أدقق في ملامح وجهه الصبوح.

لا يبكي رغم الجوع.

رغم الفقر.

رغم البرد.

رغم مصيره المظلم.

بل ينظر لي بسكون غريب... كأنه يعلم ذلك المصير بل ويتقبله.

الغيوم تلتحم وتتحول إلى كتلة واحدة قاتمة، تنهمر منها الأمطار وتلتحم مع دموعي، تشوش الموجودات من حولي، تشد الريح ملابسي الممزقة تكاد تقتلعها من فوق جسدي بلا هوادة.

أخاطب رضيعي بصوت متقطع من عويل الريح والبرد القارس:

- الاختيار مستحيل في الحالتين.

ربما كان الهروب هو الحل.

«سامحني يا صغيري لا أستطيع الاستمرار!»

أتقدم خطوة للأمام وقلبي يتمزق، عيناي لا تفارقان عينيه الجميلتين ولكنه ما زال لا يبكي.

يصرخ في قلبي وأذني صوت أبي:

- كفى... تراجعي، كل ما مُزِّق يمكن رتقه!

أتجاهله وأتقدم خطوة أخرى، يشتد صوت الريح مصحوبًا بضربات الموج تصم أذني كأنها تعترض على الخطوة.

وما زال لا يبكي.

خطوة أخرى وكأن المطر يغير اتجاهه ليدفعني للخلف بزخات متتالية، تلازمه قبضة البرد الثلجية التي تجمد اللبن في ثديي إلى حد الألم.

وما زال لا يبكي.

خطوة أخرى قريبة للغاية من الهدف، بلا تراجع.

يتلامس باطن قدمي العاري مع السور المبلل، من أجل تلك الخطوة تضيء السماء بضربة برق مرعبة. انتفض لها جسدي كأنها تحذرني من المزيد، انعكس النور على عيني الصغير بين ذراعي فأضاءت بومضة خاطفة.

مع ذلك لم يبكِ.

وجهه الصبوح يفتت عزمي، لكن إصراري ينتصر، خطوة جديدة مرتعشة أرفع بها قدمي الثانية وأعتلي السور.

يتبع الرعد أخاه البرق ويتزامن مع ضربات قلبي التي تنافسه علوًا.

أنظر حولي، أتأمل البحر صديق الصبا والشيخوخة المبكرة، موجاته الغضوب تجلد جانب القلعة أسفلي بقسوة محذرة:

لا تستمري...

أسمعها في روحي بلهجة مألوفة آمرة.

الرياح تشد من أزرها في إثنائي عن قراري منذرة:

لا تفعلي.

الأمطار.

الرعود.

البروق.

السحب.

كلها تنشد معزوفة حزينة في أذني برسالة واضحة:

لا تُقدمي.

أسمعها في قلبي للمرة الأولى بلهجة مألوفة لكن منكسرة!

رغم ذلك أنصاع لقدري المحتوم وقراري الأوحد في حياتي، للمرة الأولى أحارب لفرض إرادتي. فأستمر وأفعل وأقدم، أتحرك ببطء نحو الهاوية منتهية من السور العريض فأقترب من الحافة؛ يصل إلى قدمي رذاذ الماء.

صدري ينقبض، تقلبات الطقس من حولي تعزف موسيقى ناي حزينة في أذني كالبكاء المصاحب للحظة الحقيقة.

اللحظة التي...

التي... أرفع ذراعي فيها إلى الأمام كأني أقدم طفلي قربانًا للبحر.

الريح تُطير القماشة التي تغطيه فيصبح عاريًا كما ولدته.

لا أجرؤ على النظر إليه.

أنكُس رأسي لأسفل في خزي.

لكن قلبي يجبرني على رفع وجهي إليه.

ما زال لا يبكي!

بل لعله يبتسم!

تختلط الأصوات جميعًا في ذهني وعقلي بكل النبرات واللهجات.

أتذكر ما مررتْ به منذ ولدت، أب هارب، أم ميتة، شيخ مغتصب، حبيب نذل، ولد من سفاح، حتى الملاذ الأخير نور لا أعرف مصيرها.

طوال مكوثي في بيت نور لم أدرك حجم مأساتي، كنت خائفة محطمة لكن أيضًا محمية، الآن من يقي لي؟

بمن أحتمي؟

أغالب ترددي وأحسم أمري.

المقاومة عبث صريح، ضرباته قوية موجعة ولا أقوى على صدها، ولا أقدر على الاستسلام له.

إذًا هو الهرب.

تنهار مقاومتي ومعها قدمي، ألقي بجسدي للأمام.

ونهوي معًا وأنا أصرخ:

- سامحني يا ولدي لقد تخلى الله عنا!

## -21-

# سِفر النهاية

**بعد منتصف ليلة 31 ديسمبر**

**قبل فجر 1 يناير**

تدوّي صافرات عربات الشرطة المتجمعة أسفل سور قلعة قايتباي، تضيء الليل بألوان الأزرق والأحمر المتعاقبة، فتنعكس على وجوه المجتمعين في وجوم يطالعون المشهد المأساوي.

جثة مريم مسجاة على وجهها، يسيل من أنفها خيط من الدماء، عيناها مفتوحتان وقد فقدت بريق الحياة، أسفل يدها اليسرى لفافة قماشية متوسطة الحجم تنتشر أسفلها بقعة سوداء من الدماء.

ينحني ضابط الشرطة على ركبته، يرفع القماشة التي تغطي اللفة، ينظر أسفلها، ترتسم على ملامحه علامات الاشمئزاز، يرفع نظره لزميله في ملابسه المدنية ليقول بلهجة متعبة:

- ما رأيك؟

لا يرد الآخر من فوره بل يخرج قداحته ويشغل سيجارة من علبته، وينفث منها بعمق ثم يسأل بلهجة ملولة بعض الشيء لا تتناسب مع جلال الموقف:

- من المُبلغ عن الحادث؟

أجاب الأول مشيرًا إلى عامل بسيط يرتدي زي (جيلاتي عزة) الشهير ليتقدم، فانصاع الأخير وقال بنبرة مرتعشة:

- أنا يا سيدي، رأيت نور عظيم ينبعث من أسفل القلعة، هرعت إلى هنا فوجدت الدماء في كل مكان كما ترى، أدركت أن من واجبي أن أبلغكم وفعلت.

تجاهله الضابط والتفت إلى زميله:

- لم أكن لأخرج من أسفل الأغطية في ليلة رأس السنة، لولا تعليمات الوزارة المشددة بالاهتمام بكل ما يتعلق بالمواقع الأثرية.

وضع يده على كتف زميله واستطرد:

- أنا أخطط لليلة رأس سنة عائلية هادئة بجوار المدفئة مع فيلم خفيف وطبق من الفشار،

العامل مرهق من آثار السهر، وأعتقد أن نور سيارة عابرة هو ما جذب انتباهه، القصة واضحة بدون أي التباس، أم خاطئة مارست الرذيلة مع أحدهم.

هز كتفيه وأكمل:

- حملت، رفض الاعتراف بالجنين، انتحرت هاربة بعارها!

ثم استدار مبتعدًا تجاه الأضواء المتعاقبة الصادرة من سيارته الحكومية وأكمل وهو يطوح عقب سيجارته تجاه البحر:

- اقفل المحضر يا حضرة الرائد، لا تطل سهرتنا أكثر من ذلك، ولا تشغل بالك!

الأمر كله، مجرد...

حادثة شرف.

## - 22 -

# السّفر الأخير

**القيامة**

**31 ديسمبر**

**وقت غير معلوم!**

**هل ماتت فعلا؟**

ولا تزال واعية؟

كيف؟

مرتبكة.

محطمة.

لكنها لم تمت، مع أنها تشعر بأعراض الموت، كأن جسدها ذهب لكن روحها بقيت، تجسّد ذلك في تشوّش ذهنها وذاكرتها، الأسماء أول ما تسرب من وعيها بعد انقطاع النفس وتوقف القلب عن النبض. ما زالت تحتفظ بذكريات مبهمة في ذاكرتها لأشخاص عرفتهم ولكن تعجز عن ربط الصور بالأسماء.

بقيت في عقلها صور لأمها في ليالي شتاء ديسمبر، تحمل أكياس الطعام وتدخل من فرجة الباب وشعاع الشمس المشقشق من ورائها، تحمل معها كل الخير والمتع البسيطة، تذكرها جيدًا برائحتها وملامحها وثيابها لكن...

لكنها نسيت اسم أمها!

***

توسطت الشمس السماء، توهّجت وأحرقت حرارتها جسد مريم المسجى على الأرض. يقترب منه طيف ضبابي غير واضح الملامح، لكن مع اقترابه المتمهّل تتضح ملامحه، رجل طويل القامة يرتدي بذلة بيضاء كاملة، كل ما فيها أبيض، السترة، القميص، ربطة العنق حتى الحذاء. حليق الوجه، وسيم الملامح، بعينين سوداوين شديدتي القتامة وفك مربع، شعر فاحم السواد مصفف على طريقة أنور وجدي في الأفلام القديمة؛ ملامحهما في حد ذاتها متقاربة، لا تتشابهان لكنها تحمل نفس الإحساس اللعوب، الكاريزما المخلوطة بالنرجسية،

ويتركز هذا التأثير من نظراته...

نظرات نمر متربص بالفريسة، نظرات من تأكد أن الهدف أصبح لا حول له ولا قوة فيتقدم وكأنه يمتلك كل الوقت في العالم، يمشي في تؤدة المنتصر بلا صوت للخطوات، لولا نظراته التي تفضح لمحة من الغضب كأنما يحمل معه رغبة انتقام دفينة منذ آماد بعيدة، يحمل في يده عصا متوسطة الطول رفيعة من الأبنوس، يزينها رأس من العاج الأبيض لحيوان أو زاحف ما لا تتبينه مريم المطروحة على الأرض، تحتضن جثة وليدها بين أصابعها المدممة بضعف.

لا تعلم أين هي، فليست على الشاطئ الصخري الملاصق للقلعة كما هو متوقع، لكنها على شاطئ آخر تحرك الرياح رماله بقوة نسبية أجبرتها على تغطية عيناها، لكن سرعتها تزيد كأن الريح تتعمد اقتلاع مريم من مكانها، ريح عنيفة قاسية باردة.

**يبدو أني على شفير النهاية...**

**الصورة تتذبذب أمام ناظري لا أعلم من القادم، لكني رأيته من قبل، أشعر نحوه بألفة عجيبة مصحوبة برهبة غير مفهومة، أخافه ولا أعلم لماذا! لكنني أرتاح إليه أيضًا!**

**ربما كانت هلوسات الموت...**

**الموت...**

**كيف لم أمت بعد سقطة مثل تلك؟**

**أرى القادم تجاهي تتغير صورته، بل تتذبذب بالترتيب إلى نوران.**

**ضياء.**

**إدريس.**

**بل حتى إلى سناء صديقة أمي التي لم أرها إلا مرات معدودات!**

**كيف؟**

**لا يهم!**

**هل يعوّل على رؤيا منتحر؟**

**فلا أنا من أولياء الله ليرفع عني الحجاب ولا أنا ارتكبت من الحسنات ما يدعني أرى الحقائق شفافة.**

**بالتأكيد هي تخاريف الاقتراب من القبر.**

يصل إليها الغريب المتمهّل، يقرفص على ركبة واحدة بجوار أذنها ويهمس كأنه يقرأ دواخلها:

- لا يا صغيرتي، أنت لا تهلوسين، بل ما ترين الآن هو الحقيقة التي عميت عيناك عنها منذ ولدت، أنا كل هؤلاء وأكثر، أنا «الحقيقة» التي أغشت أنظار الجميع، بل فتحت عيونهم على ما لا يرغبون في رؤيته.

اشتعلت عيناه بالغضب كأنها جمر من سجّيل، أرتج على مريم وارتعشت أعضاؤها المتهالكة وهي التي ظنّت أنها لم تعد تخشى شيئًا بعد وصولها لحافة اليأس، ملامحه الوسيمة انقلبت وتوحّشت كأنما هو بركان مكتوم بحنق منذ بداية الخليقة وانفجر فأخذ يهس بفحيح غاضب مكملًا:

- لماذا تسرعتِ يا فتاتي؟ ما زالت الجولات طويلة، فريقي دائمًا يكتسح المنافس!

دار حولها يتجول ويتحول لكل من كان له دور في حياتها، فبين الفينة والفينة تتغير تضاريس جسده، من رجل إلى امرأة، من عجوز لشابة، يستطيل ويقصر. كل ما فيه يتغير إلا صوته الرنان يخترق أعماقها ويكمل:

- ألم تري ما خسر قومك عندما مشى الجميع في طريقه وتعاموا عن طريقي؟

أستطيع إعطاءكم الجنة على الأرض بلا أدنى تأخير، فوعدي لحظي التحقق أما وعده فمؤجل!

لكنكم فضّلتم التجاهل ككل بني جلدتكم، دائمًا ما كانت بذرة ما بداخلكم تضلكم للطريق الآخر، نعم... بذرة؛ طفرة؛ شيء ما لم أقدر على الوصول إليه.

السؤال هو، لماذا تمتلكينه أنت ولا أمتلكه أنا؟

**هل عقلي يحتضر فيخيل لي ضلالات؟**

**لماذا لا أموت الآن؟**

**أين أنت أيها الموت؟**

**لماذا لا تنقذني من هذا الـ... الـ... الخوف المتجسد؟**

استدار ببطء وأمسكها من الأسمال التي ترتديها، قرّب وجهه الغاضب منها، اقترب إلى حد التلامس، تأمل وجهها المرتعد كأنه يتفحصها.

أمسك وجهها من أسفل ذقنها بقوة غريبة -مؤثرة وغير مؤلمة- ليمنع عينيها من الإفلات خارج براثن عينيه، اللتان أخذتا تتسعان بلا توقف لتغرقها، تبتلع ذهنها المشوش بدخان ذكرياته هو...

كأنهما اندمجا معًا، زالت ما بينهما من حواجز وكشفت الحجب، فقبل أن يخترق روحها رأت هي ما في داخله.

رأت وسمعت.

رأت الدخان وشمت الصرخات وسمعت الألم والعذابات، المرض والظلم والموت، والكثير من الظلام.

تفتت ذرات جسدها في كيانه وزال كيانها، فنت روحها فيما كان يومًا ما روحه أو بقاياها، شاهدت لمحات مما عاش، صور ثابتة لكنها نابضة.

أماكن وأزمان لم ترها ولم تسمع عنها أو منها، لكنها بشكل ما تعرفها، حصار طروادة.

خلط الدم مع النبيذ.

الفتنة الكبرى والرمال البيضاء التي تشربت حمرة الدماء.

مذابح الأرمن، والجنود تسوق الأطفال والنساء والشيوخ كأنهم نمل الأرض في طابور طويل لا ينقطع، يتساقط أفراده من البرد والجوع والضعف.

غزوات جيوش هتلر تقطع الكثبان الرملية المشتعلة بالحرارة في شمال إفريقيا وتدك لندن بالطائرات.

حرائق نيرون ورائحة الشحم البشري المحترق تصل إلى عنان السماء.

صوت رصاص الإنجليز في دنشواي، يحصد وجوه البسطاء المتعرقة وأجساد الفلاحين المدبوغة بالشمس، يطغى على صوتها نعيق الغربان المخيف كنذير شؤم لا يغادر المشهد.

وطفلة...

طفلة صغيرة تسرق طعامًا من عجوز أريبة وتخفيه أسفل السرير!

في كل الأماكن والأزمان هو موجود.

لا يحتل الصدارة لكن عيناه تكشفانه.

مستشار نيرون.

فاتن الصحابة.

وزير هتلر.

و...

موجود لكنه غير متواجد ولا ملموس، كأنما وجوده قائم على الغياب.

إلا من لمسات غضبه ونقمته وشعوره بالـ.. ظلم!

لمسات وصلت إليها وتلبدت في مشاعرها.

وتفهمت منها انتقامه وشعرت بلعنته.

هو فقط وحيدا

لوهلة شعرت نحوه بالشفقة!

لكنه لم يعطها الفرصة للاستمرار داخله أو إكمال مواساتها، طردها من وجدانه، استعاد تماسكه، اقتحمها هو ليفتش ذكرياتها، يقلب الآمال والطموحات، يسبر أغوارها.

يبحث عن التميز فيها، وفي جدودها أجمعين.

ولما عجز عن إيجاده ألقاها بإهمال جوار رضيعها، هزم الرعد كما لم يكن من قبل حتى ارتجت الدنيا من حول مريم، وتحولت الأمطار إلى شلالات، خفض معها صوته ورأسه، رفع كفيه إلى السماء يخاطبها بصوت مكتوم:

- لكنها كسرت قواعد اللعبة فانتحرت وقتلت الرضيع، وهذا لم يكن في الاتفاق منذ البداية.

عاد إليها يمشي بتمهل وقد لانت عكارة ملامحه بعض الشيء، انحنى مرة أخيرة على ركبته يهمس لمريم:

- لكني أكثر رحمة من غيري!

آخر فرصك هنا والآن.

في البرزخ، الممر الفاصل بين التسيير والتخيير، لكني أقدر على إعادتك.

إليك عرضي؛ ضعي يدك في يدي وسأصلح كل شيء، سيعود أبوك وأمك كما رأيتهم في حلمك وأبهى، ستملكين قرارك بالكامل وللأبد، ستحبين حمو الرجل المرموق لا تاجر

المخدرات، وعاقد قرانكما سيكون جبريل نفسه الشيخ الطيب، الأب لا المغتصب، ولدك سيكبر في كنفك سليمًا معافى، كل ما حلمت أو رغبت به سيكون وفوزًا...

لا أتعامل بالأجل ولا نعيمي بعد حين.

مد يده وابتسامة عابثة تتراقص على شفتيه مكملًا:

- لماذا تقاتلين لمحاربة نفسك...

لقد خُلقتِ لا محدودة القدرات فكبلك هو...

تمردي!

لا أطلب سوى الاختيار... ضعي يدك في يدي وهزي رأسك إيجابًا؛ وسأتكفل أنا بالبقية.

انسابت دموع مريم صافية، عذبة المذاق على شفتيها.

كل ما بداخلها يدفعها للقبول، إلا نقطة واحدة.

نقطة بيضاء ترفض.

نقطة من نور!

بسببها لم تقدر؛ لم تقدر إلا على هز رأسها... بالنفي!

لما تيقَّن من إجابتها الأخيرة أطلق زفيرًا يحمل غضبًا مكبوتًا من قرون ولّت وأكمل:

- لا تعتقدي أنك بهذا حصلت على الخلاص، فأنا أحصد جائزتي في النهاية، افترقنا هنا برغبتك، لكننا سنلتقي المرة القادمة برغبتي، في ملعبي، بشروطي أنا، فهناك أنا الآمر الناهي.

أنهى كلامه وابتسم ابتسامته الجذابة ثم أمسك بجثة الرضيع برفق بين ذراعيه وارتسمت على وجهه نظرات عجيبة هي خليط بين الحنان والنقمة، مسح على وجهه ليزيل الماء والدم ببطء في حركة واحدة واثقة، وختم مقالته وهو يشير إليها بالطفل:

- اللعبة ستستمر، الرهان قائم بيني وبينه، إما فريقي أو فريقه، ولنرى هل سيكون نسختي أم نسخته!

فور الانتهاء من جملته فتح طفلها عينيه و ...

بكى!

الآن يبكي، بعد أن كان صوت بكائه أمنية معلقة بهتت مع الزمن في نفس مريم، بكى قليلًا

ثم سكت.

لكن مريم كانت تبتسم.

أخيرًا.

تبتسم بمرارة مخلوطة بالفرحة والدم ينساب ببطء من شفتيها، أخيرًا تحررت من الإثم الذي لم ترتكبه يومًا.

تمتمت بصوت خفيض: من فضلك، أخبره...

عندها أومأ الغريب بوجه جامد بلا تعبير وهو يحتضن الطفل إلى صدره ثم استدار يمشي مبتعدًا، باتجاه نور الفجر المتشقق من خلف الغيوم، مع ذهابهما الوئيد إلى العدم بدأت عينا مريم في الانغلاق استعدادًا للرحلة الأطول ذات الاتجاه الواحد.

وخُيِّل إليها أن آخر ما سمعت هو صوت وليدها في جنبات عقلها يتردد طفوليًا: «لا تخافي يا أمي».

متبوعًا بصوت الشيخ فرحات يصيح: الله حي.

تمت

# ما بعد القيامة

# ما قبل البداية

**في زمان غير معلوم ومكان غير منظور.**

ضباب خفيف في فراغ ثقيل، يجلس كل من ضياء ونور متقابلين على كرسيين من الخشب الأسود اللامع تبدو عليهما مظاهر القِدم، مزخرفان بالأرابيسك، تتوسطهما منضدة خفيضة تعلوها رقعة شطرنج تتناثر عليها القطع العاجية في نظام عشوائي!

ينثني ضياء محدقًا في تركيز إلى القطع النصف شفافة البيضاء والسوداء وهو يريح ذقنه على قبضته المضمومة، تبدو على وجهه أمارات غضب يعجز عن كبحه، تقابله نور على الجانب الآخر مسترخية على ظهر المقعد المرصع بالصدف وعلى شفتيها بسمة خفيفة منتصرة.

لا يحرك أي منهما ساكنًا، المشهد متجمد بالكامل، إلا من انسياب خفيف للضباب يدور حولهما ببطء، قطع الصمت صوت ضياء العميق يقول:

- الضغط لم يكن كافيًا.

ردت نور وبسمتها تتسع:

- مهما زاد، الفطرة دائمًا تنتصر، ستظل تهزم حتى النهاية.

ردت «سناء» محتدة بصوتها الرفيع:

- بل سأظل أحاول حتى النهاية، لن أستسلم.

انحنت «نور» إلى الأمام تنظر في ثبات وقالت:

- لماذا؟ النتيجة محسومة، زاد ضغطك عليها، أفقدتها كل ما تملك، ضيقت عليها السبل، وضعت العراقيل، وكان رهانك أنها لو رأت الفرصة في النعيم، إن وجدت فرصة لإعادة حياتها إلى أفضل مما كانت مهما كان المقابل ستكفر بكل شيء وتضع يدها في يدك، لكن فطرتها السليمة رفضت، ببساطة رفضت.

اتسعت ابتسامتها أكثر وأردفت:

- لا تصبح خاسرًا سيئًا واعترف، لم تختر الهدف جيدًا منذ البداية.

زفر «إدريس» زفرة حارة وعاد بظهره بدوره للوراء متعجبًا من خسارته في أي لعبة:

- أنا أرفض الخسارة.

اتسعت ابتسامة «نور» أكثر فأكثر وردت:

- بل هو الكِبر يا عزيزي، داؤك الأصلي.

تجاهلت «نوران» قولها وأزاحت شعرها الناري من أمامها ثم شرعت في إعادة ترتيب القطع وقالت دون النظر إلى «نور»:

- دور آخر؟

أطلقت ضحكة قصيرة وقالت باسمة:

- لدينا كل الوقت، ما الضرر إذًا؟ ليكن دور آخر، اختر هدفك.

وغمزت تستفزه وأكملت: بعناية هه، بعناية هذه المرة.

تساءلت «سناء» دون أن تلتفت إلى تقريعها وهي تمد لها يدها بقطعة صغيرة بيضاء من الشطرنج تتشكل على هيئة طفل رضيع:

- الطفل؟

هزت نور كتفيها في لا مبالاة وقالت موافقة، وهي تتناول القطعة من الغريب:

- ليكن... الطفل.

***

الآن وقد نفذت رغبتها الأخيرة ونقلت لك ما حدث، وفاء لأيام خوالٍ تشاركنا فيها...

فأنا أكثر كرمًا مما تتخيل.

ربما فهمت، ربما لم تفهم!

لا يهم، ما زالت اللعبة قائمة، ولنلتقي في جولات قادمة.

ضياء

الغريب

تمت من جديد

# في الختام

كل الأماكن المذكورة في الإسكندرية حقيقية، لكن تم التحكم فيها بتصرف من خيال المؤلف لخدمة حبكة الرواية.

أما كل الشخوص والأحداث فهي من خيال المؤلف، وأي تشابه بينها وبين الواقع هو من قبيل المصادفة ليس إلا.

لكن بعض من أحداث الرواية حدثت بالفعل في زمن ما، في مكان ما.

أين هو الخيال؟ أين هي الحقيقة؟

تلك هي المسألة...

# شكر خاص

لولا بعض الأسماء التي أكنُّ لها كل التوقير والتبجيل ما رأت تلك الرواية النور، مسبوقًا بتوفيق الله، لذا وجب علينا الشكر.

مع كامل الاحترام للمكانة والألقاب:

- هشام الخشن؛ رغم ازدحام حياتك قرأت مرة أولى وثانية ثم علمتني طريقة لم أكن أتخيلها في مراجعة العمل.

قولك عالق في ذهني: «هيطلع منها حاجة حلوة».

- شيرين هنائي، الأستاذة والصديقة والزميلة والأخت.

كنتِ دومًا تلميذة العراب وأنا أعتبر نفسي تلميذ تلميذته.

- أحمد عبد المجيد، غيرت طريقتي في القراءة وتركتها تنعكس على كتاباتي.

- كريم النجار، دفعتنا-أنا والرواية -للنور.

# الكاتب في سطور

طارق عز سيد.

مواليد القاهرة 25 أكتوبر 1983.

يعمل في الطيران المدني.

صدر له مجموعة قصصية مشتركة باسم «اعترافات».

«بوكتيوبر» يقوم بعمل فيديوهات تعليمية على موقع يوتيوب لنقد الكتب وتعليم فنون الكتابة الروائية في قناة كوكب الكتب.

حاصل على مجموعة من الدراسات المتخصصة في فن الرواية السينمائية والبناء الدرامي.

حاصل على المركز الأول في جائزة «IREAD» للقصة القصيرة موسم 2021 ضمن أكثر من 1500 متسابق.

والقائمة القصيرة لنفس الجائزة موسم 2022.

شارك في المجموعة القصصية «اليوم الأخير» الصادرة عن مؤسسة «IREAD» مع قصص للكاتب محمد فتحي وشيرين هنائي.